مقدمة

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد صلى الله عليه وسلماً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه؛ ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً أما بعد:

فإنَّ من المهم في كل فن أن يتعلمَ المرءُ من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول؛ ليكونَ علمه مبنيًّا على أسس قوية ودعائم راسخة، وقد قيل: من حُرِمَ الأصول؛ حرم الوصول.

ومن أجلِّ فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها: علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل، وقد وَضَعَ أهلُ العلمِ له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً.

وقد كنتُ كتبتُ من هذا العلمِ ما تيسَّرَ لطلابِ المعاهد العلمية في جامعة الإِمام محمد صلى الله عليه وسلم بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفردها في رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي:

*** القرآن الكريم:**

1 -متى نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن نزل به عليه من الملائكة.
2 -أول ما نزل من القرآن.
3 -نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي
4 -القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرَّقاً، وترتيب القرآن.
5 -كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.
6 -جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم.

*** التفسير:**

1 -معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.
2 -الواجب على المسلم في تفسير القرآن.
3 -المرجع في التفسير إلى ما يأتي:

- أ - كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.
- ب - سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.
- جـ - كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

- · د - كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.
- · هـ - ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي؛ أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.
- · 4 -أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.
- · 5 -ترجمة القرآن: تعريفها - أنواعها - حكم كلِّ نوع.

* خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير ثلاث للصحابة واثنتان للتابعين.

* أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه:
-موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.
-التشابه: حقيقي ونسبي.
-الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.
*موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.
الْقَسَم:
تعريفه - أداته – فائدته.
القصص:
تعريفها - الغــــــرض منها - الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر والأسلوب
*الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.
*الضمير:
تعريفه - مرجعه - الإظهار في موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته - ضمير الفصل وفائدته.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مَصْدَرُ قرأَ بمعنى تَلا، أو بمعنى جَمع، تقول: قَرَأَ قَرْءاً وقُرْآناً، كما تقول: غفر غَفْراً وغُفْراناً فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدراً بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعنى متلوّ وعلى المعنى الثاني (جَمَعَ) يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام[1].

والقرآن في الشرع: كلامُ الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس قال الله تعالى:)إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً).
[الإنسان: 23] ، وقال: {)إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:2).

وقد حَمَى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفَّل عز وجل بحفظه فقال:)إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9) ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم

[1] ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضاً؛ أي بمعنى مجموع؛ لأنه جمع في المصاحف والصدور.

يحاول أحدٌ من أعدائه أن يغيرَ فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل إلا هتك الله تعالى ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدلُّ على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: {)وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر:87)(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (قّ:1)

وقال تعالى: {)كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:29

{)وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام:155) }،)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة:77) }، {)إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) (الاسراء:9).

وقال تعالى: {)لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:21) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (التوبة:124)وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) (التوبة:)(125).

{)وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ)(الأنعام: من الآية19) }،)فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) (الفرقان: 52).

وقال تعالى:{)نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل: من الآية89) }

وقال تعالى: {)وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)(المائدة: من الآية48).

والقرآنُ الكريمُ مصدرُ الشريعةِ الإسلامية التي بُعِثَ بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناسِ كافَّة، قال الله تعالى:{)تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (الفرقان:1) }، {)الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (ابراهيم:1))اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (ابراهيم:2).

وسنةُ النبي صلى الله عليه وسلم مصدرُ تشريعٍ أيضاً كما قرره القرآن، قال الله تعالى: {)نْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) (النساء:80) }{) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)(الأحزاب: من الآية36) } ، {)وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر: من الآية7) } ، {)قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران:31)

1 -

نزول القـرآن

نزول القرآن نَـزل القـرآنُ أوَّل ما نـزل على رسـول الله في ليلة القـدر في رمضـان، قـال الله تعـالى: {)إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَدْرِ) (القدر:1)} ،)إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) (الدخان:3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) (الدخان:4) {)شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ) (البقرة: من الآية185)}

وكـان عُمْـرُ النـبي صـلى الله عليه وسـلم أول ما نـزل عليه أربعين سـنة على المشـهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسـيِّب وغـيرهم وهـذه السِّنُّ هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعـالى إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم ، جبريلُ أحدُ الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعـالى عن القـرآن: {)وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ) (الشـعراء:192)(نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ) (الشـعراء:193) عَلَى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ الْمُنْـذِرِينَ) (الشعراء: 194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء:195)

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميـدة العظيمـة، من الكـرم والقـوة والقـرب من الله تعـالى والمكانة والاحـترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسـول الله تعـالى بوحيه إلى رسـله قـال الله تعـالى: {)إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَـرِيمٍ) (التكـوير:19) ذِي قُـوَّةٍ عِنْـدَ ذِي الْعَـرْشِ مَكِينٍ) (التكـوير:20)(مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) (التكوير:21))عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوَى) (النجم:5) (ذُو مِـرَّةٍ فَاسْتَوَى) (النجم:6)(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) (النجم:7)

وقـال:)قُـلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِـالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل:102)

وقد بيَّن الله تعالى لنا أوصاف جبريل، الذي نزل بالقرآن من عنـده، وتـدل على عظم القـرآن، وعنايته تعـالى بـه؛ فإنه لا يرسل من كان عظيماً إلا بالأمور العظيمة

2 - أول ما نزل من القـرآن

أول ما نـزل من القـرآن على وجه الإطلاق قطعـاً الآيـات الخمس الأولى من سورة العلـق، وهي قوله تعـالى: {)اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق:1) خَلَـقَ الْأِنْسَـانَ مِنْ عَلَـقٍ) (العلـق:2) اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (العلق:3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) (العلق:4)(عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلـق:5) ثم فـتر الـوحي مـدة، ثم نـزلت الآيـاتُ الخمسُ الأولى من سـورة المـدثر، وهي قوله تعـالى: {)يَا أَيُّهَا الْمُـدَّثِّرُ) (المدثر:1))قُمْ فَأَنْذِرْ) (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) (المدثر:3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) (المدثر: 4)))وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (المدثر:5) ففي "الصـحيحين": "صـحيح البخـاري ومسـلم"[(1)] عن عائشة رضي الله عنها في بـدء الـوحي قـالت: حـتى

(1) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب 1: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم...، أصول في التفسير، حديث رقم 3؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله

جاءه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ (يعني لستُ أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه ثم قال:)اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)} إلى قوله:)(عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) } [العلق: 1 ـ 5] وفيهما[1] عن جابر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء" فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)قُمْ فَأَنْذِرْ) (المدثر:2))وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) } إلى (المدثر: 1 – 5).

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أوّل ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أوليّة مقيدة مثل: حديث جابر رضي الله عنه في "الصحيحين"[2] أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) } [المدثر: 1] قال أبو سلمة: أنبئت أنه {)اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) } [العلق: 1] فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله : قال رسول الله : "جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت" فذكر الحديث وفيه: "فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبّوا عليّ ماءً بارداً، وأنزل عليّ: {)يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) } إلى قوله:))وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) } [المدثر: 1 - 5] "

فهذه الأوَّلية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله:)قُمْ فَأَنْذِرْ } [المدثر: 2] ولهذا قال أهل العلم: إن النبي صلى الله عليه وسلم نُبِّئ بـ: { اقْرَأْ } [العلق: 1] وأرسل بـ (المدثر) [المدثر: 1]

3 - نزول القرآن ابتدائي وسببي

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى:)وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) (التوبة:75) } الآيات، فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له[3].

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه والسبب:

أ -إما سؤال يجيب الله عنه مثل:{)يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)(البقرة: من الآية189)}

صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 403 [252] 160.

[1] أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب 1: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 4؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 406 [255] 161.

[2] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب 3: قوله: (يا أيها المدثر)، حديث رقم 4924؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 409 [257] 161.

[3] رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: {)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)(التوبة: من الآية65) } الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبه { (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)(التوبة: من الآية65)}[4].

جـ -أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل:)قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة:1} الآيات.

فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًّا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

1 - بيان أن القرآن نزل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى عليه الأمر الواقع، فينزل الوحي مبيناً له.

مثال الأول: قوله تعالى:)وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (الاسراء:85) ففي "صحيح البخاري"[5] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: {)وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء: 85] الآية

ومثال الثاني: قوله تعالى: {)يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَل)(المنافقون: من الآية8)ـ ، ففي "صحيح البخاري"[1] أن زيد بن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله بن أُبَي رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعزُّ ورسول الله وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم زيداً، فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبَي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ؛ فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله

2 - بيان عناية الله تعالى برسوله في الدفاع عنه

مثال ذلك: قوله تعالى: {)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (الفرقان:32)

---

[4] ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تفسيره (2/368)، والطبري أيضاً (10/172).

[5] أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً). حديث رقم (125)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وقوله: (يسألونك عن الروح...) الآية. حديث رقم (2794).

[1] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: (إذا جاءك المنافقون قالوا إنك لرسول الله) الآية. حديث رقم (4900)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم. حديث رقم (2772).

وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي صلى الله عليه وسلم وتطهيرٌ له عمَّا دنَّسه به الأفَّاكون.

3 - بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم، ففي "صحيح البخاري"[2] أنه ضاعَ عقدٌ لعائشةَ رضي الله عنها، وهي مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأقام النبي صلى الله عليه وسلم لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر والحديث في البخاري مطولاً

4 - فهم الآية على الوجه الصحيح.

مثال ذلك قولهُ تعالى: {)إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا)(البقرة: من الآية158)} أي يسعى بينهما، فإنَّ ظاهر قوله: {فلاجناح عليه } [البقرة: 158] أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح وفي "صحيح البخاري"[3] عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله تعالى: { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة: 158] إلى قوله: { أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } [البقرة: 158] وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: { مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة: 158]

عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملاً لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن القرآن نزل تشريعاً عامًّا لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: {)وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (النور:6) } إلى قوله (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (النور:9) النور: 6 - 9] ففي "صحيح البخاري"[4] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البيِّنة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: { {)وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ } [النور: 6] فقرأ حتى بلغ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [النور: 9] الحديث.

---

[2] أخرجه البخاري، كتاب التيمم، قول الله تعالى: (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) حديث رقم (334)، ومسلم، كتاب الحيض، باب التيمم. حديث رقم (367).

[3] أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به. حديث رقم (1278).

[4] أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا دعي أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة. حديث رقم (2671).

فهذه الآيات نـزلت بسـبب قـذف هلال بن أمية لامرأتـه، لكن حكمها شامل له ولغيره، بـدليل ما رواه البخـاري من حـديث سـهل بن سعد رضي الله عنه، أن عويمر العجلاني جـاء إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: يا رسـول اللـه، رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي صلى الله عليه وسـلم : قد أنــزل اللــهُ القــرآنَ فيك وفي صــاحبتك فأمرهما رســول الله بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها الحديث[1].

فجعل النبي صلى الله عليه وسـلم حكم هـذه الآيـات شـاملاً لهلال بن أمية وغيره.

4 - المكي والمدني

نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله أكثرها بمكة، قـال الله تعـالى: {)وَقُرْآنـاً فَرَقْنَـاهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـاهُ تَنْزِيلاً) (الاسراء:106)

ولذلك قسَّـم العلمـاء رحمهم الله تعـالى القـرآن إلى قسـمين: مكي ومدني:

فـالمكي: ما نَـزَلَ على النـبي صـلى الله عليه وسـلم قبل هجرته إلى المدينة

والمـدني: ما نـزل على النـبي صـلى الله عليه وسـلم بعد هجرته إلى المدينة

وعلى هــذا فقوله تعــالى: {)الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الْأِسْـلامَ دِينـاً)(المائـدة: من الآية3) } من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النـبي صـلى الله عليه وسـلم في حجة الـوداع بعرفـة، ففي "صـحيح البخـاري"[2] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليـوم، والمكـان الـذي نـزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ - أما من حيث الأسلوب فهو:

1 - الغـالب في المكي قـوة الأسـلوب، وشـدة الخطـاب؛ لأن غالب المخاطبين مُعرِضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلــك، اقرأ سورتي المدثر، والقمر

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسـهولة الخطـاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، اقرأ سورة المائدة

2 - الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة؛ لأن غــالب المخـاطبين معانـدون مشـاقون؛ فخوطبـوا بما تقتضـيه حـالهم، اقـرأ سورة الطور

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب قوله عز وجل: (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء...) الآية. حديث رقم (423)ن ومسلم كتاب اللعان. حديث رقم (1492).

[2] أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. حديث رقم (45)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة. حديث رقم (3015).

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام؛ مرسلة بدون محاجة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ آية الدَّيْنِ في سورة البقرة.

ب - **وأما من حيث الموضوع فهو**:

1 - الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصاً ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

2 - الإِفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال؛ ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة؛ وذلك لأن فيها فوائد منها:

1 -ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطِب كلَّ قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

2 -ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

3 -تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

4 -تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية؛ لتأخر المدنية عنها.

الحكمة من نزول القرآن مفرقاً:

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني؛ يتبين أنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً ولنزوله على هذا الوجه حِكَمٌ كثيرة منها:

1 - تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى: {}(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ)(الفرقان: من الآية32)) (الفرقان: من الآية32) (يعني كذلك نزلناه مفرقاً) لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً : 32))وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (الفرقان:33).

ليصدوا الناس عن سبيل الله - } إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) [الفرقان: 32، 33].

2 - أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئاً فشيئاً؛ لقوله تعالى:)وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) (الاسراء:106).

3 - تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية؛ لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإِفك واللعان.

4 - التدرج في التشريع حتى يصلَ إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه، وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجَابَهُوا بالمنع منه منعاً باتًّا، فنزل في شأنه أولاً قوله تعالى:)يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة:219).

فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه

ثم نزل ثانياً قوله تعالى: {)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)(النساء: من الآية43)}ـ ، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثاً قوله تعالى: {)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90) (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة:91) (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (المائدة:92) فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعاً باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيِّئت النفوس، ثم مُرِنَت على المنع منه في بعض الأوقات

ترتيب القرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تالياً بعضه بعضاً حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفاً في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلاً من

)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة:2)

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلاً من: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة) ففي "صحيح البخاري"[(1)] أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى:)وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة240) : قد نسختها الآية الأخرى يعني قوله تعالى: {)وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً)(البقرة: من الآية234) } وهذه قبلها في التلاوة قال: فَلِمَ

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشر...) الآية حديث رقم (4530).

تكتبها؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغيِّر شيئاً منه من مكانه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه السُّوَر ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[1].

النوع الثالث: ترتيب السُّوَرُ بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجباً وفي "صحيح مسلم"[2] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري[3] تعليقاً عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لمَّا اتفقوا على المِصْحَف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سَنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب اتباعها" اهـ.

5 - كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة؛ لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عُسُب النخل، ورقاع الجلود، ولِخاف الحجارة، وكِسر الأكتاف وكان القراء عدداً كبيراً.

ففي "صحيح البخاري"[4] عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سبعين رجلاً يقال لهم: القرَّاء، فعرض لهم حيَّان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة وسببه أنه قُتِلَ في وقعة اليمامة عددٌ

---

[1] أحمد (399)، وأبو داود (786)، والنسائي في السنن الكبرى (8007)، والترمذي (3086).ى (8007)، والترمذي (3086).

[2] أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل. حديث رقم (772).

[3] أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب (الجمع بين السورتين في الركعة....).

[4] أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب العون بالمدد. حديث رقم (3064).

كبيرٌ من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة؛ أحد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي "صحيح البخاري"[5] أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعاً، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللهِ فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما رواه البخاري مطولاً

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي "صحيح البخاري"[1] أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة، أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وكان زيد بن ثابت أنصاريًّا والثلاثة قرشيين - وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روى ابن أبي داود[2] عن علي رضي الله عنه أنه قال: واللهِ ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإٍ مِنَّا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقةٌ ولا اختلاف، قلنا: فَنِعْمَ ما رأيت.

---

[5] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم...) الآية.

[1] أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن. حديث رقم (4987).

[2] أخرجه الخطيب في كتابه "الفصل للوصل المدرج" 2/954؛ وفي الإسناد المحفوظ "محمد بن أبان الجعفي" (علل الدارقطني 3/229 – 230): قال ابن معين: "ضعيف" (الجرح والتعديل للرازي 7/200). أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص22.

وقال مصعب بن سعد[3] : أدركت النـاس متـوافرين حين حـرق عثمان المصـاحف فـأعجبهم ذلـك، أو قـال: لم ينكر ذلك منهم أحـد، وهو من حسنات أمير المؤمـنين عثمـان رضي الله عنه الـتي وافقه المسـلمون عليهـا، وكـانت مُكَمِّلة لجمع خليفة رسـول الله أبي بكر رضي الله عنه.

والفـــــــــرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغـــرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه تقييد القـــرآن كله مجموعاً في مصحف، حـتى لا يضـيع منه شـيء دون أن يحمل النـاس على الاجتمـاع على مصـحف واحـد؛ وذلك أنه لم يظهر أثـرٌ لاختلاف قـــراءاتهم يـــدعو إلى حملهم على الاجتمـــاع على مصـــحف واحد.

وأما الغـــرض من جمعه في عهد عثمـــان رضي الله عنه فهو تقييد القـرآن كله مجموعـاً في مصـحف واحـد، يحمل النـاس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهـــرت نتـــائج هـــذا الجمع حيث حصـــلت به المصـــلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفـة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمــة، وفشو البغضاء، والعداوة

وقد بقي علي ما كـــان عليه حـــتى الآن متَّفقـــاً عليه بين المسـلمين متـواتراً بينهم، يتلقـاه الصـغير عن الكبـير، لم تعبث به أيـــدي المفســـدين، ولم تطمسه أهـــواء الـــزائغين فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

* * *

[3] أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص12.

التفســير

التفسير لغة: من الفَسْر، وهو: الكشف عن المغطى
وفي الاصطلاح بيان معاني القرآن الكريم

وَتَعَلُّمُ التفسير واجب لقوله تعالى:)كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:29) ولقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:24

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بيَّن أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتَّعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتِّعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِؤونَنَا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

ويجب على أهل العلم، أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المُشَافهة لقوله تعالى: { } [آل عمران: 187] وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعبَدَ اللَّهُ بها على بصيرة.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشعِرَ نفسه حين يُفَسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون مُعظِّماً لهذه الشهادة خائفاً من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فَيُخزَى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف:33)، وقال تعالى:)وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر:60)

المرجع في تفسير القرآن

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ - كلام الله تعالى، فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به

ولذلك أمثلة منها:

1 - قوله تعالى: {)أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس:62) ، فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها:)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس:63).

2 - قوله تعالى: ()وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) (الطارق:2)ـ ، فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: { النجم الثاقب} } [الطارق: 3]

3 -قوله تعالى: {)وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (النازعات:30) فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: {)أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (النازعات:31))وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) (النازعات:32)

ب - كلام رسول الله ، فيفسر القرآن بالسُّنة، لأن رسول الله مبلِّغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

ولذلك أمثلة منها:

1 - قوله تعالى: {)لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)(يونس: من الآية 26) } فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحاً من حديث أبي موسى[(1)]، وأُبي بن كعب[(2)] ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة[(3)].

وفي "صحيح مسلم"[(4)] عن صهيب بن سنان عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قال فيه: "فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل"، ثم تلا هذه الآية {{)لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس: 26].

2 - قوله تعالى: {)وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)(لأنفال: من الآية60) } فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي رواه مسلم[(5)] ، وغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره 6/1945، حديث رقم 10341؛ وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد المجلد الثاني 3/458 – 459، حديث رقم 785.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره 15/69، حديث رقم 17633؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني 3/456.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره 15/68، حديث رقم 17631؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني 3/456 – 457.

(4) أخرجه مسلم ص709، كتاب الإيمان، باب 80: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم 449 [297] 181، 450 [298] 181.

(5) أخرجه مسلم ص1020، كتاب الإمارة، باب 52: فضل الرمي والحث عليه...، حديث رقم 4946 [167] 1917؛ والترمذي ص1963، كتاب تفسير القرآن، باب 8: ومن سورة الأنفال، حديث رقم 3083؛ وفي سند الترمذي مبهم؛ وأخرجه أبو داود ص1409، كتاب الجهاد، باب 23: في الرمي، حديث رقم

جـــ - كلام الصـــحابة رضي الله عنهم لا ســـيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصـرهم، ولأنهم بعد الأنبيـاء أصـدق النـاس في طلب الحـق، وأسـلمهم من الأهـواء، وأطهـــرهم من المخالفة الـــتي تحـــول بين المـــرء وبين التوفيق للصواب.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا منها:

1 - قوله تعـالى: {)وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَـى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ)(النساء: من الآية43) }، فقد صَحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع[6].

د - كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصـحابة رضي الله عنهم، لأن التـابعين خـير النـاس بعد الصـحابة، وأسـلم من الأهـواء ممن بعـــدهم ولم تكن اللغة العربية تغـــيرت كثـــيراً في عصـــرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإِسـلام ابن تيمية[7] : إذا أجمعـوا - يعـني التـابعين - على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكـون قـول بعضـهم حجة على بعض ولا على من بعـدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصـحابة في ذلك.

وقال أيضاً: من عدل عن مذاهب الصحابة والتـابعين وتفسـيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهـداً مغفوراً له خطؤه، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القـرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً.

هـــ - ما تقتضـيه الكلمـات من المعـاني الشـرعية أو اللغوية حسب السـياق لقوله تعـالى: {)إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً) (النساء:105)، وقوله: {)إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ) (الزخـرف:3)، وقوله)وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(ابراهيم: 4)

فـإن اختلف المعـنى الشـرعي واللغـوي، أُخذ بما يقتضـيه الشـرعي، لأن القـرآن نـزل لبيـان الشـرع، لا لبيـان اللغة إلا أن يكـون هنـاك دليل يترجَّح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعـالى في المنـافقين: {)وَلا تُصَـلِّ عَلَى أَحَـدٍ مِنْهُمْ مَـاتَ أَبَـداً)(التوبـة: من الآية 84) }، فالصلاة في اللغة الـدعاء، وفي الشـرع هنا الوقـوف على الميت للـدعاء له بصـفة مخصوصة فيقـدم المعـنى الشـرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإِطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى: {)خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَـلِّ عَلَيْهِم)

2514؛ وابن ماجة ص2647، كتاب الجهاد، باب 19: الرمي في سبيل الله، حديث رقم 2813؛ وأخرجه غيرهم أيضاً.

[6] أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (1/134)، وابن أبي شيبة في مصنفه (1/192).

[7] مجموع الفتاوى.

(التوبة: من الآية103ـ }ـ ، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم[1] عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُتي بصدقة قوم، صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللهم صلِّ على آل أبي أوفى".

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإِنسان.

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: {)وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(الاسراء: من الآية23) } قال ابن عباس: قضى: أمر، وقال مجاهد: وصَّى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

القسم الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: {)وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (لأعراف:175))وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه) (الأعراف: من الآية176) ، قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر: قوله تعالى: { وكأساً دهاقا } [النبأ: 34] قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية.

ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فَتُحمل عليها جميعاً ويكون كل قول لنوع من المعنى.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معاً للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى:)إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:173).

قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عَادٍ في أكله، وقيل: غير خارج على الإِمام ولا عاصٍ بسفره، والأرجح الأول، لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة،

---

[1] أخرجه البخاري ص342، كتاب المغازي، باب 36: غزوة الحديبية، حديث رقم 4166؛ ومسلم ص 849، كتاب الزكاة، باب 54: الدعاء لمن أتى بصدقة، حديث رقم 2492 [176] 1078.

وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرم وغير ذلك.
ومثال آخر: قوله تعالى: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ)(البقرة: من الآية237) } قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح
وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى
وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى
والترجمة نوعان:
أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها
الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيريَّة، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.
مثال ذلك: قوله تعالى: {)إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف:3)
فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة فيترجم (إنا) ثم (جعلناه) ثم (قرآناً) ثم (عربياً) وهكذا.
والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:
أ -وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها
ب -وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساويةٍ أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها
جـ -تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك - محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية
وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسًّا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعاً، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.
وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن

والإِسلام لغير الناطقين باللغة العربيـة؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلاً عن القرآن بحيث يستغنى بها عنه، وعلى هـذا فلا بد أن يكتب القـرآن باللغة العربية وإلى جانبه هـذه الترجمة؛ لتكون كالتفسير له.

الثـاني: أن يكـون المُتَـرْجِمُ عالمـاً بمـدلولات الألفـاظ في اللغتين المترْجَم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالماً بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن ولا تُقْبَلُ الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليهـا، بحيث يكـون مسلماً مستقيماً في دينه.

* * *

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة؛ لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضاً: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم

1 - علي بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنه وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب

ولد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وتربى في حِجْر النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي صلى الله عليه وسلم في أهله، وقال له: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"[1]، نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذين بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروي عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنَـزَلت بليل أو نهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به، وروى عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب كان أحد أهل الشورى الذين رشحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيداً في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

2 - عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأُمه أُمُّ عَبْدٍ كان ينسب إليها أحياناً[2] ، وكان من السابقين الأولين في الإِسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، وما بعدها من المشاهد

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك. حديث رقم (4416)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. حديث رقم (6218).

[2] وذلك لأن أباه مات في الجاهلية، وأدركت أمه الإسلام فأسلمت.

تلقى من النبي صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام: "إنك لغلام مُعَلَّم"[3] ، وقال: "من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عَبْد"[4] ، وفي "صحيح البخاري"[5] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه، وكان ممن خَدَمَ النبي صلى الله عليه وسلم فكان صاحبُ نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم[6]، ومن أجل ملازمته النبي صلى الله عليه وسلم تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحداً أقرب هدياً وسمتاً ودلاًّ بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابن أم عَبْد[1].

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة؛ ليعلمهم أُمور دينهم، وبعث عماراً أميراً وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فاقتدوا بهما، ثم أَمَّرهُ عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأَمَرَهُ بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

3 - عبد الله بن عباس:

هو ابن عم رسول الله ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي صلى الله عليه وسلم ، وضمه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللهم علِّمه الحكمة، وفي رواية: الكتاب[2] ، وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فَقِّههُ في الدين[3] ، فكان بهذا الدعاء المبارك حِبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكاناً عالياً حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مَجَالِسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان

---

[3] أخرجه أحمد (1/379، 462).

[4] أخرجه ابن ماجة (138).

[5] أخرجه البخاري ص433 – 434، كتاب فضائل القرآن، باب 8: القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 5000.

[6] أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل عائشة رضي الله عنها. حديث رقم (3763)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما. حديث رقم (2460).

[1] أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل عائشة، حديث رقم (2762).

[2] أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما. حديث رقم (3756).

[3] أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء. حديث رقم (143).

سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى:)إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (النصر:1).

حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان تواباً، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لَنِعْمَ تُرجُمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي ما كان نظيراً له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًّا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقهاً وأعظم خشية، إنَّ أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع.

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي والٍ على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا سمعت كلام رجلٍ مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت، ولّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين وولاه علي على البصرة فلمَّا قتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمانٍ وستين عن إحدى وسبعين سنة.

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ -أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح

ب -أهل المدينة وهم أتباع أُبي بن كعب، كزيد بن أسلم وأَبي العالية ومحمد صلى الله عليه وسلم بن كعب القرظي

جـ -أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة والشعبي.

فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة

1 - مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيراً ما ينقل عنه في "صحيحه"، وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج

به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومئة، عن ثلاث وثمانين سنة

2 - قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمه أي أعمى سنة إحدى وستين، وَجَدَّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال عن نفسه: ما قلت قط لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلَّما تجد من يتقدمه أما المِثْل فلعل، وقال: هو أحفظُ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا حفظه، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومئة، عن ست وخمسين سنة.

* * *

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإِحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: {)الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود:1) }ـ ، وقوله:)الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (يونس:1) وقوله: {)وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف:4)

ومعنى هذا الإِحكام الإِتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلُّها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: {)اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر:23)

ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة والغايات الحميدة)وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)(النساء: من الآية82) } .

النوع الثالث: الإِحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى:)هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:7).

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحاً جلياً، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: {)يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)(الحجرات: من الآية13 وقوله:)يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:21).

وقوله: {واحل الله البيع } [البقرة: 275] ، وقوله: {)حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة:3))حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)(المائدة: من الآية3 وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبهاً خفيًّا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: 64] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضاً حين يقول: { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)(النساء: من الآية79 }ـ ، ويقول في موضع آخر:(وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء: من الآية78)

ومثاله فيما يتعلق برسول الله، أن يتوهم واهم من قوله تعالى:)فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (يونس:94) ظاهره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شاكًّا فيما أنزل إليه.

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)(آل عمران: من الآية7)ـ ، وقال في الراسخين في العلم: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)(آل عمران: من الآية7) فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فَيضِلون، ويُضِلونَ.

وأما الراسخون في العلم، فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق، وليس فيه اختلاف، ولا تناقض؛ لأنه من عند الله: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)(النساء: من الآية82) وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم؛ ليكون الجميع محكماً.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يـدين حقيقيـتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول:(لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية11) .

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقـدير الله ، لكن الحسنة سـببها التفضل من الله تعـالى على عبـاده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعـالى:)وَمَا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِـيرٍ) (الشـورى:30) فإضـافة السـيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَـدِّره، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشـيء إلى مقـدره، وبهـذا يـزول ما يـوهم الاختلاف بين الآيـتين لانفكـاك الجهة

ويقولون في المثال الثـالث: إن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لم يقع منه شكٌّ فيما أنزل إليه، بل هو أعلم النـاس بـه، وأقـواهم يقيناً كما قال الله تعالى في نفس السورة: {)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَـــكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُـــدُ الَّذِينَ تَعْبُـــدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (يونس: من الآية104) }، المعنى إن كنتم في شكٍّ منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبـدون من دون اللـه، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قولـه: {)فَـإِنْ كُنْتَ فِي شَـكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ) (يـونس: من الآية94)} أن يكـون الشـكُّ جـائزاً على الرسـول صـلى الله عليه وسلم ، أو واقعاً منه ألا ترى قوله تعـالى:)قُـلْ إِنْ كَـانَ لِلـرَّحْمَنِ وَلَـدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِـدِينَ) (الزخـرف:81) هل يلـزم منه أن يكـون الولد جـائزاً على الله تعـالى أو حاصـلاً؟ كلَّا، فهـذا لم يكنْ حاصـلاً، ولا جـائزاً على الله تعـالى، قـال الله تعـالى:)وَمَا يَنْبَغِي لِلـرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِـذَ وَلَـداً) (مـريم:92))إِنْ كُـلُّ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) (مريم:93)

ولا يلزم من قوله تعالى: (فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(البقرة: من الآية147) أن يكـون الامـتراء واقعـاً من الرسـول صـلى الله عليه وســلم ؛ لأن النهي عن الشــيء قد يوجه إلى من لم يقع منه ألا تـرى قوله تعـالى:)وَلا يَصُـدُّنَّكَ عَنْ آيَـاتِ اللَّهِ بَعْـدَ إِذْ أُنْـزِلَتْ إِلَيْـكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (القصص:87) ومن المعلوم أنهم لم يصدُّوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن آيـات اللـه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منه شـرك والغـرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منــــه: التنديد بمن وقع منهم والتحــــذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم.

أنواع التشابه في القـرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحـــدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقـــائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)(طـــه: من الآية110) وقوله تعالى:)لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام:103) } ولهـذا لما سُـئِل الإمـام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى) (طــه:5) كيف اسـتوى قـال: الاسـتواء غـير مجهـول، والكيف غـير معقـول، والإيمـان به واجب، والسؤال عنه بدعـة، وهـذا النـوع لا يسـأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النـوع الثـاني: نسـبي وهو ما يكـون مشـتبهاً على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غـيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليـه، إذ لا يوجد في القرآن شـيء لا يتبين معنـاه لأحد من النـاس، قـال الله تعالى:)هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمـران:138) ، وقال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُـلِّ شَـيْءٍ)(النحـل: من الآية89) ، وقـال:)فَـإِذَا قَرَأْنَـاهُ فَـاتَّبِعْ قُرْآنَـهُ) (القيامـة:18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَـهُ) (القيامة:19) ، وقال: {)يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَكُمْ بُرْهَـانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً) (النساء:174).

وأمثلة هذا النـوع كثـيرة منها قوله تعـالى:(لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ)(الشـورى: من الآية11) حيث اشـتبه على أهل التعطيـل، ففهمـوا منه انتفـاء الصـفات عن الله تعـالى، وادَّعـوا أن ثبوتها يسـتلزم المماثلـة، وأعرضـوا عن الآيـات الكثـيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى: {)وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنـاً مُتَعَمِّداً فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَـذَاباً عَظِيمـاً) (النسـاء: 93) حيث اشتبه على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المـؤمن عمـداً مخلد في النار، وطـردوا ذلك في جميع أصـحاب الكبـائر، وأعرضـوا عن الآيـات الدالة على أن كل ذنب دون الشـرك فهو تحت مشـيئة الله تعالى .

ومنها قوله تعــالى: {)أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّــمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحج:70) حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضـوا عن الآيـات الدالة على أن للعبد إرادة وقـــدرة، وأن فعل العبد نوعـــان: اختيـــاري، وغـــير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجـون هذه الآيـات المتشـابهة إلى معـنى يتلاءم مع الآيـات الأخـرى، فيبقى القرآن كله محكماً لا اشتباه فيه.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كـان القـرآنُ كلُّه محكمـاً لفـاتت الحكمة من الاختبـار به تصـديقاً وعملاً لظهـور معنـاه، وعـدم المجـال لتحريفـه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـه، ولو كـان كلُّه متشـابهاً لفـات كونه بيانــاً، وهــدى للنــاس، ولما أمكن العمل بــه، وبنـاء العقيــدة السليمة عليـه، ولكن الله تعـالى بحكمته جعل منه آيـات محكمـات، يرجع إليهن عند التشــابه، وأُخر متشــابهات امتحانــاً للعبـاد؛ ليتــبين صـادق الإيمـان ممن في قلبه زيـغ، فـإن صـادق الإيمـان يعلم أن القـرآن كلَّه من عند الله تعـالى، وما كـان من عند الله فهو حـق، ولا يمكن أن يكــون فيه باطــل، أو تنـاقض لقوله تعـالى:)لا يَأْتِيــهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصـلت: 42) وقوله: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَـدُوا فِيــهِ اخْتِلافـاً كَثِـيراً) (النساء: من الآية82)}

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلاً إلى تحريف المحكم واتبــاع الهــوى في التشــكيك في الأخبــار والاســتكبار عن الأحكــام، ولهــذا تجد كثــيراً من المنحــرفين في العقائد والأعمــال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة

* * *

موهم التعارض في القـرآن

التعــارض في القــرآن أن تتقابل آيتــان، بحيث يمنع مــدلول إحــداهما مــدلول الأخــرى، مثل أن تكــون إحــداهما مثبتة لشــيء والأخرى نافية له.

ولا يمكن أن يقع التعــارض بين آيــتين مــدلولهما خــبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذباً، وهو مسـتحيل في أخبـار الله تعـالى، قـال الله تعالى:) وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ اللَّهِ حَـدِيثاً)(النسـاء: من الآية87)(وَمَنْ أَصْــــــدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً)(النســـــاء: من الآية122) ولا يمكن أن يقع التعــارض بين آيــتين مــدلولهما حُكْمِي؛ لأن الأخــيرة منهما ناسـخة للأولى قال الله تعالى:)مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَـةٍ أَوْ نُنْسِـهَا نَـأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَــا)(البقــرة: من الآية106) وإذا ثبت النسخ كــان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتــبين لك وجب عليك التوقــف، وتكــلَ الأمر إلى عالمه وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينـوا الجمع في ذلك ومن أجمع ما رأيت في هــذا الموضــوع كتــاب "دفع إيهــام الاضـطراب عن آي الكتـاب" للشـيخ محمد صـلى الله عليه وسـلم الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن:(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)(البقرة: من الآية2)، وقوله فيه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُـدىً لِلنَّاسِ)(البقــرة: من الآية185) فجعل هداية القــرآن في الآية الأولى خاصة بـالمتقين، وفي الثانية عامة للنـاس، والجمع بينهما أن الهداية

في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيين والإِرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: من الآية56)ـ ، وقوله فيه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(الشورى: من الآية52)} فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ)(آل عمران: من الآية18)}ـ ، وقوله: (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)(آل عمران: من الآية62)}ـ ، وقوله: (فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) (الشعراء:213) وقوله: (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)(هود: من الآية101) } ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى:)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الحج:62)

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) (لأعراف: من الآية28) وقوله:)وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الاسراء:16) ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعاً بالفحشاء لقوله تعالى:)إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)(النحل: من الآية90)} والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونياً بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى:)إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يّس:82)

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفاً.

* * *

القسم

القَسَم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو, أو إحدى أخواتها وأدواته ثلاث:

الواو - مثل قوله تعالى: {)فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذريات:23) ويحذف معها العامل وجوباً، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء - مثل قوله تعالى: {)لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة:1) ويجـوز معها ذكر العامل كما في هـذا المثـال، ويجـوز حذفه كقوله تعـالى عن إبليس:)قَـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (صّ:82} ويجـوز أن يليها اسم ظاهر كما مثَّلنا، وأن يليها ضمير كما في قولــك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين.

والتـاء - مثل قوله تعـالى: {)تَاللَّهِ لَتُسْـأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَـرُونَ) (النحل: من الآية56) } ويحذف معها العامل وجوبـاً، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: تربِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في المثل السابقة

وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى:)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر:8)

والأصل ذكر المقسم عليـه، وهو كثـير مثل قوله تعـالى:(قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)(التغابن: من الآية7) .

وقد يحذف جوازاً مثل قوله تعالى: {)ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (قّ:1) وتقديره ليهلكن.

وقد يحـذف وجوبـاً إذا تقدمـه، أو اكتنفه ما يغـني عنـه، قاله ابن هشـام في المغـني ومثَّلَ له بنحـو: زيد قـائم واللـه، وزيد والله قائم.

وللقَسَم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به.

والثانية: بيـان أهمية المقسم عليـه، وإرادة توكيـده، ولـذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب متردداً في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب مُنْكِراً له.

* * *

القصص

القصص والقص لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصـطلاح: الإخبـار عن قضـية ذات مراحـل، يتبع بعضـها بعضاً

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعـالى: (وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)(النساء: من الآية87) وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصـص؛ لقوله تعـالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ أَحْسَـنَ الْقَصَـصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ هَـذَا الْقُـرْآنَ)(يوسـف: من الآية3)وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصـص، لقوله تعـالى:)لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصَصِـهِمْ عِبْـرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَـاب)(يوسـف: من الآية111) وذلك لقـوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

* قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

*وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

*وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

1 -بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى:)وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ) (القمر:4))حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر:5)

2 - بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين:)وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّك)(هود: من الآية101).

3 -بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) (القمر:34)(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) (القمر:35).

4 -تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى:)وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (فاطر:25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (فاطر:26).

5 -ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد؛ لقوله تعالى:)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الانبياء: 88) وقوله: {)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم:47)

6 -تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (محمد:10)

7 -إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى:)تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) (هود: من الآية49)، وقوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّه)(ابراهيم: من الآية9).

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مـرة واحـدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف ومنها ما يأتي متكـرراً حسب ما تـدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هـذا المتكـرر على وجه واحـد، بل يختلف في الطـول والقصر واللين والشـدة وذكر بعض جـوانب القصة في موضع دون آخر.
ومن الحكمة في هذا التكرار:
1 -بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.
2 -توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.
3 -مراعاة الزمن وحال المخـاطبين بهـا، ولهـذا تجد الإيجـاز والشـدة غالبـاً فيما أتى من القصص في السـور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.
4 -بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هـذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.
5 -ظهور صـدق القـرآن، وأنه من عند الله تعـالى، حيث تـأتي هـذه القصص متنوعة بدون تناقض.

* * *

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله فقال: يا محمد صلى الله عليه وسلم، إنَّا نجد أنّ الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله : {)وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر:67)[1].

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل.

مثاله: ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: {)نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) (البقرة:223)[2] .

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:(آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)(العنكبوت: من الآية46) ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري[4].

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدِّين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني"[5].

وروى البخاري[6] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله مَحضاً، لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله،

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: (وما قدروا الله حق قدره) حديث رقم (4811)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار. حديث رقم (2786).

[2] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) حديث رقم (4528)، ومسلم، كتاب النكاح، باب جواز جماعة امرأته في قبلها، من قدامها أو من ورائها، من غير تعرض للدبر. حيث رقد (1435).

[3] أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب 11: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)، حديث رقم 4485.

[4] أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب 50: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم 3461.

[5] أحمد (3/338، 387).

[6] أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها. حديث رقم (2685)، (6929).

وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بـذلك ثمنـاً قليلاً، أو لا ينهاكم ما جـاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلمـاء، ولا سـيما المفسـرون من هـذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ -فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه بـذكر أسـانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب -ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبـاً، فكـان حـاطب ليل مثل البغوي الذي قـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية[7] عن تفسـيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضـوعة والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حـاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

جـ -ومنهم من ذكر كثيراً منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضـعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د -ومنهم من بـالغ في ردهـا، ولم يـذكر منها شـيئاً يجعله تفسـيراً للقرآن كمحمد صلى الله عليه وسلم رشيد رضا.

* * *

الضمير

الضمير لغـة: من الضـمور وهو الهـزال لقلة حروفه أو من الإضـمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظـاهر اختصـاراً وقيـل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: (وَأُفَوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللَّه)(غـافر: من الآية44)

الثاني: ما وضع للمخـاطب مثـل: (صِـرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة: من الآية7)

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلالة الحضور عنه

والــدال على الغــائب، ما وضع للغــائب ولا بد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقاً على الضمير لفظـاً ورتبة مطابقاً له لفظاً ومعنًى مثل: {ونادى نوح ربه} [هود: 45].

وقد يكون مفهوماً من مادة الفعل السـابق مثـل: (اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)(المائدة: من الآية8) .

وقد يسبق لفظاً لا رتبة مثـل:)وَإِذِ ابْتَلَى إِبْـرَاهِيمَ رَبُّه)(البقـرة: من الآية124)

وقد يسبق رتبة لا لفظاً مثل: (حمل كتابه الطالب).

---

[7] مجموع الفتاوى (13/304).

وقد يكون مفهوماً من السياق مثل: (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَد)(النساء: من الآية11)} ، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: {مما ترك }

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل:)وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون:12))ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) (المؤمنون:13) فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول .

وإذا كان المرجع صالحاً للمفرد والجمع جازَ عَود الضمير عليه بأحدهما مثل:)وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً)(الطلاق: من الآية11).

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل:)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (لنجم:5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى) (لنجم:6)(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) (لنجم:7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) (لنجم:8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (لنجم: 9 فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) (لنجم:10) فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل.

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال الأول: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيل)(الاسراء: من الآية2).

ومثال الثاني: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)(ابراهيم: من الآية34)

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

الإظهار في موضع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير في قوله تعالى: (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)(الأحزاب: من الآية35)عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار) وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

1 -الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

2 -بيان علة الحكم.

3 - عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:98) ، ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهارُ:

1 -الحكم بالكفر على من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

2 -أن الله عدو لهم لكفرهم.

3 -أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى:)وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (لأعراف:170)ـ ، ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم؛ فأفاد ثلاثة أمور:

1 -الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

2 - أن الله أجرهم لإصلاحهم.

3 - أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهمَ أن يكون المراد بطانة المسلمين.

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: {)إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)(طه: من الآية14) وقوله: {)وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) (الصافات:165)

وبضمير المخاطب كقوله تعالى: {)كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) (المائدة: من الآية117) } .

وبضمير الغائب كقوله تعالى: {)وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران:104)

وله ثلاث فوائد:

الأولى: التوكيد، فإنَّ قولك: زيد هو أخوك أوكَد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح يفيد.اختصاص المجتهد بالنجاح.

الثالثة: الفصل؛ أي التمييز بين كون ما بعده خبراً، أو تابعاً، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبراً، فإذا قلت: زيد هو الفاضل؛ تعين أن تكون الفاضل خبراً، لوجود ضمير الفصل.

* * *

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

1 - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: {)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة:2)
(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الفاتحة:3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة:4) (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5) [الفاتحة] فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: إياك .

2 - الالتفات من لخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى)حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم)(يونس: من الآية22) فحوَّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله: { وَجَرَيْنَ بهم }
3 - الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً)(المائدة: من الآية 12) } فحوَّل الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله { وبعثنا}
4 - الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: {)إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر:1))فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) (الكوثر:2) فحوَّل الكلام من التكلم إلى الغيبة في قوله(لربك)

وللالتفات فوائد منها:
1 - حمل المخاطب على الانتباه، لتغير وجه الأسلوب عليه
2 - حمله على التفكير في المعنى، لأن تغير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.
3 - دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالباً.
وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.
أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صوره، حسب ما يقتضيه المقام
والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين
تم ولله الحمد رب العالمين

تفسير سورة الفاتحة

. سورة الفاتحة سمِّيت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة..
هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سمِّيت "أم القرآن"[1]؛ والمرجع للشيء يسمى "أمّاً"..
وهذه السورة لها مميزات تتميّز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم (قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: "وما يدريك أنها رقية"[2] ..

---
[1] أخرجه البخاري في صحيحه ص61، كتاب الأذان، باب 104: القراءة في الفجر، حديث رقم 772؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص740 في كتاب الصلاة، باب 11: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم 878 [38] 395؛ وأخرجه الترمذي في جامعه ص1968، كتاب تفسير القرآن، باب 15: ومن سورة الحجر، حديث رقم 3124، ولفظه: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني".

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات .، وهذا غلط: تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: "الفاتحة"، يعني اقرؤوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله . وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف، والاتِّباع..

القرآن

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم)

التفسير:.

قوله تعالى: { بسم الله الرحمن الرحيم }: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر فعلاً متأخراً مناسباً؛ فإذا قلت: "باسم الله" وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: "باسم الله آكل"..

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقاً بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل..

وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزّ وجل.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به، ومستعيناً به، إلا باسم الله عزّ وجلّ.

وقدرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال . وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط

وقدرناه مناسباً؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "من لم يذبح فليذبح باسم الله"[3] . أو قال صلى الله عليه وسلم "على اسم الله"[4] : فخص الفعل..

و{ الله }: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له..

و{ الرحمن } أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن "فَعْلان" الذي يدل على السعة..

و{ الرحيم } أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن "فعيل" الدال على وقوع الفعل

فهنا رحمة هي صفته . هذه دل عليها { الرحمن }؛ ورحمة هي فعله . أي إيصال الرحمة إلى المرحوم . دلّ عليها { الرحيم }..

و{ الرحمن الرحيم }: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة..

---

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ص177، كتاب الإجارة، باب 16: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، حديث رقم 2276؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص1068، كتاب السلام، باب 23: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، حديث رقم 5733 [65] 2201.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ص77، كتاب العيدين، باب 23: كلام الإمام والناس في خطبة العيد، حديث رقم 985؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص1027، كتاب الأضاحي، باب 1: وقتها، حديث رقم 5064 [1] 1960.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ص474، كتاب الذبائح والصيد، باب 17: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فليذبح على اسم الله"، حديث رقم 5500؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص1027، كتاب الأضاحي، باب 1: وقتها، حديث رقم 5064 [2] 1960.

والرحمة الـــتي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها الســـمع، والعقـل؛ أما السـمع فهو ما جـاء في الكتـاب، والسـنّة من إثبـات الرحمة لله . وهو كثير جـداً؛ وأما العقـل: فكل ما حصل من نعمـة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله..

هـذا وقد أنكر قـوم وصف الله تعـالى بالرحمة الحقيقيـة، وحرّفوها إلى الإنعــام، أو إرادة الإنعــام، زعمــاً منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: "لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقـة؛ وهـذا لا يليق بالله عزّ وجلّ"؛ والرد عليهم من وجهين:.

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقـة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكـون منهم خضـوع، ورقـة، وانكسار..

الوجه الثاني: أنه لو كان هـذا من لـوازم الرحمـة، ومقتضـياتها فإنما هي رحمة المخلـوق؛ أما رحمة الخـالق سـبحانه وتعـالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه..

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عزّ وجــلّ، فـإن ما نشـاهده في المخلوقـات من الرحمة بَيْنها يـدل على رحمة الله عـزّ وجـلّ؛ ولأن الرحمة كمـال؛ والله أحق بالكمـال؛ ثم إن ما نشـاهده من الرحمة الـتي يختص الله بها . كـإنزال المطـر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك . يدل على رحمة الله..

والعجب أن منكـري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يـدل عليهـا، أو أنه يحيلهـا، قد أثبتـوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة اللـه، حيث قـالوا: إن تخصـيص بعض المخلوقات بما تتمـيز به يـدل عقلاً على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العـوام، فإنك لو سألت عامياً صباح ليلة المطر: "بِمَ مطرنا؟"، لقال: "بفضل الله، ورحمته"..

مسألة:

هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلمـاء؛ فمنهم من يقـول: إنها آية من الفاتحـة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهريـة، ويـرى أنها لا تصح إلا بقـراءة البســـملة؛ لأنها من الفاتحـــة؛ ومنهم من يقـــول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب اللـه؛ وهـذا القـول هو الحـق؛ ودليل هذا: النص، وسياق السورة..

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن النـبي صلى الله عليه وسلم قال: "قـال الله تعـالى: قسـمت الصـلاة بيـني وبين عبدي نصفين: إذا قـال: { الحمد لله رب العـالمين } قـال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: { الرحمن الرحيم } قال الله تعـالى: أثنى عليَّ عبدي؛ وإذا قـال: { مالك يـوم الـدين } قـال الله تعـالى: مجّـدني عبـدي؛ وإذا قـال: { إيـاك نعبد وإيـاك نسـتعين } قـال الله تعـالى: هـذا بيـني وبين عبـدي نصـفين؛ وإذا قـال: { اهـدنا الصـراط

المستقيم }... إلخ، قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل"[1]؛ وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "صلّيت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر؛ فكانوا لا يذكرون { بسم الله الرحمن الرحيم } في أول قراءة، ولا في آخرها"[2]: والمراد لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه يدل على أنها ليست منها..

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآية على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: { إياك نعبد وإياك نستعين } وهي الآية التي قال الله فيها: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين"؛ لأن { الحمد لله رب العالمين }: واحدة؛ { الرحمن الرحيم }: الثانية؛ { مالك يوم الدين }: الثالثة؛ وكلها حق لله عزّ وجلّ { إياك نعبد وإياك نستعين }: الرابعة . يعني الوسَط؛ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ { اهدنا الصراط المستقيم } للعبد؛ { صراط الذين أنعمت عليهم } للعبد؛ { غير المغضوب عليهم ولا الضالين } للعبد..

فتكون ثلاث آيات لله عزّ وجل وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد . وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربِّه . وهي الرابعة الوسطى..

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآية في الطول والقصر هو الأصل..

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة . كما أن البسملة ليست من بقية السور..

القرآن

)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

التفسير:.

قوله تعالى: { الحمد لله رب العالمين }: { الحمد } وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو "المحبة، والتعظيم"؛ قال أهل العلم: "لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً"؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ؛ فلذلك صار لا بد من

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ص740، كتاب الصلاة، باب 11: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم 878 [38] 395.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ص741، كتاب الصلاة، باب 13، حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، حديث رقم 892 [52] 399.

القيد في الحمدَ أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ و "أل" في { الحمد } للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد..
وقوله تعالى: { لله }: اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و "الله" اسمَ ربنا عزّ وجلّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه . أي المعبود حباً، وتعظيماً..
وقوله تعالى: { رب العالمين }؛ "الرب" : هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و{ العالمين }: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته..
الفوائد:
1. من فوائد الآية: إثبات الحمد الكامل لله عزّ وجلّ، وذلك من "أل" في قوله تعالى: { الحمد }؛ لأنها دالة على الاستغراق..
2. ومنها: أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه ما يسره قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات" ؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: "الحمد لله على كل حال" ..
3. ومنها: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن "الله" هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط..
4. ومنها: عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: (العالمين..)

القرآن

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

التفسير:.
قوله تعالى: { الرحمن الرحيم }: { الرحمن } صفة للفظ الجلالة؛ و{ الرحيم } صفة أخرى؛ و{ الرحمن } هو ذو الرحمة الواسعة؛ و{ الرحيم } هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ{ الرحمن } وصفه؛ و{ الرحيم } فعله؛ ولو أنه جيء بـ "الرحمن" وحده، أو بـ "الرحيم" وحده لشمل الوصف، والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر { الرحمن } بالوصف؛ و{ الرحيم } بالفعل..

الفوائد:
.1 من فوائد الآيـة: إثبـات هـذين الاسـمين الكـريمين . { الـرحمن الـرحيم } لله عـزّ وجـلّ؛ وإثبـات ما تضـمناه من الرحمة الـتي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل..
.2 ومنهـا: أن ربوبية الله عـزّ وجـلّ مبنية على الرحمة الواسـعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعـالى لما قـال: { رب العـالمين } كـأن سـائلاً يسـأل: "ما نـوع هـذه الربوبيـة؟ هل هي ربوبية أخـذ، وانتقـام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟" قال تعالى: { الرحمن الرحيم }..

القـرآن
(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

التفسير:
قوله تعالى: { مالك يوم الدين } صفة لـ{ الله }؛ و{ يـوم الـدين } هو يوم القيامـة؛ و{ الـدين } هنا بمعـنى الجـزاء؛ يعـني أنه سـبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجـازى فيه الخلائـق؛ فلا مالك غـيره في ذلك اليوم؛ و "الدين" تارة يراد به الجـزاء، كما في هـذه الآيـة؛ وتارة يـراد به العمـل، كما في قوله تعـالى: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: 6] ، ويقال: "كما تدين تدان"، أي كما تعمل تُجازى..
وفي قوله تعالى: { مالك } قراءة سبعية: { مَلِك}، و "الملـك" أخص من "المالك"..
وفي الجمع بين القـراءتين فائـدة عظيمـة؛ وهي أن ملكه جـلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكـون ملكـاً، ولكن ليس بمالـك: يسـمى ملكـاً اسـماً وليس له من التـدبير شـيء؛ ومِن النـاس مَن يكون مالكـاً، ولا يكـون ملكـاً: كعامة النـاس؛ ولكن الـرب عـزّ وجـلّ مالكٌ ملِك..

الفوائد:
.1 من فوائد الآية: إثبـات ملك الله عـزّ وجـلّ، وملكوته يـوم الـدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك..
فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟
فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكـون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: {لمن الملك اليوم} [غافر: 16] فلا يجيب أحـد؛ فيقـول تعـالى: {لله الواحد القهـار} [غـافر: 16] ؛ في الـدنيا يظهر ملـوك؛ بل يظهر ملـوك يعتقد شـعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشـيوعيون مثلاً لا يـرون أن هنـاك ربـاً للسـموات، والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم..
.2 ومن فوائد الآية: إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: (مالك يـوم الدين)
.3 ومنها: حث الإنسان على أن يعمل لـذلك اليـوم الـذي يُـدان فيه العاملون..

القـرآن

)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

التفسير:

قوله تعـالى: { إيـاك نعبد }؛ { إيـاك }: مفعـول به مقـدم؛ وعاملـه: { نعبد }؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إيـاك؛ وكـان منفصـلاً لتعـذر الوصل حينئذ؛ و{ نعبد } أي نتـذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهــذا تجد المؤمــنين يضــعون أشــرف ما في أجســامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله عزّ وجـلّ: يسـجد على الـتراب؛ تمتلئ جبهته من التراب . كل هذا ذلاً لله؛ ولو أن إنساناً قال: "أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي" ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله عزّ وجــلّ وحده..

و "العبادة" تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وتـرك كل ما نهى الله عنـه؛ لأن من لم يكن كـذلك فليس بعابـد: لو لم يفعل المـأمور به لم يكن عابداً حقـاً؛ ولو لم يـترك المنهي عنه لم يكن عابـداً حقـاً؛ العبـد: هو الـذي يوافق المعبـود في مـراده الشـرعي؛ فــ "العبـادة" تستلزم أن يقـوم الإنسـان بكل ما أمر بــه، وأن يـترك كل ما نُهي عنـه؛ ولا يمكن أن يكـون قيامه هـذا بغـير معونة اللـه؛ ولهـذا قـال تعــالى: { وإيــاك نســتعين } أي لا نســتعين إلا إيــاك على العبــادة، وغيرها؛ و "الاستعانة" طلب العون؛ والله سـبحانه وتعـالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القـرآن الكـريم؛ لأنه لا قيام بالعبـادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة اللـه، والتفـويض إليه، والتوكل عليه..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: { إيــاك نعبد }؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول..

2. ومنهـا: إخلاص الاسـتعانة بالله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { وإيـاك نستعين }، حيث قدم المفعول..

فإن قال قائل: كيف يقـال: إخلاص الاسـتعانة لله وقد جـاء في قوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقـوى} [المائـدة: 2] إثبـات المعونة من غــير الله عــزّ وجــلّ، وقــال النــبي صــلى الله عليه وســلم: "تعين الرجل في دابتـه، فتحمله عليهـا، أو ترفع له عليها متاعه صـدقة"؟[1]..

فـالجواب: أن الاسـتعانة نوعـان: اسـتعانة تفـويض؛ بمعـنى أنك تعتمد على الله عزّ وجلّ، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خـاص بالله عـزّ وجلّ؛ واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كـان المسـتعان به حيـاً قـادراً على الإعانـة؛ لأنه ليس عبـادة؛ ولهذا قال الله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: 2 (فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

---

[1] أخرجه البخاري ص232، كتاب الجهاد، باب 72: فضل من حمل متاع صاحبه في السفرن حديث رقم 2891؛ وأخرجه مسلم ص837، كتاب الزكاة، باب 16: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم 2335 [56] 1009، واللفظ لمسلم.

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادراً عليها؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك..
فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟
فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك..

القـرآن

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

التفسير:

قوله تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم }: { الصراط } فيه قراءتان: بالسين: {السراط} ، وبالصاد الخالصة: { الصراط }؛ والمراد بـ{ الصراط } الطريق؛ والمراد بـ "الهداية" هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: { اهدنا الصراط المستقيم } تسأل الله تعالى علماً نافعاً، وعملاً صالحاً؛ و{ المستقيم } أي الذي لا اعوجاج فيه..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: لجوء الإنسان إلى الله عزّ وجلّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: { إياك نعبد }؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: { وإياك نستعين }؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم }؛ لأن { الصراط المستقيم } هو الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم
.2 ومن فوائد الآية: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من { اهدنا }؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم، وإرشاد؛ وهداية توفيق، وعمل؛ فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزّ وجلّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس} [البقرة: 185] ؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين} [البقرة: 2] وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: 17]ـ : {فهديناهم} أي بيّنّا لهم الحق، ودَلّلناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا..

3. ومن فوائد الآيــة: أن الصـــراط ينقسم إلى قســمين: مســتقيم، ومعوج؛ فما كان موافقاً للحق فهو مستقيم، كما قـال الله تعـالى: {وأن هـذا صـراطي مستقيماً فـاتبعوه} [الأنعـام: 153]؛ وما كـان مخالفاً له فهو معوج..

القرآن

)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)

التفسير:.

قوله تعـالى: { صـراط الـذين أنعمت عليهم } عطف بيـان لقوله تعـالى: { الصـراط المسـتقيم }؛ والـذين أنعم الله عليهم هم المـذكورون في قوله تعـالى: {ومن يطع الله والرسـول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشـهداء والصـالحين وحسن أولئك رفيقاً(النساء: 69)

قوله تعـالى: { غـير المغضـوب عليهم }: هم اليهـود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به..

قوله تعالى: { ولا الضـالين }: هم النصـارى قبل بعثة النـبي صـلى الله عليه وسلم، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به..

وفي قوله تعـالى: { عليهم } قراءتـان سـبعيتان: إحـداهما ضم الهـاء؛ والثانية كسرها؛ واعلم أن القراءة الـتي ليست في المصـحف الـذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:.

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هـذا القـرآن العظيم الـذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه، واحترامه إذا رأوه مرةً كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون..

الوجه الثاني: أن القارئ يتهم بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارئ حديث العوام في مجالسهم..

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العـامي الظن بهـذا القـارئ، وأن عنـده علماً بما قرأ، فذهب يقلده، فربما يخطئ، ثم يقـرأ القـرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها . وهذه مفسدة..

ولهذا قال عليّ: "حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبـون أن يُكـذب الله، ورسوله"[(1)] ، وقال ابن مسعود: "إنك لا تحدث قوماً حـديثاً لا تبلغه عقـولهم إلا كـان لبعضـهم فتنـة"[(2)] ؛ وعمر بن الخطـاب لما سمع هشام بن الحكم يقـرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الـذي قرأها هشام خاصمه إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال النـبي صلى الله عليه وسلم لهشام: "اقرأ" ، فلما قرأ قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: "هكـذا أنـزلت" ، ثم قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم لعمـر: "اقـرأ" ، فلما قـرأ قـال النبي صـلى الله عليه وسـلم

---

(1) أخرجه البخاري ص14، كتاب العلم، باب 49: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم 127.

(2) أخرجه مسلم ص675، مقدمة الكتاب، رقم 14.

"هكذا أنزلت"[3] ؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس يقرؤون بها حتى جمعها عثمان رضي الله عنه على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رضي الله عنه أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد . وهو حرف قريش؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيَت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رضي الله عنه فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: ما دام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم }: وهذا مجمل؛ (صراط الذين أنعمت عليهم): وهذا مفصل؛ لأن الإجمال، ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه؛ ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم..

.2 ومنها: إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله..

.3 ومنها: انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام..

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم . وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق . وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة . أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً . كلهم مغضوب عليهم..

.4 ومن فوائد الآيتين: بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه..

.5 ومنها: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه . بخلاف المخالف عن جهل..

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله..

---

[3] أخرجه البخاري ص189، كتاب الخصومات، باب 4: كلام الخصوم بعضهم في بعض، حديث رقم 2419؛ وأخرجه مسلم ص805 – 806، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب 48: بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها، حديث رقم 1899 [270] 818.

تفسير سورة البقرة

نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكي؛ هذا هو الصحيح؛ لأن العبرة بالزمن . لا بالمكان..

وغالب السور المدنية يكون فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ ويكون التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ وتكون غالباً أقل شدة في الزجر، والوعظ، والوعيد؛ لأنها تخاطب قوماً كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ وتكون غالباً أطول آيات من السور المكية..

القــرآن

(بسم الله الرحمن الرحيم))الم) (1))ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)

التفسير:.

قوله تعالى: { بسم الله الرحمن الرحيم }: قد تقدم الكلام عليها في سورة الفاتحة..

.{ 1 } قوله تعالى: { الم } حروف هجائية: ثلاثة أحرف: أَلِف، ولام، وميم؛ تقرأ لا على حسب الكتابة: "أَلَمْ"؛ ولكن على حسب اسم الحرف: "أَلِفْ لامْ ميمْ"..

هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال

القول الأول: أن لها معنًى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزّ وجلّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقاً..

القول الثالث: لها معنًى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنًى؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى..

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنًى، أم لا؛ وإذا كان لها معنًى فلا ندري ما هو..

وأصح الأقوال فيها القول الثاني؛ وهو أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: أَلِف؛ باء؛ تاء؛ ثاء؛ جيم؛ حاء...؛ فهي كذلك حروف هجائية..

أما كونه تعالى اختار هذا الحرف دون غيره، ورتبها هذا الترتيب فهذا ما لا علم لنا به..

هـذا بالنسـبة لـذات هـذه الحـروف؛ أما بالنسـبة للحكمة منها فعلى قول من يعين لها معنًى فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى . مثل غيرها مما في القرآن..

وأما على قـــول من يقـــول: "ليس لها معنًى"؛ أو: "لها معنًى الله أعلم بـه"؛ أو: "يجب علينا أن نتوقـف" فـإن الحكمة عند هـؤلاء على أرجح الأقوال . وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الـذهبي، وجمع كثـير من أهل العلم . هو الإشـارة إلى بيـان إعجـاز القـرآن العظيم، وأن هـذا القـرآن لم يـأتِ بكلمـات، أو بحـروف خارجة عن نطـاق البشـر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم..

فهذا أبين في الإعجاز؛ لأنه لو كان في القرآن حروف أخــرى لا يتكلم النـــاس بها لم يكن الإعجـــاز في ذلك واقعـــاً؛ لكنه بنفس الحروف التي يتكلم بها الناس . ومع هـذا فقد أعجـزهم .؛ فالحكمة منها ظهـور إعجـاز القـرآن الكـريم في أبلغ ما يكـون من العبـارة؛ قالوا: ويـدل على ذلك أنه ما من سـورة افتتحت بهـذه الحـروف إلا وللقـرآن فيها ذكـر؛ إلا بعض السـور القليلة لم يـذكر فيها القـرآن؛ لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن:.

فمثلاً قوله تعــالى: {كهيعص} [مــريم: 1] ليس بعــدها ذكر للقــرآن؛ ولكن جــاء في الســورة خاصــية من خصــائص القــرآن . وهي ذِكر قصص من كان قبلنا .: {ذكر رحمت ربك عبده زكريا...} (مريم: 2)

كـذلك في سـورة الـروم قـال تعـالى في أولهـا: {الم * غلبت الروم} [الروم: 1، 2] ؛ فهذا الموضع أيضاً ليس فيه ذكر للقـرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن . وهو الإخبار عن المســتقبل .: {غلبت الــروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين} [الروم: 2 . 4)

وكذلك أيضاً قوله تعالى: {الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولـوا آمنا وهم لا يفتنون} [العنكبوت: 1، 2] ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شـيء من القصص الـذي هو أحد خصـائص القـرآن: {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا...} (العنكبوت: 3)

فهذا القول الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره جمع من أهل العلم هو الراجح: أن الحكمة من هذا ظهور إعجاز القــرآن في أبلغ صوره، حيث إن القرآن لم يـأتِ بجديد من الحـروف؛ ومع ذلك فـــإن أهل اللغة العربية عجـــزوا عن معارضـــته وهم البلغـــاء الفصحاء..

وقال بعضهم: إن الحكمة منها تنشيط السـامعين؛ فـإذا تلي القـرآن، وقـرئ قوله تعـالى: { الم } كأنه تعـالى يقـول: أنصـتوا؛ وذلك لأجل المشركين . حتى ينصتوا له ...

ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كـذلك لكـان هـذا في كل السـور؛ مع أن أكـثر السـور غـير مبتـدئ بمثل هـذه الحـروف؛ وأيضـاً لو كـان كـذلك ما صـارت في السـور المدنية . مثل سـورة البقـــرة .؛ لأن الســـور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القـــرآن؛ فالصواب أن الحكمة من ذلك هو ظهور إعجاز القرآن..

.{ 2 } قوله تعالى: { ذلك الكتاب }: "ذا" اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ فـإذا كـان المشـار إليه بعيـداً تـأتي بهـذه اللام الـتي نسـميها "لام البعد"؛ أما الكاف فهي للخطاب؛ وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:.
الأولى: مراعاة المخاطب؛ فإن كان مفـرداً مـذكراً فُتِحت؛ وإن كـان مفرداً مؤنثاً كُسِرت، وإن كان مثنى قرنت بالميم، والألف: "ذلكما" ؛ وإن كان جمعاً مذكراً قرنت بالميم: "ذلكم"؛ وإن كـان جمعـاً مؤنثـاً قرنت بالنون المشددة: "ذلكنَّ"؛ وهذه هي اللغة الفصحى..
اللغة الثانية: لزوم الفتح والإفـراد مطلقـاً، سـواء خـاطبت مـذكراً، أو مؤنثاً، أو مثنى، أو جمعاً؛ فتقـول للرجـل: "ذلـكَ" ؛ وللمـرأة: "ذلـكَ"؛ وللاثنين: "ذلكَ"؛ وللجماعة: "ذلكَ"..
اللغة الثالثة: أن تكون بالإفراد سواء كان المخاطب واحـداً، أم أكـثر . مفتوحة في المذكر مكسورة في المؤنث.؛ فتقول: "ذلـكَ" إذا كـان المخاطب مذكراً؛ وتقول: "ذلكِ" إذا كان مؤنثاً..
والخطــاب في قوله تعـالى: { ذلك } لكل مخــاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطَب..
والمراد بـ{ الكتـاب } القـرآن؛ و{ الكتـاب } بمعـنى المكتـوب؛ لأن "فِعـال" كما تـأتي مصـدراً . مثـل: قتـال، ونضـال . تـأتي كـذلك بمعــنى اسم مفعــول، مثــل: بنــاء بمعــنى مبــني؛ وغــراس بمعــنى مغروس؛ فكذلك "كتاب" بمعنى مكتوب؛ فهو مكتـوب عند اللـه؛ وهو أيضاً مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: {في صحف مكرمة * مرفوعة مطهَّرة * بأيدي سفرة} [عبس: 13 ـ 15] ؛ وهو مكتوب في الصـحف الـتي بين أيـدي النـاس؛ وأشـار إليه بـأداة البعيد لعلـوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب..
قوله تعـالى: { لا ريب فيه هـدًى للمتقين }: أهل النحو يقولـون: إنّ { لا } هنا نافية للجنس؛ و{ ريب } اســمها مبــني على الفتح؛ لأنه مــركب معهــا؛ فهي في محل نصــب؛ ويقولــون: إنّ { لا } النافية للجنس تفيد العمــوم في أقصى غايته . يعــني تــدل على العمــوم المطلق .، فتشمل القليل، والكثـير؛ فـإذاً القـرآن ليس فيه ريب لا قليل، ولا كثير..
و "الــريب" هو الشــك؛ ولكن ليس مطلق الشــك؛ بل الشك المصـحوب بقلق لقـوة الـداعي المـوجب للشـك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهـذا الشـك؛ فهي قلقة منه . بخلاف مطلق الشك .؛ ولهـذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقاً..
والنفي هنا على بابـه؛ فالجملة خبريـة؛ هـذا هو الـراجح؛ وقيـل: إنه بمعنى النهي . أي لا ترتابوا فيه .؛ والأول أبلغ؛ فـإن قـال قائـل: ما وجه رجحانه؟
فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسـير القـرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصــرفه عن الظاهر إلا بـدليل، مثل قوله تعـالى: {والمطلقـات يتربصن بأنفسـهن ثلاثة قروء} [البقرة: 228] ، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمـر؛ لأنه قد لا تـتربص المطلقـة؛ فما دمت تريد تفسـير القـرآن الكـريم فيجب عليك أن تجريه على ظـاهره إلا ما دلّ الـدليل على

خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكـذا؛ وأنت لو فسّـرت كلام بشر على خلاف ظـاهره لَلامَـكَ هـذا المتكلم، وقال: "لماذا تحمل كلامي على خلاف ظـاهره! ليس لك إلا الظـاهر"؛ مع أنك لو فسـرت كلام هـذا الرجل على خلاف ظـاهره لكان أهون لوماً مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم . غير الله . ربما يخفى عليه المعـنى، أو يعييه التعبـير، أو يعـبر بشـيء ظـاهره خلاف ما يريــده، فتفســره أنت على ما تظن أنه يريــده؛ أما كلام الله عزّ وجلّ فهو صادر عن علم، وبـأبلغ كلام، وأفصـحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عـزّ وجـلّ ما يتضـمنه كلامــه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره..

فقوله تعـالى: { لا ريب فيه }: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعـنى: ليس فيه ريب أبـداً؛ وقيـل: إن الخــبر هنا بمعـنى النهي؛ فمعـنى: { لا ريب فيه }: لا ترتـابوا فيـه؛ والـذي أوجب أن يفسـروا النفي بمعــنى النهي قـــالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفـــار، والمنافقين؛ قال تعالى: {فهم في ريبهم يترددون} [التوبة: 45] ؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هـذه القرينة الواقعية من ارتيـاب بعض النـاس في القــرآن قرينــةً موجبة لصـرف الخــبر إلى النهي؛ ولكننا نقـول: إن الله تعـالى يتحـدث عن القــرآن من حيث هو قــرآن . لا باعتبـار من يتلى عليهم القــرآن .؛ والقــرآن من حيث هو قــرآن لا ريب فيه؛ عندما أقـول لـك: "هـذا المـاء عـذب" فهـذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا الماء في مذاق إنسـان من النـاس ليس عذباً؛ كون مذاق الماء العـذب مـراً عند بعض النـاس فهـذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب؛ وقد قال المتنبي:.

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجدْ مُرّاً به المـاءَ الـزُّلالا فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبـة؛ فـإن القــرآن في حد ذاته ليس محل ريبـة؛ والله سـبحانه وتعـالى يصف القــرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيراً من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولــون ذلك جحوداً، كما قـال تعـالى: {فـإنهم لا يكـذبونك ولكن الظـالمين بآيـات الله يجحدون} [الأنعام: 33] ؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القــرآن؛ ويكـون في داخل نفسه يعــرف أن هـذا ليس بقول الرسول صـلى الله عليه وسـلم وأن محمـداً صـلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك يجحدون، وينكرون..

وعلى هذا فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه . وهو أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قــرآن بقطع النظر عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه..

وقوله تعالى: { لا ريب فيه هدًى للمتقين }: وقف بعض القراء على قوله تعـــالى: { لا ريب }؛ وعليه فيكـــون خــــبر { لا } محـــذوفاً؛ والتقـدير: لا ريب في ذلـك؛ ويكـون الجـار والمجـرور خـبراً مقـدماً، و{ هدًى } مبتدأ مؤخراً؛ ووقف بعضـهم على قوله تعـالى: { فيه }؛ وعليه فيكـون الجـار والمجـرور خـبر { لا }؛ ويكـون قوله تعـالى: { هدًى } خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو هدًى للمتقين..

و"التقــوى":اتخــاذ وقاية من عــذاب الله بفعل أوامــره، واجتنــاب نواهيه..

الفوائد:

1. من فوائد الآيــة: بيــان علــوّ القــرآن؛ لقوله تعــالى: { ذلك }؛ فالإشـارة بالبعد تفيد علـوّ مرتبتـه؛ وإذا كـان القـرآن عـالي المكانة والمنزلـة، فلا بد أن يعـود ذلك على المتمسك به بـالعلوّ والرفعـة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقـول: {ليظهـره على الـدين كلـه} [التوبـة: 33] ؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضاً لمن تمسك به..

2. ومنها: رفعة القـرآن من جهة أنه قـرآن مكتـوب معتنٍ بـه؛ لقوله تعالى: { ذلك الكتاب }؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصـحف التي بأيـدي الملائكـة، والمصـاحف الـتي بأيـدي الناس..

3. ومن فوائد الآية: أن هذا القـرآن نـزل من عند الله يقينـاً؛ لقوله تعالى: (لا ريب فيه)

4. ومنها: أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كـان أقـوى اهتـداءً بـالقرآن الكـريم؛ لأنه عُلِّق الهـدى بوصـف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كــانت قــوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علـة؛ وكلما قـويت العلة قـوي المعلول..

5. ومن فوائد الآيــة: فضــيلة التقــوى، وأنها من أســباب الاهتــداء بالقرآن، والاهتداء بـالقرآن يشـمل الهداية العلميـة، والهداية العمليـة؛ أي هداية الإرشاد، والتوفيق..

فــإن قيــل: ما الجمع بين قوله تعــالى: { هــدًى للمتقين }، وقوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان}؟ (البقرة: 185) .

فــالجواب: أن الهــدى نوعــان: عــام، وخــاص؛ أما العــام فهو الشامل لجميع الناس وهو هداية العلم، والإرشاد؛ ومثاله قوله تعالى عن القـرآن: {هـدًى للنـاس وبيّنـات من الهـدى والفرقـان} [البقـرة: 185] ، وقوله تعـالى عن ثمـود: {وأما ثمـود فهـديناهم فاسـتحبوا العمى على الهدى} [فصلت: 17] ؛ وأما الخـاص فهو هداية التوفيق : أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله: قوله تعالى { هدًى للمتقين }، وقوله تعــالى: {قل هو للــذين آمنــوا هــدًى وشــفاء} [فصلت: 44] ..

القـرآن

)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ وَبِـالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُــونَ* أُولَئِكَ عَلَى هُــدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة: 3-5)

التفسير:

.{ 3 } بعد أن ذكر الله عزّ وجلّ أن المتقين هم الـذين ينتفعـون ويهتدون بهذا الكتاب، بيَّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فـذكر في هـذه الآية ست صفات:.
الأولى: الإيمان بالغيب في قوله تعـالى: { الـذين يؤمنـون بـالغيب }، أي يقـرون بما غـاب عنهم مما أخـبر الله به عن نفسـه، وملائكتـه، وكتبه، ورسله، واليـوم الآخـر، والقـدر خـيره وشـره، وغـير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب؛ وعلى هذا فـ{ الغيب } مصدر بمعـنى اسم الفاعل: أي بمعنى: غائب..
الصفة الثانية: إقامة الصـلاة في قوله تعـالى: { ويقيمـون الصـلاة }، أي يقومون بها على وجه مستقيم، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ والمـراد بـ{ الصـلاة } هنا الجنس؛ فتعم الفريضـة، والنافلة..
الصـــفة الثالثـــة: الإنفـــاق مما رزقهم الله في قوله تعـــالى: { ومما رزقناهم ينفقون }، أي مما أعطيناهم من المال يخرجـون؛ و "مِن" هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكـون للبيـان؛ ويتفـرع على ذلك ما سيُبَيَّن في الفوائد . إن شاء الله تعالى ...
.{ 4 } الصفة الرابعة قوله تعالى: { والذين يؤمنون بما أنـزل إليك وما أنـــزل من قبلك }، أي يؤمنـــون بجميع الكتب المنزلـــة؛ وبـــدأ بـالقرآن مع أنه آخرها زمنـاً؛ لأنه مهيمن على الكتب السـابقة ناسخ لهـا؛ والمـراد بــ{ ما أنـزل من قبلك } التـوراة، والإنجيـل، والزبـور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها..
الصـفة الخامسـة: الإيقـان بـالآخرة في قوله تعـالى: { وبـالآخرة هم يوقنـون }؛ والمـراد بـذلك البعث بعد المـوت، وما يتبعه مما يكـون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهمـا؛ وإنما نص على الإيقـان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و "الإيقان" هو الإيمـان الـذي لا يتطرق إليه شك..
.{ 5 } قوله تعالى: { أولئك }: المشار إليه ما تقـدم ممن اتصـفوا بالصفات الخمس؛ وأشـار إليهم بصـيغة البعد لعلـوّ مـرتبتهم؛ { على هـدًى } أي على علم، وتوفيـق؛ و{ على } للاسـتعلاء؛ وتفيد علـوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليـه، كـأنهم يسـيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجاً أمامهم يهتدون به: تجـدهم مثلاً ينظـرون في أسـرار شـريعة اللـــه، وحِكَمهـــا، فيعلمـــون منها ما يخفى على كثـــير من النـــاس؛ وتجدهم أيضـاً عنـدما ينظـرون إلى القضـاء والقـدر كأنما يشـاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصـلحتهم؛ لأن الله قد أنـــار لهم الطريـــق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سـفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنـون غاية التمكن من الهـدى؛ لأنهم عليـــه؛ و{ من ربهم } أي خـــالقهم المـــدبر لأمـــورهم؛ والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا، والآخرة..

قوله تعـالى: { وأولئك هم المفلحـون }: الجملة مبتـدأ وخـبر، بينهما ضـمير الفصل الـدالّ على التوكيـد، والحصـر؛ وأعيد اسم الإشـارة تأكيـداً لما يفيـده اسم الإشـارة الأول من علـوّ المرتبـة، والعناية التامة بهم كـأنهم حضـروا بين يـدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية، والوسيلة؛ فالغايـة: الفلاح؛ ووسـيلته: ما سـبق؛ و "الفلاح" هو الفـوز بـالمطلوب، والنجـاة من المرهـوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

تنبـــيه:

من المعــروف عند أهل العلم أن العطف يقتضي المغـايرة . أي أن المعطــوف غــير المعطــوف عليه .؛ وقد ذكرنا أن هــذه المعطوفـات أوصـاف للمتقين وهو موصـوف واحـد؛ فكيف تكـون المغايرة؟

والجـواب: أن التغـاير يكـون في الـذوات كما لو قلت: "قـدم زيـد، وعمـرو"؛ ويكـون في الصـفات كما في هـذه الآيـة، وكما في قوله تعالى: {سـبح اسم ربك الأعلى * الـذي خلق فسـوى * والـذي قـدَّر فهدى * والذي أخرج المرعى} [الأعلى: 1 ـ 4] ؛ قالوا: والفائدة من ذلك أن هـذا يقتضي تقرير الوصف الأول . كأنه قـال: "أتصف بهـذا، وزيادة ...

الفوائد:.

.1 من فوائد الآيـة: أن من أوصـاف المتقين الإيمـان بـالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمـان؛ لأن المحسـوس لا يمكن إنكاره..

.2 ومنها: أن من أوصاف المتقين إقامة الصلاة؛ وهو عـام لفرضـها، ونفلها..

ويتفــرع على ذلــك: الـترغيب في إقامة الصـلاة؛ لأنها من صــفات المتقين؛ وإقامتها أن يـأتي بها مسـتقيمة على الوجه المطلـوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك..

.3 ومن فوائد الآيـات: أن من أوصـاف المتقين الإنفـاق مما رزقهم اللـه؛ وهــذا يشـمل الإنفـاق الـواجب كالزكـاة، وإنفـاقَ التطــوع كالصدقات، والإنفاقِ في سبل الخير..

.4 ومنها: أن صـدقةِ الغاصب باطلـة؛ لقوله تعـالى: { ومما رزقنـاهم }؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته..

.5 ومنها: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن "مِن" للتبعيض؛ أو للبيان..

ويتفرع على هذا جـواز إنفـاق جميع المـال في طـرق الخـير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصــــدق بجميع ماله ؛ لكن هذا مشـروط بما إذا لم يـترتب عليه تـرك واجب من الإنفـاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع..

.6 ومن فوائد الآية: ذم البخـل؛ ووجهه أن الله مـدح المنفقين؛ فـإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدة آيات..

تنـــبيه:

لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكـون؛ لكنه تعـالى ذكر في آيات أخـرى أن الإنفـاق الممـدوح ما كـان في سـبيل الله من غـير إسراف، ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكـان بين ذلك قوامـاً} [الفرقـان: 67] ..

.7ومن فوائد الآيـة: أن من أوصـاف المتقين الإيمـان بما أنـزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله.

.8 ومنهـا: أن من أوصـاف المتقين الإيقـان بـالآخرة على ما سـبق بيانه في التفسير..

.9 ومنها: أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائماً الإيمـان به عـزّ وجـلّ، وبـاليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقـط: يعتـدي ما دام يـرى أن ذلك مصلحة في دنيـاه: يسـرق مثلاً؛ يتمتع بشـهوته؛ يكـذب؛ يغش...؛ لأنه لا يـؤمن بـالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل..

.10 ومنهـا: سـلامة هـؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعـالى: (أولئك على هدًى من ربهم).

.11ومنها: أن ربوبية الله عزّ وجلّ تكون خاصة، وعامـة؛ وقد اجتمعا في قوله تعـالى عن سـحرة فرعـون: {آمنا بـرب العـالمين * رب موسى وهارون} (الأعراف: 121، 122)

.12 ومنهـا: أن مـآل هـؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعـالى: (وأولئك هم المفلحون)

.13 ومنهـا: أن الفلاح مـرتب على الاتصـاف بما ذُكـر؛ فـإن اختلَّت صـفة منها نقص من الفلاح بقـدر ما اختل من تلك الصـفات؛ لأن الصـحيح من قـول أهل السـنة والجماعـة، والـذي دلّ عليه العقل والنقـل، أن الإيمـان يزيـد، وينقص، ويتجـزأ؛ ولـولا ذلك ما كـان في الجنـات درجـات: هنـاك رتب كما جـاء في الحـديث: "إن أهل الجنة ليـتراءون أصـحاب الغـرف كما تـتراءون الكـوكب الـدري الغـابر في الأفق؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال صـلى الله عليه وسـلم لا؛ والـذي نفسي بيـده، رجـال آمنـوا باللـه، وصدقوا المرسلين"[1] ، أي ليست خاصة بالأنبياء..

القـرآن

)إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة:6))خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة:7)

التفسير:

---

[1] أخرجه البخاري ص263، كتاب بدء الخلق، باب 8: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم 3256؛ وأخرجه مسلم ص1170، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب 3: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم 7144 [11] 2831.

ثم ذكر الله قسماً آخر . وهم الكافرون الخلَّص .؛ ففي هذه السورة العظيمة ابتدأ الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخلَّص؛ ثم الكافرون الخلَّص؛ ثم المؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب، ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذاً الطيب: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ والخبيث: الكفار؛ والأخبث: المنافقون..

.{ 6 } قوله تعالى: { سواء } أي مستوٍ؛ وهي إما أن تكون خبر { إن } في قوله تعالى: { إن الذين كفروا }؛ ويكون قوله تعالى: { أأنذرتهم } فاعلاً بـ{ سواء } مسبوكاً بمصدر؛ والتقدير: سواء عليهم إنذارُك، وعدمُه؛ وإما أن تكون { سواء } خبراً مقدماً، و{ أأنذرتهم } مبتدأً مؤخراً؛ والجملة خبر { إن }؛ والأول أولى؛ لأنه يجعل الجملة جملة واحدة؛ وهنا انسبك قوله تعالى: { أأنذرتهم } بمصدر مع أنه ليس فيه حرف مصدري؛ لكنهم يقولون: إن همزة الاستفهام التي للتسوية يجوز أن تسبك، ومدخولها بمصدر..

قوله تعالى: { إن الذين كفروا } أي بما يجب الإيمان به..

قوله تعالى: { سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون }: هذا تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم. لا اعتذاراً للكفار .، ولا تيئيساً له صلى الله عليه وسلم و "الإنذار" هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ والرسول صلى الله عليه وسلم بشير، ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ نذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين؛ فإنذار النبي صلى الله عليه وسلم وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين، والمخاصمين . الذين تبين لهم الحق، ولكن جحدوه . مستوٍ عليهم..

وقوله تعالى: { لا يؤمنون }: هذا محط الفائدة في نفي التساوي . أي إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم . لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم)

و "الختم" : الطبع؛ و"الطبع" هو أن الإنسان إذا أغلق شيئاً ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء؛ وهكذا فهؤلاء . والعياذ بالله . قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير..

.{ 7 } قوله تعالى: { وعلى سمعهم } أي وختم على سمعهم، فهي معطوفة على قوله تعالى: { على قلوبهم }؛ والختم على الأذن: أن لا تسمع خيراً تنتفع به..

قوله تعالى: { وعلى أبصارهم غشاوة }: الواو للاستئناف؛ فالجملة مستقلة عما قبلها؛ فهي مبتدأ، وخبر مقدم؛ ويحتمل أن تكون الواو عاطفة، لكن عطف جملة على جملة؛ و{ غشاوة } أي غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع..

قوله تعالى: { ولهم } أي لهؤلاء الكفار الذين بقوا على كفرهم { عذاب عظيم }: وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار..

انتهى الكلام على الصنف الثاني من أصناف الخلق، وهم الكفار الخُلَّص الصرحاء..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم حين يردُّه الكفار، ولا يَقبلون دعوته..

.2 ومنها: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد . قد ختم الله على قلبه .، كما قال تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: 96، 97] ، وقال تعالى: {أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار} [الزمر: 19] يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم..

.3 ومنها: أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله..

.4 ومنها: أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: { ختم الله على قلوبهم } يعني لا يصل إليها الخير..

.5 ومنها: أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر: لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزّ وجلّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيّنة مشهودة..

.6 ومنها: وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم..

مسألة:.

إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء وامتحان من الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن له سبباً؛ كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: 5] ، وقال تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية(المائدة: 13)

القرآن

)وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ((البقرة:8)

التفسير:

.{ 8 } قوله تعالى: { ومن الناس }: { من } للتبعيض؛ أي: وبعض الناس؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف . لا بإيمان، ولا بكفر .؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء} [النساء: 143] ؛ و{ الناس } أصلها الأناس؛ لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة تخفيفاً، كما قالوا في "خير"، و"شر": إن أصلهما: "أخير"، و"أشر"؛ لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ وسُموا أناساً: من الأُنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضاً، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون: "الإنسان مدني بالطبع"؛ بمعنى: أنه يحب المدنية . يعني الاجتماع، وعدم التفرق ...

قوله تعالى: { من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر } أي يقول بلسانه . بدليل قوله تعالى: { وما هم بمؤمنين } أي بقلوبهم .؛ وسبق معنى الإيمان بالله، وباليوم الآخر..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلّص، ثم الكفار الخلّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفة، وفهماً..

2. . ومنها: أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

3. ومنها: أن المنافقين ليسوا بمؤمنين . وإن قالوا: إنهم مؤمنون .؛ لقوله تعالى: { وما هم بمؤمنين }؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن فليسوا بمسلمين..

4. ومنها: أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان..

ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: "آمنا" بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛ لأن الإيمان باللسان ليس بشيء..

القرآن

)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (البقرة:9)

التفسير:

.{ 9 } قوله تعالى: { يخادعون الله } أي بإظهار إسلامهم الذي يعصمون به دماءهم، وأموالهم..

قوله تعالى: { والذين آمنوا } معطوف على لفظ الجلالة؛ والمعنى: ويخدعون الذين آمنوا بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فيظن المؤمنون أنهم صادقون..

قوله تعالى: { وما يخدعون إلا أنفسهم } أي ما يخدع هؤلاء المنافقون إلا أنفسهم، حيث منَّوها الأماني الكاذبة..

قوله تعالى: { وما يشعرون } أي ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه؛ ولكن لا يُحِسُّون به، كما تقول: "مَرَّ بي فلان ولم أشعر به"..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر، وخديعة؛ لقوله تعالى: { يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم }؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: {هم العدو فاحذرهم} [المنافقون: 4] ؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون..

2. ومنها: التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: "فلان يخدع" فإنك تزداد تحفظاً منها؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظاً حذراً، فلا ينخدع بمثل هؤلاء..

فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟
فـالجواب: نعرفه بـأن نتتبع أقوالـه، وأفعالـه: هل هي متطابقـة، أو متناقضـة؟ فـإذا علمنا أن هـذا الرجل يتملق لنـا، ويظهر أنه يحب الإسـلام، ويحب الـدين، لكن إذا غـاب عنا نسـمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه..
3. ومن فوائد الآيـة: أن المكر السـيئ لا يحيق إلّا بأهلـه؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: { وما يخـدعون إلا أنفسـهم }: فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئاً، ولا رسوله، ولا المؤمنين..
4. ومنهـا: أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بـالأمور الظـاهرة؛ لقوله تعـالى: { وما يشـعرون } أي ما يشـعرون أنهم يخـدعون أنفسـهم؛ و "الشـعور" أخص من العلم؛ فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيـق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسول، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفـوا أنهم يخـدعون أنفسـهم، لكن لا شـعور عنـدهم في ذلـك؛ لأن الله تعـالى قد أعمى بصـائرهم . والعيـاذ بالله .، فلا يشعرون بهذا الأمر..

القـرآن

)فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة:10)

التفسير:
.{ 10 } قوله تعـالى: { في قلـوبهم مـرض }: هـذه الجملة جملة اسـمية تـدل على مكث وتمكنٌّ هـذا المـرض في قلـوبهم؛ ولكنه مـرض على وجه قليل أثّر بهم حـتى بلغـوا النفـاق؛ ومن أجل هـذا المـرض قـال سـبحانه وتعـالى: { فـزادهم الله مرضـاً }: الفـاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضاً على مرضـهم؛ لأنهم . والعياذ بالله . يريـدون الكفـر؛ وهـذه الإرادة مـرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبـارة عن صـلاح القلـوب، أو فسـادها؛ فـإذا كـان القلب يريد خـيراً فهو دليل على سـلامته، وصـحته؛ وإذا كـان يريد الشر فهو دليل على مرضـه، وعلته..
وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولـون لشـياطينهم إذا خلـوا إليهم: {إنا معكم إنما نحن مسـتهزئون} [البقـرة: 14] ، أي بهـؤلاء المؤمنين السذج . على زعمهم . ويرون أن المؤمنين ليسـوا بشـيء، وأن العِلّية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جـاء التعبـير بـ {إنا معكم} [البقرة: 14] الذي يفيد المصاحبة، والملازمة..
فهذا مرض زادهم الله به مرضاً إلى مرضهم حتى بلغوا إلى مـوت القلوب، وعدم إحساسها، وشعورها..
قوله تعالى في مجازاتهم: { ولهم عـذاب } أي عقوبـة؛ { أليم } أي مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلماً لقوتـه، وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلماً لكثرتـه:

فقد يكون ضرباً خفيفاً؛ ولكن إذا كثر، وتوالى آلم؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار . وهذا ألم حسي .؛ وقال تعالى في أهل النار: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون} [السجدة: 20] ، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم..

قوله تعالى: { بما كانوا يكذبون }: الباء للسببية . أي بسبب كذبهم .، أو تكذيبهم؛ و "ما" مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: بكونهم كاذبين؛ أو: بكونهم مكذبين؛ لأن في الآية قراءتين؛ الأولى: بفتح الياء، وسكون الكاف، وكسر الذال مخففة؛ ومعناها: يَكْذِبون بقولهم: آمنا بالله، وباليوم الآخر . وما هم بمؤمنين .؛ والقراءة الثانية: بضم الياء، وفتح الكاف، وكسر الذال مشددة؛ ومعناها: يُكَذِّبون الله، ورسوله؛ وقد اجتمع الوصفان في المنافقين؛ فهم كاذبون مكذِّبون..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضاً فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: { في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً }؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرِده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً} [النساء: 137] ، وقال تعالى في سورة المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} [المنافقون: 3] ..

2. ومن فوائد الآية: أن أسباب إضلال اللَّهِ العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: { في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً }؛ ومثل ذلك قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: 5] ، وقوله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} [الأنعام: 110] ، وقوله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} [المائدة: 49] ..

3. ومنها: أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: { فزادهم الله مرضاً }؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد، وينقص؛ والمرض يزيد، وينقص..

4. ومنها: الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: (ولهم عذاب أليم)

5. ومنها: أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب . أي أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنب .؛ لقوله تعالى:
(بما كانوا يكذبون)

6. ومنها: أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب، والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال..

7. ومنها: ذم الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكذب من

خصال المنافقين، فقال صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب..."[(1)] الحديث؛ والكذب مذموم شرعاً، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضاً..

مسألة :-

إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟
فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله . تبارك وتعالى . حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك..

القـرآن

)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة:11)
)أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) (البقرة:12)

التفسير:

.{ 11 } قوله تعالى: { وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض }: القائل هنا مبهم للعموم . أي ليعم أيَّ قائل كان؛ و "الإفساد في الأرض" هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي . كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: 41]
وقوله تعالى: { في الأرض }: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما . وهو الأولى؛ أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون} [الأعراف: 130] ، فهذا فساد في الأرض..
وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتوا إلى اليهود، ويقولون لهم: {لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم} [الحشر: 11] : فيزدادوا استعداءً للرسول صلى الله عليه وسلم ومحاربة له؛ كذلك أيضاً من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحاً واضحاً، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع..
قوله تعالى: { قالوا إنما نحن مصلحون }؛ { إنما }: أداة حصر؛ و{ نحن }: مبتدأ؛ و{ مصلحون }: خبر؛ والجملة اسمية؛ والجملة الاسمية تفيد الثبوت، والاستمرار؛ فكأنهم يقولون: ما حالنا إلا الإصلاح؛ يعني: أنه ليس فيهم إفساد مطلقاً..

[(1)] أخرجه البخاري ص5، كتاب الإيمان، باب 24: علامات المنافق، حديث رقم 33؛ وأخرجه مسلم ص 690، كتاب الإيمان، باب 25: خصال المنافق، حديث رقم 211 [107] 59.

ومن توفيق الله أنه لم يلهمهم، فيقولوا: إنما نحن المصلحون؛ فلو أنهم قالوا: "نحن المصلحون" كان مقتضاه أن لا مصلح غيرهم؛ لكنهم قالوا: { إنما نحن مصلحون } أي ما حالنا إلا إصلاح؛ ولم يدَّعوا أنهم المصلحون وحدهم..

.{ 12 } قوله تعالى: { ألا إنهم هم المفسدون }؛ { ألا }: أداة تفيد التنبيه، والتأكيد؛ و{ إنهم }: توكيد أيضاً؛ و{ هم }: ضمير فصل يفيد التوكيد أيضاً؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: { ألا }، و "إن" ، و{ هم } وهذا من أبلغ صيغ التوكيد؛ وأتى بـ "أل" الدالة على حقيقة الإفساد، وأنهم هم المفسدون حقاً؛ ووجه حصر الإفساد فيهم أن { هم } ضمير فصل يفيد الحصر . أي هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: {هم العدو فاحذرهم} [المنافقون: 4] أي هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض..

قوله تعالى: { ولكن لا يشعرون } أي لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلادتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: { وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض }؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض..

.2 ومنها: أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: (إنما نحن مصلحون)

.3 ومنها: أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحاً صريحاً..

.4 ومنها: أنه ليس كل من ادعى شيئاً يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: { إنما نحن مصلحون }؛ فقال الله تعالى: { ألا إنهم هم المفسدون }؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسناً، كما قال تعالى: {أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} [فاطر: 8] ..

.5 ومنها: أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض، ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: { ولكن لا يشعرون

.6 ومنها: قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزّ وجلّ: { ألا إنهم هم المفسدون }؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي { ألا } و "إن" ، و{ هم }؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل..

القرآن

)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) (البقرة:13)

التفسير:.

.{ 13 } قوله تعـالى: { وإذا قيل لهم آمنـوا كما آمن النـاس }: القائل هنا مبهم للعموم . أي ليعم أيَّ قائل كان؛ والكـاف للتشـبيه، و "مـا" مصـدرية . أي كإيمـان النـاس؛ والمـراد بـ{ النـاس } هنا الصحابة الـذين كـانوا في المدينـة، وإمـامهم النـبي صـلى الله عليه وسلم

قوله تعـالى: { قـالوا أنـؤمن كما آمن السـفهاء }؛ الاسـتفهام هنا للنفي، والتحقير؛ والمعـنى: لا نـؤمن كما آمن السـفهاء؛ وربما يكـون أيضاً مضمناً معنى الإنكار . أي أنهم ينكرون على من قـال: { آمنـوا كما آمن النـاس }؛ وهـذا أبلغ من النفي المحض؛ و{ السـفهاء }: الذين ليس لهم رشد، وعقل؛ والمراد بهم هنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . على حدّ زعم هؤلاء المنافقين؛ فقـال الله تعـالى . وهو العليم بما في القلـــوب . رداً على هـــؤلاء: { ألا إنهم هم السـفهاء }: وهـذه الجملة مؤكـدة بثلاثة مؤكـدات: { ألا }، و "إن" ، وضـمير الفصـل: { هم }، وهو أيضـاً مفيد للحصـر؛ وهـذه الجملة كالتي قبلها في قوله تعالى: { ألا إنهم هم المفسدون }..

قوله تعالى: { ولكن لا يعلمون } أي لا يعلمون سفههم؛ فـإن قيـل: ما الفرق بين قوله تعـالى هنـا: { ولكن لا يعلمـون }، وقوله تعـالى فيما سبق: { ولكن لا يشعرون }؟

فـــالجواب: أن الإفســـاد في الأرض أمر حسي يدركه الإنســـان بإحساسه، وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسِه..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: أن المنـافق لا تنفعه الـدعوة إلى الخـير؛ لقوله تعالى: { وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن النـاس قـالوا أنـؤمن كما آمن السـفهاء }؛ فهم لا ينتفعـون إذا دعـوا إلى الحـق؛ بل يقولـون: { أنؤمن كما آمن السفهاء)

.2 ومنهـا: إعجـاب المنـافقين بأنفسـهم؛ لقـولهم: (أنـؤمن كما آمن السفهاء)

.3 ومنها: شدة طغيان المنـافقين؛ لأنهم أنكـروا على الـذين عرضـوا عليهم الإيمان: { قالوا أنؤمن }؛ وهـذا غاية ما يكـون من الطغيـان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: {في طغيانهم يعمهون} [البقرة: 15] ..

.4 ومنهـا: أن أعـداء الله يصـفون أوليـاءه بما يـوجب التنفـير عنهم لقولهم: { أنـؤمن كما آمن السـفهاء }؛ فأعـداء الله في كل زمـان، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفـير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بـالجنون، والسـحر، والكهانـة، والشـعر تنفـيراً عنهم، كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: 52] ، وقال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجـرمين} [الفرقـان: 31] وورثة الأنبيـاء مثلهم يجعل الله لهم أعـداء من المجـرمين، ولكن {وكفى بربك هاديـاً ونصـيراً} [الفرقان: 31] ؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعـالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هـؤلاء؛ لأن أعـداء الأنبيـاء يسـلكون في

إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين؛ مسـلك الإضـلال، والدعاية الباطلة في كل زمان، ومكان؛ ثم مسلك السلاح . أي المجابهة المسلحة؛ ولهـذا قال تعالى: {هادياً} [الفرقان: 31] في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال . وهو الذي نسميه الآن بالأفكـار المنحرفـة، وتضـليل الأمـة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقـال تعـالى: {ونصـيراً} [الفرقـان: 31] في مقابل المسلك الثاني . وهو المجابهة المسلحة..
.5 ومن فوائد الآية: أن كل من لم يؤمن فهو سـفيه، كما قـال الله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبـراهيم إلا من سـفه نفسـه} [البقـرة: 130] ..
.6 ومنهــا: أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمــان باللــه، واتبــاع شـريعته؛ لأن الكـافر المخـالف للشـريعة سـفيه؛ فيقتضي أن ضـده يكون حكيماً رشيداً..
.7ومنها: تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمـنين، كما قـال تعـالى: {إن الله يـدافع عن الـذين آمنـوا} [الحج: 38] ؛ فـإذا ذمـوا بـالقول دافع الله عنهم بـالقول؛ فهـؤلاء قـالوا: { أنـؤمن كما آمن السفهاء }، والله عـزّ وجـلّ هو الـذي جـادل عن المؤمـنين، فقـال: { ألا إنهم هم السـفهاء } يعـني هم السـفهاء لا أنتم؛ فهـذا من تحقيق دفاع الله تعـالى عن المؤمـنين؛ أما دفاعه عن المؤمـنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل فاستمع إلى قـول الله تعـالى: {إذ يـوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلـوب الـذين كفـروا الـرعب فاضـربوا فـوق الأعنـاق واضـربوا منهم كل بنـان} [الأنفال: 12] : هذه مدافعة فعلية، حيث تنْـزل جنـود الله تعـالى من السماء لتقتل أعـداء المؤمـنين؛ فهـذا تحقيق لقـول الله تعـالى: {إن الله يـدافع عن الـذين آمنـوا} [الحج: 38] ؛ ولكن الحقيقة أن هـذا الوعد العظيم من القـادر جل وعلا الصـادق في وعـده يحتـاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزّ وجلّ، ولا نخشى أحداً سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشـية اللـه، أو أشد خشـية؛ لأننا إذا كنا نـراعيهم دون أوامر الله فسنخشـاهم أشد من خشـية الله عـزّ وجلّ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزّ وجـلّ، ولا نخشى إلا الله سـبحانه وتعالى..

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمــان بهــذا الوعد الصــادق الــذي لا يُخلَف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عـزّ وجـلّ؛ وهـذه هي المصـيبة، والطامة العظيمة التي أصـابت المسـلمين اليـوم؛ ولـذلك تجد كثـيراً من ولاة المسلمين . مع الأسف . لا يهتمون بأمر اللـه، ولا بشـريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان، وفلان؛ أو الدولة الفلانيــة، والفلانية . ولو على حســاب الشــريعة الإســلامية الــتي من تمسك بها فهو المنصـور، ومن خالفها فهو المخـذول؛ وهم لا يعرفـون أن هـذا هو الذي يبعدهم من نصر اللـه؛ فبـدلاً من أن يكونـوا عبيـداً لله أعـزة صاروا عبيـداً للمخلـوقين أذلـة؛ لأن الأمم الكـافرة الكـبرى لا تـرحم أحداً في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضـربنا بـذلك عُـرض الحائـط، وقلنـا: لا نريد إلا رضى اللـه، ونريد أن نطبق شـريعة الله سـبحانه

وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنـا؛ لكـانت تلك الأمم العظمى تهابنـا؛ ولهـذا يقـال: من خـاف الله خافه كل شـيء، ومن خـاف غـير الله خاف من كل شيء..

.8 . ومن فوائد الآية: الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزّ وجلّ نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: { ولكن لا يعلمـون }؛ فالحقيقة أنهم من أجهل الناس . إن لم يكونوا أجهل الناس؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهـؤلاء المنـافقون من أجهل النـاس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء..

القــرآن

)**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) (البقرة:14))اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (البقرة:15)**

التفسير:

.{ 14 } قوله تعالى: { وإذا لقوا الذين آمنوا } أي قابلوهم، أو جلسوا إليهم؛ { قالوا } أي للمؤمنين الذين لقوهم؛ { آمنا } أي كإيمانكم..

قوله تعالى: { وإذا خلوا إلى شياطينهم }؛ ضُمِّن الفعل هنا معنى "رجعوا"؛ ولذلك عُدِّي بـ{ إلى }، لكن عُدِّي بالفعل { خلوا } ليكون المعنى: رجعوا خالِين بهم؛ والمراد بـ{ شياطينهم } كبراؤهم؛ وسمي كبراؤهم بـ "الشياطين" لظهور تمردهم؛ وقد قيل: إن "الشيطان" كل مارد؛ أي كل عاتٍ من الجن، أو الإنس، أو غيرهما: شيطان؛ وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الكلب الأسود بأنه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه: لأن أعتى الكلاب، وأشدها قبحاً هي الكلاب السود؛ فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: "الكلب الأسود شيطان"[(1)] ؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان . أي مَريدهم، وعاتيهم..

وكلمة: "شيطان" : النون فيها أصلية من "شطن" بمعنى بعُد؛ ولكونها أصلية صُرف الاسم بتنوين، كما في قوله تعالى: { ويتبع كل شيطان مريد } [الحج: 3] ؛ ولو كانت النون والألف زائدتان منعت من الصرف؛ لأن الألف والنون إذا كانتا زائدتين في عَلَم؛ أو وصف فإنه يُمنع من الصرف؛ وأما إذا كانتا زائدتين في غير علم، ولا وصف فإنه لا يمنع من الصرف..

قوله تعالى: { إنا معكم } أي صحب مقارنون لكم تابعون لكم؛ { إنما نحن مستهزئون } أي ما نحن إلا ساخرون بالمؤمنين: نظهر لهم أنا مسلمون لنخادعهم..

.{ 15 } قوله تعالى: { الله يستهزئ بهم } أي يسخر تبارك وتعالى بهم بما أملى لهم، وكفّ أيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه عن قتلهم . مع أنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار..

قوله تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ الطغيان مجاوزة الحد، كقوله تعالى: {إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية} [الحاقة: 11] ؛ و "العمه" الضلال؛ والمعنى أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم؛ واعلم أن بين "يَمد" الثلاثي، و"يُمد" الرباعي فرقاً؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالى: {ونمد له من العذاب مداً} [مريم: 79] : وهذا في الشر؛

---

(1) أخرجه مسلم ص757، كتاب الصلاة، باب 50: قدر ما يستر المصلي، حديث رقم 1137 [265] 510.

وقال تعالى: {وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون} [الطور: 22] :
وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالى: { ويَمدهم }: فهو في الشر..
الفوائد:
.1 من فوائد الآيتين: ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم { إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا } خوفاً من المؤمنين؛ و{ إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم } خوفاً منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر..
.2 ومنها: أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقاً؛ واعلم أن ها هنا أربعة أقسام:
قسم هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل "المتكلم"، و"المريد"؛ فـ"المتكلم"، و"المريد" ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم، ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة..
القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير... وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: "يسمى الله به" أن نُحْدِث له اسماً بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به..
القسم الثالث: ما لا يكون كمالاً عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد ؛ فهذا لا يجوز أن يوصف به إلا مقيداً، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك..
مسألة :-
هل "المنتقم" من جنس الماكر، والمستهزئ؟
الجواب: مسألة "المنتقم" اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ"العفوّ"؛ فيقال: "العفوُّ المنتقم"؛ لأن "المنتقم" على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرِن بـ"العفوّ"؛ ومثله أيضاً المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ"المُعِز"؛ فيقال: "المعزُّ المُذل"؛ ومثله أيضاً "الضار": قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن "النافع"؛ فيقال: "النافع الضار"؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة..
ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق . ولو مقروناً بما يقابله . أي إنك لا تقول: العفوّ المنتقم؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى "المنتقم"؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزّ وجلّ: {إنا من المجرمين منتقمون} [السجدة: 22] ، وقال عزّ وجلّ: {والله عزيز ذو انتقام} [آل عمران: 4] ؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ

الإسـلام ابن تيميـة؛ والحـديث الـذي ورد في سـرد أسـماء الله الحسـنى، وذُكر فيه المنتقم غـير صـحيح؛ بل هو مـدرج؛ لأن هـذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشـياء هي من أسماء الله . مما يدل على أنه ليس من كلام الرسـول صـلى الله عليه وسلم..

القسم الرابع: ما يتضـمن النقص على سـبيل الإطلاق: فهـذا لا يوصف الله سـبحانه وتعـالى به أبـداً، ولا يسـمى بـه، مثـل: العـاجز؛ الضعيف؛ الأعور.... وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سـبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقاً..

والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صـفة كمـال هنا في مقابل المسـتهزئين مثل قوله تعـالى: {إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً} [الطـارق: 15، 16] أي أعظمَ منه كيـداً؛ فالاسـتهزاء من الله تعـالى حق على حقيقتـه، ولا يجـوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شـيئاً من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صـحيح فقد قـال على الله ما لم يعلم؛ والقـول على الله بلا علم حـرام، كما قـال تعـالى: {قل إنما حـرم ربي الفـواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغـير الحق وأن تشـركوا بالله ما لم يـنزل به سـلطاناً وأن تقولـوا على الله ما لا تعلمـون} [الأعـراف: 33] ؛ فكل قـول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصـفه غـير جـائز؛ بل نحن نـؤمن بـأن الله جل وعلا يسـتهزئ بالمنـافقين اسـتهزاءً حقيقيـاً؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء..

وهذه القاعدة يجب أن يسـار عليها في كل ما وصف الله به نفسـه؛ فكما أنك لا تتجـاوز حكم الله فلا تقـول لما حـرم: "إنه حلال"، فكـذلك لا تقـول لما وصف به نفسه أن هـذا ليس المـراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظـاهره، لكن تعلم أن ظـاهره ليس كالـذي ينسب لـك؛ فاسـتهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واسـتواء الله على عرشه ليس كاسـتوائنا على السـرير؛ وهكـذا بقية الصـفات نجريها على ظاهرهـا، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نـزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلـوقين؛ لأن الله تعـالى يقـول: {ليس كمثله شـيء وهو السميع البصير} [الشورى: 11] ..

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقاً؛ لأن الخيانة صـفة نقص مطلق؛ و"الخيانة" معناهـا: الخديعة في موضع الائتمـان . وهـذا نقص؛ ولهذا قـال الله عـزّ وجـلّ: {وإن يريـدوا خيانتك فقد خـانوا الله من قبل فأمكن منهم} [الأنفال: 71] ، ولم يقل: فخـانهم؛ لكن لما قـال تعالى: {يخادعون الله} [النسـاء: 142] قـال: {وهو خـادعهم} [النسـاء: 142] ؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسـول صـلى الله عليه وسلم: "الحرب خدعة"[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم:

[1] أخرجه البخاري ص243، كتاب الجها والسير، باب 157؛ الحرب خدعة، حديث رقم 3028؛ وأخرجه مسلم ص986، كتاب الجهاد والسير، باب 5؛ جواز الخداع في الحرب، حديث رقم 4540 [18] 1740.

"لا تخن من خانك"[2] ؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق..

.3 ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه..

فيستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزّ وجلّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجاً من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . كما جاء في الحديث[3] ..

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيماً على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيماً على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج..

.4 ومن فوائد الآيتين: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق، وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ ومن الطغيان أن يُقَدِّم المرء قوله على قول الله ورسوله؛ والله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم(الحجرات: 1).

القرآن

)أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (البقرة:16)

التفسير:

.{ 16 } قوله تعالى: { أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى }؛ "أولاء" اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولاً؛ و{ اشتروا } أي اختاروا؛ و{ الضلالة }: العماية؛ وهي ما ساروا عليه من النفاق؛ و{ بالهدى }: الباء هنا للعوض؛ أخذوا الضلالة، وأعطوا الهدى . مثلما تقول: اشتريت الثوب بدرهم؛ فالهدى المدفوع عوض عن الضلالة المأخوذة، كما أن الدرهم المدفوع عوض عن الثوب المأخوذ..

قوله تعالى: { فما ربحت تجارتهم } أي ما زادت تجارتهم . وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى..

---

[2] أخرجه أحمد في مسنده 3/414؛ وأخرجه أبو داود في سننه ص1485، كتاب البيوع، باب 79: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم 3534؛ وأخرجه الترمذي ص1778، كتاب البيوع، باب 38: أد الأمانة إلى من ائتمنك، حديث رقم 1264؛ وأخرجه الدارمي في سننه 2/343، حديث رقم 2597، كتاب البيوع، باب 57: في أداء الأمانة واجتناب الخيانة، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح 2/18، وقال عبد القادر الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول: صحيح 6/323، حاشية رقم 1.

[3] راجع البخاري ص389، كتاب التفسير باب 5: قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)، حديث رقم 4686؛ ومسلماً ص1130، كتاب البر والصلة والأدب، باب 15: تحريم الظلم، حديث رقم 6581 [61] 2583.

قوله تعالى: { وما كانوا مهتدين } أي ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى..

2. ومنها: شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها..

3. ومنها: أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملاً وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظناً منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: { فما ربحت تجارتهم }..

4. ومنها: خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم)..

5. ومنها: أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} [العصر: 1 ـ 3] ، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} [الصف: 10، 11] : تقف على {خير لكم} ؛ لأن {إن كنتم تعلمون} إذا وصلناها بما قبلها صار الخير معلقاً بكوننا نعلم . وهو خير علمنا أم لم نعلم..

6. ومن فوائد الآية: أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: { وما كانوا مهتدين }؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق، أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب . وليس على صواب..

القرآن

)مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ) (البقرة:17))صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (البقرة:18)

التفسير:

. { 17 } قوله تعالى: { مثلهم } أي وصْفهم، وحالهم { كمثل الذي استوقد ناراً } أي طلب من غيره أن يوقد له ناراً، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه؛ { فلما أضاءت ما حوله } أي أنارت ما حول المستوقد، ولم تذهب بعيداً لضعفها؛ { ذهب الله بنورهم } يعني: وأبقى حرارة النار؛ و "لما" حرف شرط، و{ أضاءت } فعل الشرط؛ و{ ذهب الله } جواب الشرط؛ والمعنى: أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة..

وفي هذه الآية نجد اختلافاً في الضـمائر: { اسـتوقد }: مفـرد؛ { حوله }: مفرد؛ { بنورهم }: جمع؛ { تركهم }: جمع؛ { لا يبصـرون }: جمـع؛ قد يقـول قائـل: كيف يجـوز في أفصح الكلام أن تكـون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟ الجواب من وجهين:.

الأول: أن اسم الموصول يفيد العمـوم؛ وإذا كـان يفيد العمـوم فهو صـالح للمفـرد، والجمـع؛ فتكـون الضـمائر في { اسـتوقد }، و{ حوله } عادت إلى اسم الموصول باعتبـار اللفـظ؛ وأما { نـورهم }، و{ تـركهم }، و{ لا يبصــرون } فعـادت إلى الموصـول باعتبـار المعنى..

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النـار كـان مع رفقـة، فاسـتوقد النـار لـه، ولرفقتــه؛ ولهــذا قــال تعــالى: { أضــاءت ما حوله ذهب الله بنورهم... } إلخ..

وعلى الوجه الثـاني تكـون الآية ممثلة لرؤسـاء المنـافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي اسـتوقد النـار، وأراد أن ينفع بها أقرانـه، ثم ذهبت الإضـاءة، وبقيت الحـرارة، والظلمـة، وتـركهم جميعاً في ظلمات لا يبصرون..

قوله تعالى: { وتركهم في ظلمات }: جمعها لتضـمنها ظلمـات عديدة؛ أولها: ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت ناراً بالنهار فإنها لا تضيء؛ و الثانية: ظلمة الجو إذا كان غائمـاً؛ و الثالثـة: الظلمة الـتي تحـدث بعد فقد النـور؛ فإنها تكــون أشد من الظلمة الدائمــة؛ و{ لا يبصــرون } تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: { في ظلمات } دال على شدة الظلمة..

.{ 18 } قوله تعالى في وصفهم: { صم } خبر لمبتدأ محذوف . أي هم صـم؛ و{ صم } جمع أصـم؛ و"الأصـم" الـذي لا يسـمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شـيء معين: أي هم صم عن الحـق، فلا يسـمعون؛ والمـراد نفي السـمع المعنـوي . وهو السـمع النـــافع؛ لا الحسي . وهو الإدراك؛ لأن كلهم يســـمعون القـــرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسـمعون؛ وذلك مثل قـول الله تعـالى: {ولا تكونـوا كالـذين قـالوا سمعنا وهم لا يسمعون}(الأنفال: 21).

قوله تعـالى: { بُكْمٌ } جمع أبكم؛ وهو الـذي لا ينطـق؛ والمـراد أنهم لا ينطقـون بـالحق؛ وإنما ينطقـون بالباطـل؛ و{ عُمْيٌ } جمع أعمى؛ والمـراد أنهم لا ينتفعـون بما يشـاهدونه من الآية الـتي تظهر على أيدي الرسل . عليهم الصلاة والسلام..

فبهذا سُدت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسـموع؛ وإما مشهود؛ وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون؛ كذلك أيضـاً لا يؤخذ منهم حـــق؛ لأنهم لا ينطقـــون بـــالحق؛ لأنهم بُكم؛ فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق..

قوله تعـالى: { فهم لا يرجعـون }: الفـاء هـذه عاطفـة، لكنها تفيد السببية . أي بسبب هذه الأوصـاف الثلاثة لا يرجعـون عن غيِّهم؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـتين: بلاغة القـرآن، حيث يضـرب للمعقـولات أمثـالاً محسوسات؛ لأن الشـيء المحسـوس أقـرب إلى الفهم من الشـيء المعقــول؛ لكن من بلاغة القــرآن أن الله تعــالى يضــرب الأمثــال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يـدركها الإنسـان جيـداً، كما قـال تعــالى: {وتلك الأمثــال نضــربها للنــاس وما يعقلها إلا العــالمون} [العنكبوت: 43] ..
.2 ومنهـا: ثبـوت القيـاس، وأنه دليل يؤخذ بـه؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حــالهم على حــال من يســتوقد؛ وكل مثل في القــرآن فهو دليل على ثبوت القياس..
.3 ومنها: أن هؤلاء المنـافقين ليس في قلـوبهم نـور؛ لقوله تعـالى: { كمثل الذي استوقد ناراً }؛ فهؤلاء المنافقون يسـتطعمون الهـدى، والعلم، والنــور؛ فــإذا وصل إلى قلــوبهم . بمجــرد ما يصل إليها . يتضـاءل، ويـزول؛ لأن هـؤلاء المنـافقين إخـوان للمؤمـنين من حيث النسب، وأعمام، وأخـوال، وأقـارب؛ فربما يجلس إلى المـؤمن حقـاً، فيتكلم له بإيمـان حقيقي، ويـدعوه، فينقـدح في قلبه هـذا الإيمـان، ولكن سرعان ما يزول..
.4 ومن فوائد الآيــتين: أن الإيمــان نــور له تــأثير حــتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: {فلما أضاءت ما حولـه}: الإيمـان أضـاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين . وهي أوسع ما تحـدَّث الله به عن المنــافقين: {ذلك بــأنهم آمنــوا ثم كفــروا فطبع على قلــوبهم} [المنافقون: 3] ..
.5 ومنهـا: أنه بعد أن ذهب هـذا الضـياء حلت الظلمة الشـديدة؛ بل الظلمات..
.6 ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: { ذهب الله بنورهم }، كأنه أخذه قهراً..
فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟
فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزّ وجـلّ بسـببهم؛ وتذكَّر دائماً قول الله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: 5] . حــتى يتــبين لك أن كل من وصــفه الله بأنه أضــله فإنما ذلك بسبب منه
.7 ومن فوائد الآيــــتين: تخلي الله عن المنــــافقين؛ لقوله تعــــالى: [وتركهم]
ويتفــرع على ذلــك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك . ليس عنــده نــور، ولا هــدًى، ولا صــلاح؛ لقوله تعـالى: (وتــركهم في ظلمــات لا يبصرون)
.8 ومن فوائد الآيـتين: أن هـؤلاء المنـافقين أصم الله تعـالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجـوز أن يُنفى الشـيء لانتفاء الانتفـاع بـه، كما في قوله تعـالى: {ولا تكونـوا كالـذين قـالوا سمعنا وهم لا يسمعون} (الأنفال: 21)
.9 ومنها: أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق . كالأبكم..
.10 ومنها: أنهم لا يبصرون الحق . كالأعمى..

11. ومنها: أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحاباً للمؤمنين، وأصحاباً للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئاً فإنه لا يكاد أن يرجع عنه..

القـرآن

)أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (البقرة:19))يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:20)

التفسير:

.{ 19 } قوله تعالى: { أو كصيِّب من السماء }؛ { أو } هنا للتنويع؛ لأن المثل الثاني نوع آخر؛ والكاف اسم بمعنى "مِثل"؛ فـالمعنى: أو مِثل صيب؛ ويجوز أن نقـول: إن الكـاف حـرف تشـبيه، والتقـدير: أو مَثلهم كصـيب؛ و "الصـيِّب" المطر النـازل من السـماء؛ والمـراد بـ{ السماء } هنا العلو..

قوله تعـالى: { فيه ظلمـات } أي معه ظلمـات؛ لأن الظلمـات تكـون مصـاحبة لـه؛ وهـذه الظلمـات ثلاث: ظلمة الليـل؛ وظلمة السحاب؛ وظلمة المطر؛ والـدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعـالى بعد ذلـك: { يكـاد الـبرق يخطف أبصـارهم }، وقوله تعـالى: { كلما أضاء لهم مشوا فيه }: وهذا لا يكون إلا في الليل؛ و الثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يـتراكم بعضه على بعض، فيَحـدُث من ذلك ظلمةٌ فوق ظلمة؛ و الثالث: ظلمة المطر النـازل ؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدِث ظلمةً؛ هذه ثلاث ظلمات؛ وربما تكون أكـثر، كما لو كان في الجو غبار..

قوله تعـالى: { ورعد وبـرق }؛ "الرعـد" هو الصـوت الـذي نسـمعه من السـحاب؛ أما "الـبرق" فهو النـور الـذي يلمع في السحاب..

فهؤلاء عنـدهم ظلمـات في قلـوبهم . فهي مملـوءة ظلمة من الأصـل؛ أصـابها صـيب . وهو القـرآن . فيه رعـد؛ والرعد هو وعيد القـرآن؛ إلا أنه بالنسـبة لهـؤلاء المنـافقين وخـوفهم منه كأنه رعد شـديد؛ وفيه بـرق . وهو وعد القـرآن؛ إلا أنه بالنسـبة لما فيه من نور، وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض..

قوله تعالى: { يجعلون أصابعهم في آذانهم }؛ الضمير في { يجعلون } يعود على أصحاب الصيب؛ ففيها حذف المضاف؛ والتقدير: أصحاب الصيب؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ليس المشـبه به هنا هو الصـيب؛ وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب؛ و "أصـابع" جمع أصـبع، وفيه عشر لغات أشار إليها في قوله:.

وهمزَ أنملـةٍ ثلِّث وثالثَه التسـعُ في إصبعٍ واختم بأصـبوعٍ هـذا

وقد قيـل: إن في الآية مجـازاً من وجهين؛ الأول: أن الأصـابع ليست كلها تجعل في الأذن؛ و الثــاني: أنه ليس كل الأصــبع يــدخل في الأذن؛ والتحقيـق: أنه ليس في الآية مجـاز؛ أما الأول: فلأن "أصـابع"

جمع عائد على قوله تعـالى: { يجعلـون }، فيكـون من بـاب توزيع الجمع على الجمع . أي يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنـه؛ وأما الثاني: فلأن المخاطَب لا يمكن أن يفهم من جعْل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تـدخل في الأذن؛ وإذا كـان لا يمكن ذلك امتنع أن تحمل الحقيقة على إدخال جميع الأصبع؛ بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع؛ وحينئذ لا مجاز في الآيـة؛ على أن القـول الـراجح أنه لا مجاز في القرآن أصلاً؛ لأن معـاني الآية تـدرك بالسـياق؛ وحقيقة الكلام: ما دلّ عليه السياق . وإن استعملت الكلمات في غير أصلها؛ وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة، وأصول الفقه، وأكبر دليل على امتناع المجاز في القرآن: أن من علامات المجاز صحة نفيه، وتبـادر غـيره لـولا القرينـة؛ وليس في القـرآن ما يصح نفيـه؛ وإذا وجـدت القرينة صار الكلام بها حقيقة في المراد به..

قوله تعالى: { من الصـواعق }؛ { من } سـببية . أي يجعلونها بسبب الصواعق؛ و{ الصواعق } جمع صـاعقة؛ وهي ما تَصـعَق . أي تُهلك . مَنْ أصابته؛ هذه الصـواعق معروفة بآثارهـا؛ فهي نـار تنطلق من البرق؛ فإذا أصابت أحداً، أو شيئاً أحرقتـه؛ وغالبـاً تسـقط على النخيـل، وتحرقهـا؛ وتـرى فيها النـار، والـدخان؛ وأحيانـاً تسـقط على المنــازل وتهــدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشــدة لها هــواء تدفعه أمامها..

فيجعلون أصـابعهم في آذانهم من هـذه الصـواعق لئلا يموتـوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصـياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسـلمون بهـذا؛ إذا أراد الله تعـالى أن يصـيبهم أصـابهم؛ ولهـذا قـال تعـالى: { والله محيط بالكافرين }، فلن ينفعهم الحذر..

.{ 20 } ولما بَيَّن الله شدة الصوت، وأنهم لفـرارهم منـه، وعـدم تحملهم إيـاه يجعلـون أصـابعهم في آذانهم بَيَّن شـدة الضـوء عليهم، فقال تعالى: { يكاد الـبرق يخطف أبصـارهم } أي يقـرب أن يخطف أبصــارهم . أي يأخــذها بســرعة، فتعمى؛ وذلك لقوتــه، وضــعف أبصارهم..

قوله تعالى: { كلما أضـاء لهم مشـوا فيه }؛ فكـأنهم ينتهـزون فرصة الإضـاءة، ولا يتـأخرون عن الإضـاءة طرفة عين؛ كلما أضـاء لهم . ولو شيئاً يسيراً . مشوا فيه..

قوله تعـالى: { وإذا أظلم عليهم } أي أصـابهم بظلمـة؛ وذلك أن الضـوء إذا انطفأ بسـرعة اشـتدت الظلمة بعـده؛ { قـاموا } أي وقفوا..

قوله تعالى: { ولو شاء الله لذهب بسـمعهم وأبصـارهم } دون أن تحــدث الصــواعق، ودون أن يحــدث الــبرق؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بـدون أسـباب: فيذهب السـمع بـدون صـواعق، والبصر بـدون بـرق؛ { إن الله على كل شيء قدير }..

هذا المثل ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلاً؛ بل كانوا كافرين من قبل، كاليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج، والأوس؛ ومنهم يهود من بني إسرائيل؛ فاليهود لم يذوقوا طعم الإيمان أبداً؛ لأنهم كفار من الأصل؛ لكن أظهروا الإسلام خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعزه الله في بدر؛ فهؤلاء ليسوا على هدًى . كالأولين؛ الأولون استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم . والعياذ بالله . انتكسوا؛ لكن هؤلاء من الأصل في ظلمات؛ فيكون هذا المثل غير المثل الأول؛ بل هو لقوم آخرين؛ والمنافقون أصناف بلا شك..

و "الصواعق" عبارة عما في القرآن من الإنذار، والخوف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: {يحسبون كل صيحة عليهم} [المنافقون: 4] ؛ و "البرق" نور الإسلام، لكنه ليس نوراً يستمر؛ نور البرق ينقطع في لحظة؛ وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلاً، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شع، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضاً يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل لكبريائهم، وحسدهم للعرب يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعته، ومقابلته..

فالظاهر أن القول الراجح أن هذين مثلان يتنَزلان على صنفين من المنافقين..

فإن قال قائل: الصنف الأول كيف نقول: إنه دخل الإيمان في قلوبهم؟

فالجواب: نقول: نعم؛ قال الله تعالى: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} [المنافقون: 3] ؛ وهذا يدل على أنهم آمنوا أولاً، ثم كفروا ثانياً؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولم تستنر به؛ وإنما هو وميض ضوء ما لبث أن طفئ؛ وإلا فإن الإيمان إذا دخل القلب دخولاً حقيقياً فإنه لن يخرج منه بإذن الله؛ ولهذا سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يدخلون في الإسلام: "فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؛ فقال: لا؛ فقال: وَكَذَلِكَ الْإِيْمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلوبَ"[1] ؛ لكن الإيمان الهش - الذي لم يتمكن من القلب - هو الذي يُخشى على صاحبه..

الفوائد:

1. من فوائد الآيتين: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: { والله محيط بالكافرين }..

2. ومنها: أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلا يُخطف بصره..

3. ومنها: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى:(وإذا أظلم عليهم قاموا)

---

[1] أخرجه البخاري ص1 – 2، كتاب بدء الوحي، حديث رقم 7؛ وأخرجه مسلم ص992 – 993، كتاب الجهاد والسير، باب 26: كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل...، حديث رقم 4607 [74] 1773.

.4 ومنهـا: إثبـات مشـيئة اللـه؛ لقوله تعـالى: (ولو شـاء الله لـذهب بسمعهم وأبصارهم)
.5 ومنهـا: أنه ينبغي للإنسـان أن يلجأ إلى الله عـزّ وجـلّ أن يمتعه بسـمعه، وبصـره؛ لقوله تعـالى: { ولو شـاء الله لـذهب بسـمعهم وأبصارهم }؛ وفي الدعاء المأثور: "متعنا بأسـماعنا، وأبصـارنا، وقوتنا ما أحييتنا"[1] ..
.6 ومنها: أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء..
.7 ومنهـا: عمـوم قـدرة الله تعـالى على كل شـيء؛ فهو جـلّ وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصـالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك..

القرآن

)يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:21)

التفسير:

.{ 21 } { يا أيها النـاس }: النـداء هنا وجِّه لعمـوم النـاس مع أن السـورة مدنيـة؛ والغـالب في السـور المدنية أن النـداء فيها يكـون موجهاً للمؤمنين . والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فـالجواب: أن الأصل عـدم ذلك - أي عـدم إدخـال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هـذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هـذا فما نـراه في عنـاوين بعض السـور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كـذا غـير مسـلَّم حـتى يثبت ذلك بـدليل صـحيح صـريح؛ وإلا فالأصل أن السـورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت..

قوله تعـالى: { اعبـدوا ربكم } أي تـذللوا له بالطاعـة؛ وذلك بفعل الأوامــر، واجتنــاب النــواهي ذلاً تامــاً ناشــئاً عن المحبــة، والتعظيم؛ و "الرب" هو الخالق المالك المدبر لشؤون خلقه؛ { الذي خلقكم } أي أوجـدكم من العـدم؛ { والـذين من قبلكم } معطـوف على الكـاف في قوله تعـالى: { خلقكم } . يعـني وخلق الـذين من قبلكم؛ والمراد بـ "من قبلنا" : سائر الأمم الماضية..

وقوله تعالى: { الذي خلقكم } صفة كاشـفة تـبين بعض معـنى الربوبية؛ وليست صفة احترازيـة؛ لأنه ليس لنا ربـان أحـدهما خـالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق..

قوله تعالى: { لعلكم تتقـون }؛ "لعـل" هنا للتعليل . أي لتصـلوا إلى التقوى؛ ومعلوم أن التقوى مرتبة عاليـة، حـتى قـال الله عـزّ وجـلّ في الجنة: {أعدت للمتقين} [آل عمران: 133] ، وقـال تعـالى: {إن الله مع الذين اتقـوا والـذين هم محسـنون} [النحـل: 128] ، وقـال تعالى: {واعلموا أن الله مع المتقين} [البقرة: 194] ..

---

[1] أخرجه الترمذي ص2012، كتاب الدعوات، باب 79: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك...، حديث رقم 3502، قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن [3/168، حديث رقم 2783].

الفوائد:
1. من فوائد الآيـة: العناية بالعبـادة؛ يسـتفاد هـذا من وجهين؛ الوجه الأول: تصـدير الأمر بها بالنـداء؛ و الوجه الثـاني: تعميم النـداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعـالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون} (الذاريات: 56)
2. ومنها: أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: { اعبدوا ربكم }..
3. ومنها: وجـوب عبـادة الله عـزّ وجـلّ وحـده . وهي الـتي خُلق لها الجن، والإنس؛ و"العبـادة" تطلق على معنـيين؛ أحـدهما: التعبد . وهو فعل العابد؛ و الثاني: المتعبَّد به . وهي كل قول، أو فعل ظـاهر، أو باطن يقرب إلى الله عزّ وجلّ..
4. ومنها: أن وجـوب العبـادة علينا مما يقتضـيه العقل بالإضـافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: { اعبدوا ربكم }؛ فإن الرب عزّ وجلّ يسـتحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هـؤلاء المشـركين الـذين لم يمتثلـوا هـذا الأمر إذا أصـابتهم ضـراء، وتقطعت بهم الأسـباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعـوا الله مخلصـين له الـدين} [لقمـان: 32] ؛ لأن فطـرهم تحملهم على ذلك ولابد..
5. . ومن فوائد الآية: إثبات أن الله عزّ وجلّ هو الخالق وحده، وأنه خـالق الأولين، والآخـرين؛ لقوله تعـالى: (الـذي خلقكم والـذين من قبلكم)
6. ومنها: أن من طريق القرآن أنه إذا ذَكر الحكم غالباً ذَكر العلة؛ الحكم: { اعبدوا ربكم }؛ والعلة: كونه رباً خالقاً لنا، ولمن قبلنا..
7. ومنهـــا: أن التقـــوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (لعلكم تتقون)..
8. وربما يستفاد التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبــادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضـأ، كيف نصـلي... يعني ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقـرأ، ثم يركـع، ثم يسجد... إلخ، إلا بعد الوحي..
9. ومنهـــا: الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبـــادة إلا بـــالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري . رحمه الله . على هذه المسألة بقولـه: "بـاب: العلم قبل القول، والعمل ..

القـرآن

)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:22)

التفسير:

.{ 22 } قوله تعالى: { الذي جعل لكم الأرض فراشاً... } هـذا من بـــاب تعديد أنـــواع من مخلوقاته عـــزّ وجـــلّ؛ جعل الله لنا الأرض فراشــاً مُوَطَّأة يســتقر الإنســان عليها اسـتقراراً كـاملاً مهيـأة له يستريح فيها . ليست نشَزاً؛ وليست مؤلمة عند النوم عليهـا، أو عند السـكون عليهـا، أو ما أشـبه ذلـك؛ والله تعـالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد..

قوله تعالى: { والسماء بناءً } . كما قال تعالى: {وبنينا فوقكم سـبعاً شـــداداً} [النبـــأ: 12] : الســـماء جعلها الله بمنزلة البنـــاء، وبمنزلة السقف، كما قال تعـالى: {وجعلنا السـماء سـقفاً محفوظـاً}(الأنبيـاء: 32)

قوله تعـالى: { وأنـزل من السـماء مـاءً }: ليست هي السـماء الأولى؛ بل المـراد بـــ{ السـماء } هنا العلـو؛ لأن المـاء . الـذي هو المطر . يـنزل من السـحاب، والسـحاب بين السـماء، والأرض، كما قـال الله تعـالى: {ألم تر أن الله يـزجي سـحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامـاً فـترى الـودق يخـرج من خلالـه} [النـور: 43] ، وقـال تعـالى: {إن في خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهـار....} [البقــرة: 164] إلى قوله تعــالى: {والســحاب المسـخر بين السـماء والأرض لآيـات لقـوم يعقلـون} [البقـرة: 164] ؛ وبهـذا نعـرف أن الســماء يطلق على معنــيين؛ المعـنى الأول: البنــاء الــذي فوقنــا؛ والمعنى الثاني: العلو..

قوله تعالى: { فأخرج به } أي بسببه؛ { من الثمـرات } جمع ثمـرة؛ وجمعت باعتبار أنواعها..

قوله تعالى: { رزقاً لكم } أي عطاء لكم؛ وهو مفعول لأجله..

قوله تعـالى: { فلا تجعلـوا } أي لا تُصَـيِّروا { لله أنـداداً } أي نظـراء، ومشـابهين في العبـادة { وأنتم تعلمـون } أنه لا نِد له في الخلق، والرزق، وإنزال المطر، وما أشـبه ذلك من معـاني الربوبيـة، ومقتضياتها؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والــرازق هو الله، والمدبر للأمر هو الله إقراراً تاماً، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهاً آخر؛ وينكرون على من وحّد الله حتى قالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم {أجعل الآلهة إلهاً واحـداً إن هـذا لشـيء عجـاب} [ص: 5] ؛ وإقرارهم بالخلق، والرزق أن الله منفرد به يسـتلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قـال العلمـــاء . رحمهم الله .: توحيد الألوهية متضـــمن لتوحيد الربوبيـــة؛ وتوحيد الربوبية مســـتلزم لتوحيد الألوهيـــة؛ يعـــني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: بيان رحمة الله تعـالى، وحكمته في جعل الأرض فراشاً؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يسـتقر الإنسـان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشاً..

.2 ومنها: جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بنــاءً أن نعلم بذلك قدرة الله عــزّ وجــلّ؛ لأن هــذه الســماء المحيطة بــالأرض من كل الجــوانب نعلم أنها كبــيرة جــداً، وواســعة، كما قــال تعــالى: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون} (الذاريات: 47).
.3 ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعــالى: { وأنــزل من الســماء مــاء }؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى يــنزل هــذا المطر العظيم بلحظــة؛ وقصة الرجل الــذي دخل والنــبي صــلى الله عليه وســلم يخطب يــوم الجمعة قــال: ادع الله يغيثنــا، فرفع (صــلى الله عليه وسلم يديــه، وقــال: "اللهم أغثنــا"[1] ، وما نــزل من المنــبر إلا والمطر يتحادر من لحيته..
.4 ومنهــا: حكمة الله ســبحانه وتعــالى، ورحمته بــإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الــذي تحــيى به الأرض يجــري على الأرض لأضر النــاس؛ ولو كــان يجــري على الأرض لحُــرِم منه أراضٍ كثــيرة . الأراضي المرتفعة لا يأتيها شــيء؛ ولكن من نعمة الله أنْ ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضــاً: أنه يــنزل رذاذاً . يعــني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس..
.5 ومنهــا: إثبــات الأســباب؛ لقوله تعــالى: (فــأخرج به من الثمــرات رزقاً لكم)..
.6 ومنهــا: أن الأســباب لا تكــون مــؤثرة إلا بــإرادة الله عــزّ وجــلّ؛ لقوله تعالى: (فأخرج به)..
.7 ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب، مثل لو أن أحداً من النــاس غــرق، وجــاء رجل فأخرجه . أنقذه من الغرق؛ فليقل: أنقــذني الله بفلان؛ وله أن يقول: أنقذني فلان؛ لأنه فعلاً أنقــذه؛ وله أن يقــول: أنقــذني الله ثم فلان؛ وليس له أن يقــول: أنقــذني الله وفلان؛ لأن هــذا تشــريك مع الله؛ ويــدل لهــذا . أي الاختيــار أن يضــيف الشــيء إلى الله مقرونــاً بالسبب . أن النبي صلى الله عليه وســلم لما دعا الغلام اليهــودي للإســلام وكــان هــذا الغلام في ســياق المــوت، فعــرض عليه النــبي صــلى الله عليه وســلم أن يســلم، فأســلم؛ لكنه أســلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: "أطع أبا القاسم" . أمر ولــده أن يسـلم، وهو لم يســلم في تلك الحــال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النــبي صــلى الله عليه وســلم وهو يقــول: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار"[1] ، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقروناً ببيان السبب؛ وذلــك؛ لأن السبب موصل فقط..
.8 . ومن فوائد الآية: بيان قدرة الله، وفضــله بــإخراج هــذه الثمــرات من المــاء؛ أما القــدرة فظــاهر: تجد الأرض شــهباء جــدباء ليس فيها

---

[1] أخرجه البخاري ص79، أبواب الاستسقاء، باب 7: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، حديث رقم 1014؛ وأخرجه مسلم ص817، كتاب صلاة الاستسقاء، باب 2: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم 2078 [8] 897.

[1] أخرجه أبو داود ص1456، كتاب الجنائز، باب 2: في عيادة الذمي، حديث رقم 3095؛ وأخرجه أحمد 3/175، رقم 12823.

ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هـذا النبـات من كل زوج بهيج بإذن الله عزّ وجلّ، كما قال تعـالى: {ألم تر أن الله أنزل من السـماء مـاءاً فتصـبح الأرض مخضـرَّة} [الحج: 63] ؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمـرات؛ ولـذلك قـال تعـالى: { رزقـاً لكم }..

.9 ومنهـا: أن الله عــزّ وجــلّ منعم على الإنســان كــافراً كــان، أو مؤمناً؛ لقوله تعالى: { لكم }، وهو يخاطب في الأول الناس عموماً؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا..

.10 ومنها: تحريم اتخـاذ الأنـداد للـه؛ لقوله تعـالى: { فلا تجعلـوا لله أنداداً }؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصـغر؛ وهل هي شـرك جلي، أو شرك خفي؛ هذا له تفصيل في علم التوحيـد؛ خلاصـته: إن اتخذ الأنداد في العبـادة، أو جعلها شـريكة لله في الخلـق، والملـك، والتـدبير فهو شـرك أكـبر؛ وإن كـان دون ذلك فهو شـرك أصـغر، كقول الرجل لصاحبه: "ما شاء الله وشئت"..

.11 . ومن فوائد الآية: أنه ينبغي لمن خـاطب أحـداً أن يـبين له ما تقـوم به عليه الحجـة؛ لقوله تعـالى: { فلا تجعلـوا لله أنـداداً وأنتم تعلمون }، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: {اعبدوا ربكم الـذي خلقكم والذين من قبلكم} [البقرة: 21] ؛ فـإن قوله تعـالى: {الـذي خلقكم والــــذين من قبلكم} [البقـــــرة: 21] فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده..

القـرآن

)وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:23)

التفسير:

.{ 23 } قوله تعالى: { وإن كنتم... }: الخطاب لمن جعل لله أنداداً؛ لأنه تعـالى قـال: (فلا تجعلـوا لله أنـداداً وأنتم تعلمـون * وإن كنتم في ريب)

وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد صلى الله عليه وسـلم إشـارة إلى كلمـتي التوحيـد؛ وهما شـهادة أن لا إله إلا اللـه، وأن محمداً رسـول اللـه؛ لكن شـهادة أن لا إله إلا اللـه: توحيد القصـد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن الأول توحيد القصد بـأن يكـون العمل خالصاً للـه؛ والثـاني توحيد المتابعة بـأن لا يتـابع في عبادته سوى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وإذا تـأملت القـرآن وجدت هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسـالة؛ ومن أمثلة ذلك قوله تعـالى: {أفلم يـدَّبروا القـول أم جـاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين} [المؤمنون: 68] ، ثم قال تعالى: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون} [المؤمنون: 69] ؛ وهذا مطَّرد في القرآن الكريم..

قوله تعـالى: { في ريب }: "الـريب" يفسـره كثـير من النـاس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشـك، لكنه يختلف عنه بـأن "الـريب" يُشـعر بقلق مع الشـك، وأن الإنسـان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصـــــديق بـه؛ بخلاف الشك في الأمـور الهينـة، فلا يقـال: "ريب"؛ وإنما يقـال في الأمـــور العظيمة الـــتي إذا شك فيها الإنســـان وجد في داخل نفسه قلقاً، واضطراباً..

قوله تعـالى: { مما نزَّلنا }: المـراد به القـرآن؛ لأن الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم { على عبدنا }: هو محمد رسول الله صـلى الله عليه وسـلم والله . تبـارك وتعـالى . وصف رسـوله صـلى الله عليه وسـلم بالعبودية في المقامـات العاليـة: في الـدفاع عنه؛ وفي بيان تكريمه بالمعراج، والإسراء؛ وفي بيان تكريمه بإنزال القـرآن، كما قـال تعـالى: {تبـارك الـذي نـزل الفرقـان على عبـده} [الفرقـان: 1] ، وقـال تعـالى: {سـبحان الـذي أسـرى بعبـده ليلاً} [الإسراء: 1] ، وقـال تعـالى: {فـأوحى إلى عبـده ما أوحى} [النجم: 10] ، وقال تعـالى: { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبـدنا }: هذا في مقام التحدي، والمدافعة؛ وأفضل أوصـاف الرسـول صـلى الله عليه وسلم هي العبودية، والرسالة؛ ولهذا قال صـلى الله عليه

وسلم "إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله، ورسـوله"[1] ؛ و "العبوديـة"ـ : هي التذلل للمحبوب، والمعظم؛ ولهذا قال الشاعر في محبوبته:.
لا تـدعني إلا بيا عبـدها فإنه أشـرف أسـمائي يعـني: لا تقـل: فلان، وفلان؛ بل قل: يا عبد فلانة؛ لأن هـذا عنـده أشـرف أوصـافه، حيث انتمى إليها . نعوذ بالله من الخذلان..
قوله تعالى: { فـأتوا بسـورة }: أمر يقصد به التحـدي . يعـني: إذا كنتم في شك من هـذا القـرآن فإننا نتحـداكم أن تـأتوا بسـورة واحدة؛ { من مثله }: يحتمل أن يكون الضـمير عائـداً إلى الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ؛ والمعـنى: من مثل محمد صـلى الله عليه وسـلم ويحتمل أن يكـون عائـداً إلى القـرآن المـنزل؛ والمعـنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا . أي من جنسه؛ وكلاهما صحيح..
قوله تعالى: { وادعوا شهداءكم } أي الذين تشـهدون لهم بالألوهيـة، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعـوهم ليسـاعدوكم في الإتيـان بمثلـه؛ وهذا غاية ما يكون من التحدي: أن يتحدى العابدَ والمعبودَ أن يـأتوا بسورة مثله.
قوله تعالى: { من دون الله } أي مما سوى اللـه؛ { إن كنتم صادقين } أي في أن هذا القرآن مفترًى على اللـه؛ والجـواب على هـذا: أنه لا يمكن أن يـأتوا بسـورة مثله مهما أتـوا من المعـاونين، والمساعدين..

[1] أخرجه البخاري ص281، كتاب أحاديث الأنبياء، باب 48: قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، حديث رقم 2445.

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: { فأتوا بسورة من مثله }؛ لأن الأمر هنا للتحدي؛ فالله عزّ وجلّ يتحدى هؤلاء بأن يأتوا بمعارضٍ لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم..

.2 ومنها: فضيلة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عزّ وجلّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزّ وجلّ . الذي هو مستحق للعبادة . عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم . رحمه الله . في النونية:.

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان .3 ومنها: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: { مما نزلنا }؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئاً بائناً منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق..

.4 ومنها: إثبات علوّ الله عزّ وجلّ؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوّ المتكلم به؛ وعلو الله عزّ وجلّ ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع..

.5 ومن فوائد الآية: أن القرآن معجز حتى بسورة . ولو كانت قصيرة؛ لقوله تعالى: { فأتوا بسورة من مثله)..

.6 ومنها: تحدي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشد ذلًّا مما لو تُحدوا وحدهم..

القـرآن

)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:24)

التفسير:

.{ 24 } قوله تعالى: { فإن لم تفعلوا } يعني فإن لم تأتوا بسورة من مثله..

ولما قال تعالى: { فإن لم تفعلوا } . وهي شرطية . قطع أطماعهم بقوله: { ولن تفعلوا } يعني: ولا يمكنكم أن تفعلوا؛ و{ لن } هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تحدٍّ..

قوله تعالى: { فاتقوا النار }: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط . وهو { إن لم تفعلوا } يعني: إن لم تفعلوا، وتعارضوا القرآن بمثله فالنار مثواكم؛ فاتقوا النار . ولن يجدوا ما يتقون به النار إلا أن يؤمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى: { التي وقودها الناس والحجارة }؛ { التي } اسم موصول صفة لـ{ النار }؛ و{ وقود } مبتدأ؛ و{ الناس } خبر

المبتدأ؛ والجملة: صلة الموصول؛ و "الوقود" ما يوقد به الشيء، كالحطب . مثلاً . في نار الدنيا؛ في الآخرة وقود النار هم الناس، والحجارة؛ فالنار تحرقهم، وتلتهب بهم؛ و{ الحجارة }: قال بعض العلماء: إن المراد بها الحجارة المعبودة . يعني الأصنام؛ لأنهم يعبدون الأصنام؛ فأصنامهم هذه تكون معهم في النار، كما قال تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: 98]؛ وقيل: هذا، وهذا . الحجارة المعبودة، والحجارة الموقودة التي خلقها عزّ وجلّ لتوقد بها النار..

قوله تعالى: { أعدت }: الضمير المستتر يعود على النار؛ والمعِدُّ لها هو الله عزّ وجلّ؛ ومعنى "الإعداد" التهيئة للشيء؛ { للكافرين } أي لكل كافر سواء كفر بالرسالة، أو كفر بالألوهية، أو بغير ذلك..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: (فاتقوا النار)

.2 ومنها: أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي أيضاً توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين..

.3 ومنها: إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار . على أحد الاحتمالين في قوله تعالى:
{ الحجارة }؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم..

.4 ومنها: أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: { أعدت }؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضاً؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم عُرضت عليه الجنة، والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن لحيّ الخزاعي يجر قصبه . أي أمعاءه . في النار؛ ورأى المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض؛ ورأى فيها صاحب المحجن . الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه . يعني: وهو رجل معه محجن . أي عصا محنية الرأس . كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب . والعياذ بالله . بمحجنه في نار جهنم[1] ..

مسألة:

هل النار باقية؛ أو تفنى؟ ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافاً عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب

---

[1] راجع مسلم ص819 – 820، كتاب الكسوف، باب 3: ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم 2100 [9] 904؛ وراجع مسلم ص1173، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب 13: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم 7192 [50] 2856.

الله عزّ وجلّ في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحــزاب، وســورة الجن؛ فأما الآية الــتي في النســاء فهي قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبـداً} [النسـاء: 168، 169] ؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: {إن الله لعن الكـافرين وأعد لهم سعيراً * خالـدين فيها أبـداً} [الأحـزاب: 64، 65] ؛ والـتي في ســورة الجن قوله تعــالى: { ومن يعص الله ورســوله فــإن له نــار جهنم خالـدين فيها أبـداً } [الجن: 23] ؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حـتى إني أذكر تعليقـاً لشـيخنا عبد الـرحمن بن سـعدي رحمه الله على كتاب "شـفاء العليـل" لابن القيم؛ ذكر أن هـذا من بـاب: "لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة" . وهو صـحيح؛ كيف إن المؤلف رحمه الله يسـتدل بهـذه الأدلة على القـول بفنـاء النـار مع أن الأمر فيها واضـح؟! غــريب على ابن القيم رحمه الله أنه يســوق الأدلة بهــذه القوة للقول بأن النـار تفـنى! وعلى كل حـال، كما قـال شـيخنا في هذه المسألة: "لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبـوة"؛ والصـواب الـذي لا شك فيه . وهو عنـدي مقطـوع به . أن النـار باقية أبد الآبـدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليداً أبدياً لـزم أن تكـون هي مؤبـدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبدياً لابد أن تكون الدار أيضاً أبدية..

وأما قوله تعـالى في أصـحاب النـار: {خالـدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شـاء ربـك} [هـود: 107] فهي كقوله تعـالى في أصحاب الجنة: {خالـدين فيها ما دامت السـموات والأرض إلا ما شـاء ربـك} [هـود: 108] لكن لما كـان أهل الجنة نعيمهم، وثـوابهم فضلاً ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطـع، فقـال تعـالى: {عطـاءً غـير مجـذوذ} [هـود: 108] ؛ ولما كـان عـذاب أهل النـار من بـاب العدل، والسلطان المطلق للرب عزّ وجلّ قال تعالى في آخر الآية: {إن ربك فعـال لما يريـد} [هـود: 107] ؛ وليس المعنى: {إن ربك فعال لما يريد} [هـود: 107] أنه سـوف يخرجه من النـار، أو سـوف يُفني النار..

.5 ومن فوائد الآيـة: أن النـار دار للكـافرين؛ لقوله تعـالى: { أعـدت للكافرين }؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمـنين فـإنهم لا يخلـدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يَخرجوا منها؛ فلا تسمى النار داراً لهم؛ بل هي دار للكـافر فقـط؛ أما المـؤمن العاصي . إذا لم يعف الله عنه . فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة..

مسألة:

إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟..

الجـواب: أنه معجز بجميع وجـوه الإعجـاز؛ لأنه كلام اللـه، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:.

أولاً: قوة الأسـلوب، وجمالـه؛ والبلاغـة، والفصـاحة؛ وعـدم الملل في قراءتـه؛ فالإنسـان يقـرأ القـرآن صـباحاً، ومسـاءً . وربما يختمه في اليـومين، والثلاثة . ولا يمله إطلاقـاً؛ لكن لو كـرر متنـاً من المتـون كما يكرر القرآن ملَّ..

ثانياً: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتـدبر ظهر له بـالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى..
ثالثـاً: صـدق أخبـاره بحيث يشـهد لها الواقـع؛ وكمـال أحكامه الـتي تتضـمن مصـالح الـدنيا، والآخـرة؛ لقوله تعـالى: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً } (الأنعام: 115)
رابعاً: تـأثيره على القلـوب، والمنـاهج؛ وآثـاره، حيث ملك به السـلف الصالح مشارق الأرض، ومغاربها..
وأما كيفية الإعجاز فهي تحـدي الجن، والإنس على أن يـأتوا بمثلـه، ولم يستطيعوا..
مسألة:.ثـانية:.
حكى الله عزّ وجلّ عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقـوالاً؛ وهذه الحكاية تحكي قـول من حُكيت عنـه؛ فهل يكـون قـول هـؤلاء معجزاً . يعني مثلاً: فرعـون قـال لموسـى: {لئن اتخـذت إلهـاً غـيري لأجعلنك من المسجونين} [الشعراء: 29] : هـذا يحكيه الله عـزّ وجـلّ عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعـون؛ فكيف كـان قـول فرعـون معجزاً والإعجاز إنما هو قول الله عزّ وجلّ؟
فـالجواب: أن الله تعـالى لم يحك كلامهم بلفظـه؛ بل معنـاه؛ فصـار المقروء في القرآن كلام الله عزّ وجلّ . وهو معجز..

القـرآن

)وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:25)

التفسير:

.{ 25 } مناسـبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكـافرين المكذبين للرسول صـلى الله عليه وسـلم ذكر وعد المؤمـنين بـه، فقال تعـالى: { وبشـر... } الآيـة؛ و "البشـارة" هي الإخبـار بما يسـر؛ وسميت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أخـبر بما يُسِـرُّه اسـتنار وجهـه، وطـابت نفسـه، وانشـرح صـدره؛ وقد تستعمل "البشارة" في الإخبـار بما يسـوء، كقوله تعـالى: { فبشـرهم بعـذاب أليم } [آل عمـران: 21] : إمَّا تهكمـاً بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبـار بهـذا ما تتغـير به بشـرتهم، وتَسـودَّ به وجـوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: {ثم صبوا فـوق رأسه من عـــذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكـــريم} [الـــدخان: 48، 49] ..
والخطاب في قوله تعالى: { بشِّـر } إما للرسـول صـلى الله عليه وسلم؛ أو لكلِ من يتوجه إليه الخطاب . يعني بشِّر أيها النبي؛ أو بشِّر أيها المخاطَب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات..

قوله تعالى: { الذين آمنوا } أي بما يجب الإيمـان به مما أخـبر الله بـه، ورسـوله؛ وقد بيَّن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم أصـول الإيمان بأنها الإيمـان باللـه، وملائكتـه، وكتبه، ورسـله، واليـوم الآخـر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصـديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان..

قوله تعـالى: { وعملـوا الصـالحات } أي عملـوا الأعمـال الصـالحات . وهي الصـادرة عن محبـة، وتعظيم لله عـزّ وجـلّ المتضـمنة للإخلاص للـه، والمتابعة لرسـول اللـه؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسـد؛ لقـول الله تعـالى في الحـديث القدسـي: "أنا أغـنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشـرك فيه معي غـيري تركته وشـركه"[1] ؛ وما لم يكن على الاتِّبـاع فهو مـردود لا يقبـل؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم (: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد[2]" ..

قوله تعالى: { أن لهم جنـات }: هـذا المبشر بـه: أن لهم عند الله عـزّ وجـلّ { جنـات... }: جمع "جنَّة"؛ وهي في اللغـة: البسـتان كثير الأشـجار بحيث تغطي الأشجار أرضـه، فتجتن بهـا؛ والمـراد بها شرعاً: الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

قوله تعالى: { تجري من تحتها الأنهار } أي تسيح من تحتها الأنهـار؛ و{ الأنهـار } فاعل { تجـري }؛ و{ من تحتها } قـال العلمـاء: من تحت أشجارها، وقصورها؛ وليس من تحت سـطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وما أحسن جري هذه الأنهـار إذا كـانت من تحت الأشجار، والقصور! يجد الإنسان فيها لـذة في المنظر قبل أن يتناولها..

وقد بيّن الله تعـالى أنها أربعة أنـواع، كما قـال تعـالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهـار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصـفًّى} (محمد: 15) .

قوله تعـالى: { كلما رزقـوا } أي أعطـوا؛ { منهـا} أي من الجنات؛ {من ثمرة} أي من أيّ ثمرة؛ { قالوا هـذا الـذي رزقنا من قبل } لأنه يشبه ما سبقه في حجمه، ولونـه، وملمسـه، وغـير ذلك من صـفاته؛ فيظنـون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافاً عظيمـاً؛ ولهـذا قـال تعـالى: { وأتـوا به متشـابهاً }؛ وما أجمل وألـذّ للإنسـان إذا رأى هـذه الفاكهة يراها وكأنها شـيء واحد؛ فإذا ذاقها وإذا الطعم يختلف اختلافـاً عظيمـاً! تجـده يجد في نفسه حركةً لهذا الفاكهـة، ولـذةً، وتعجبـاً؛ كيف يكـون هـذا الاختلاف المتبـاين العظيم والشـكل واحـد! ولهـذا لو قُـدم لك فاكهة ألوانها سواء، وأحجامها سواء، وملمسها سـواء، ثم إذا ذقتها وإذا هـذه حلو

---

[1] أخرجه مسلم ص1195، كتاب الزهد، باب 4: تحريم الرياء، حديث رقم 7475 [46] 2985.

[2] أخرجه البخاري ص214، كتاب الصلح، باب 5: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم 2697؛ وأخرجه مسلم ص982 – 983، كتاب الأقضية، باب 8: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم 4493 [18] 1718، واللفظ لمسلم.

خالص، وهذه مُز . أي حلو مقرون بالحموضة . وهذه حامضة؛ تجد لذة أكثر مما لو كانت على حد سواء، أو كانت مختلفة..
قوله تعالى: { وأتوا به متشابهاً }؛ { أتوا } من "أتى" التي بمعنى جاء؛ فالمعنى: جيء إليهم به متشابهاً يشبه بعضه بعضاً . كما سبق..
قوله تعالى: { ولهم فيها أزواج }؛ لما ذكر الله الفاكهة ذكر الأزواج؛ لأن في كل منهما تفكهاً، لكن كل واحد من نوع غير الآخر: هذا تفكه في المذاق، والمطعم؛ وهذا تفكه آخر من نوع ثان؛ لأن بذلك يتم النعيم؛ و{ أزواج } جمع زوج؛ وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق "الزوج" على الذكر، والأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: "زوج"، وللمرأة: "زوج"؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقاً بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث..
قوله تعالى: { مطهرة } يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضاً من الأقذار الباطنة، كالغل، والحقد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك..
قوله تعالى: { هم فيها خالدون } أي ماكثون لا يخرجون منها..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات}؛ ولقول الله تبارك وتعالى: {وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين} [الصافات: 112]ـ ، وقوله تعالى: {وبشروه بغلام عليم} [الذاريات: 28]ـ ، وقوله تعالى: {فبشرناه بغلام حليم} [الصافات: 101] ؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين . عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّاك الله بهذا الشهر؟ الجواب: نعم؛ وكذلك أيضاً لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف..
2. ومن فوائد الآية: أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح..

فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟
فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحياناً يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب..

3. ومنها: أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا، وعملوا فالعمر محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبداً؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضاً الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد

يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل..
4. ومنها: أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: { جنات }؛ وقد دل على ذلك القرآن، والسنة؛ فقال الله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: 46]ـ ، ثم قال تعالى: {ومن دونهما جنتان} [الرحمن: 62] ؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما؛ وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما[1]" ..
5. ومنها: تمام قدرة الله عزّ وجلّ بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر[2] أنها أنهار تجري من غير أخدود . يعني لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء . يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رحمه الله في النونية:.
أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان 6 . ومن فوائد الآية: أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهاً؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون..
7. ومنها: إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولداً؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الوِلدان تطوف عليهم بأكواب، وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: {وجنى الجنتين دان} [الرحمن: 54]ـ ، وقال تعالى: {قطوفها دانية} [الحاقة: 23]ـ ؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ، وأبلغ..
8. ومن فوائد الآية: أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة..

القـرآن

[1] أخرجه البخاري ص417، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب 1: قوله: (ومن دونهما جنتان..)، حديث رقم 4878؛ وأخرجه مسلم ص709، كتاب الإيمان، باب 80: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم 448 [296] 180.
[2] أخرج الطبري هذا الأثر في تفسيره عن مسروق 1/384، رقم 509ن 510، 511؛ ورجاله ثقات.

)إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة:26)

التفسير:

.{ 26 } قوله تعالى: { إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما } أي لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلاً ولو كان مثلاً حقيراً ما دام يثبت به الحق؛ فالعبرة بالغاية؛ و{ ما } يقولون: إنها نكرة واصفة . أي: مثلاً أيَّ مثل..

قوله تعالى: { بعوضة }: عطف بيان لـ{ ما } أي: مثلاً بعوضة؛ والبعوضة معروفة؛ ويضرب بها المثل في الحقارة؛ وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين اعترضوا: كيف يضرب الله المثل بالذباب في قوله تبارك وتعالى: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له} [الحج: 73] : قالوا: الذباب يذكره الله في مقام المحاجة! فبيَّن الله عزّ وجلّ أنه لا يستحيي من الحق حتى وإن ضرب المثل بالبعوضة، فما فوقها..

قوله تعالى: { فما فوقها }: هل المراد بما فوق . أي فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ الجواب: الذباب أكبر، وأقوى . لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية: { فما فوقها } أي فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى، وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً} [الكهف: 79] أي كان أمامهم..

قوله تعالى: { فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه } أي المثل الذي ضربه الله { الحق من ربهم }، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات..

قوله تعالى: { وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً } لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه، وقد قال الله تعالى: {إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} (المطففين: 13، 14)..

وقوله تعالى: { ماذا }: "ما" هنا اسم استفهام مبتدأ؛ و "ذا" اسم موصول بمعنى "الذي" خبر المبتدأ . أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلاً، كما قال ابن مالك:.

ومثل ما ذا بعد ما استفهام أو مَن إذا لم تلغ في الكلام

قوله تعالى: { يضل به كثيراً }: الجملة استئنافية لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: { ماذا أراد الله بهذا مثلاً }؛ و{ يضل به } أي بالمثل؛ { كثيراً }

أي من الناس؛ { ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين } أي الخارجين عن طاعة الله؛ والمراد هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك وتعالى: { وأما الذين فسقوا فمأواهم النار } [السجدة: 20] : المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك هنا..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما).

ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحاً في السنة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ربكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفراً"[1] ؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله..

.2 ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً} [العنكبوت: 41]ـ ؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت} [العنكبوت: 41] ؛ وقال تعالى: {والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه} [الرعد: 14]ـ : إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل..

.3 ومن فوائد الآية: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: { بعوضة فما فوقها }؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة..

.4 ومنها: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم..

.5 ومنها: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس..

.6 ومنها: فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزّ وجلّ بعقله؛ لقوله تعالى: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِم؟، ولا: كيف؟؛

---

[1] أخرجه أبو داود ص1333، كتاب الوتر، باب 23: الدعاء، حديث رقم 1488؛ وأخرجه الترمذي ص 2018، كتاب الدعوات، باب 104: "إن الله حيي كريم..."، حديث رقم 3556؛ وأخرجه ابن ماجة 2707، كتاب الدعاء، باب 13: رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم 3865؛ وأخرجه عبد الرزاق 2/251، باب رفع اليدين في الصلاة، حديث رقم 3250، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح [1/409، حديث رقم 1488].

يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزّ وجلّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر..
.7 ومنها: إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: { من ربهم }؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون} [الأعراف: 121، 122] : فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى، وهارون؛ كما أن مقابل ذلك "العبودية" تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً} [مريم: 93] ؛ وخاصة كما في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} [الفرقان: 1] ؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة..
.8ومن فوائد الآية: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: { وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا }؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟
فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزّ وجلّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجلّ . إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به..
.9 ومن فوائد الآية: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: { يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً }؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون، والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: { كثيراً } لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن "كثير" يطلق على القليل، وعلى الأكثر..
.10 ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: { وما يضل به إلا الفاسقين }؛ وهذا كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} (الصف: 5) ..
.11 ومنها: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله . لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: (وما يضل به إلا الفاسقين)..

القـرآن

)الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة:27)

التفسير:

.{ 27 } قوله تعالى: { الذين ينقضـون عهد الله من بعد ميثاقه } أي العهد الذي بينهم وبين الله عزّ وجلّ؛ وهو الإيمان بـه، وبرسـله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآية فإن الـواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضـوا عهد اللـه، ولم يؤمنـوا بـه، وبرسـله؛ والنقض حَـلّ الشـيء بعد إبرامـه؛ وقد بين الله عـزّ وجلّ هذا العهد في قوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسـناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل} [المائدة: 12] ..

قوله تعـــالى: { ويقطعــــون ما أمر الله به أن يوصل } أي يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصـل، كالأرحـام، ونصـرة الرسـل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق..

قوله تعـالى: { ويفسـدون في الأرض } أي يسـعون لما به فسـاد الأرض فسـاداً معنويـاً كالمعاصـي؛ وفسـاداً حسـياً كتخـريب الـديار، وقتل الأنفس..

قوله تعـالى: { أولئك هم الخاسـرون }: جملة اسـمية مؤكَّدة بضمير الفصل: { هم }؛ لأن ضـمير الفصل له ثلاث فوائـد؛ الفائـدة الأولى: التوكيد؛ والفائدة الثانية : الحصر؛ والفائدة الثالثة: إزالة اللبس بين الصفة، والخبر؛ مثال ذلك: تقول: "زيد الفاضل": كلمة "الفاضـل" يحتمل أن تكـون خـبراً؛ ويحتمل أن تكـون وصـفاً، فتقـول: "زيد الفاضل محبـوب"؛ إذا قلت: "زيد الفاضل محبـوب" تعين أن تكـون صـفة؛ وإذا قلت: "زيد الفاضـل" يحتمل أن تكـون صـفة، والخـبر لم يأت بعد؛ ويحتمل أن تكون خبراً؛ فإذا قلت: "زيد هو الفاضـل" تعين أن تكون خبراً لوجـود ضـمير الفصـل؛ ولهـذا سُـمي ضـمير فصل . لفصـله بين الوصف والخـبر؛ الفائـدة الثانيـة: التوكيد ؛ إذا قلت: "زيد هو الفاضل" كـان أبلغ من قولـك: "زيد الفاضـل"؛ و الفائـدة الثالثـة: الحصر ؛ فإنك إذا قلت: "زيد هو الفاضل" فقد حصرت هـذا الوصف فيه دون غيره؛ وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، كما في قوله تعـالى: {لعلنا نتبع السـحرة إن كـانوا هم الغـالبين} [الشـعراء: 40] ؛ ولو كان له محل من الإعراب لكانت: "هم الغـالبون"؛ وربما يضاف إليه اللام، كما في قوله تعالى: {إن هذا لهو القصص الحق} [آل عمران: 62] ؛ فيكون في إضافة اللام إليه زيادة توكيد..

وقوله تعالى: { الخاسرون }؛ "الخاسر" هو الذي فاته الـربح؛ وذلـك؛ لأن هؤلاء فاتهم الـربح الـذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيــة: أن نقض عهد الله من الفســق؛ لقوله تعــالى: { الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه } فكلما رأيت شخصاً قد فــرط في واجب، أو فعل محرمــاً فــإن هــذا نقض للعهد من بعد الميثاق..

.2 ومنهــا: التحــذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقــه؛ لأن ذلك يكون سبباً للفسق..

.3 ومنها: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحـام . أي الأقــارب . وغــيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقــام الــذم؛ وقطع الأرحـام من كبـائر الـذنوب؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم لا يدخل الجنة قاطع"[1]، يعني قاطع رحم..

.4 ومنها: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قــال تعــالى: {ظهر الفســاد في الــبر والبحر بما كســبت أيــدي النــاس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الـروم: 41] ؛ ولهـذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سـبحانه وتعـالى، وتـابوا إليـه، أغـاثهم الله عزّ وجلّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: {فقلت اسـتغفروا ربكم إنه كـان غفـاراً * يرسل السـماء عليكم مـدراراً * ويمـددكم بـأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لهم أنهاراً} [نوح: 10 . 12] ..

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بــأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيــراد أوردته أم المؤمـنين زينب رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم حيث قـال: "ويل للعـرب من شر قد اقـترب" ؛ قـالت: أنهلك وفينا الصـالحون؟! قـال صـلى الله عليه وسلم: "نعم، إذا كثر الخبث"[2] ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم "إذا كثر الخبث" يشمل معنيين:.

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة النــاس على هذا الوصف..

و الثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلـة، لكن لا تقـوم الفئة الصـالحة بإنكـاره؛ فمثلاً إذا كـثر الكفـار في أرض كـان ذلك سـبباً للشـر، والبلاء؛ لأن الكفـار نجس؛ فكـثرتهم كـثرة خبث؛ وإذا كـثرت أفعـال المعاصي كـان ذلك سـبباً أيضـاً للشــر، والبلاء؛ لأن المعاصي خبث..

.5ومن فوائد الآية: أن هـؤلاء الـذين اعترضـوا على الله فيما ضـرب من الأمثــال، ونقضــوا عهــده، وقطعــوا ما أمر الله به أن يوصــل، وأفســدوا في الأرض هم الخاســرون . وإن ظنــوا أنهم يحســنون صنعاً..

---

[1] أخرجه البخاري ص507، كتاب الأدب، باب 11: إثم القاطع، حديث رقم 5984؛ وأخرجه مسلم ص 1126، كتاب البر والصلة، باب 6: صلة الرحمن وتحريم قطيعتها، حديث رقم 6520 [18] 2556.

[2] أخرجه البخاري ص271، كتاب أحاديث الأنبياء، باب 7: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم 3346؛ وأخرجه مسلم ص1176 – 1177، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب 1: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم 7235 [1] 2880.

القـرآن

)كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة: 28)

التفسير:

.{ 28 } قوله تعالى: { كيف تكفرون بالله... }: الاستفهام هنا للإنكار، والتعجيب؛ والكفر بالله هو الإنكـــار، والتكـــذيب مـــأخوذ من: كَفَر الشيء: إذا سـتره؛ ومنه الكُفُرّى: لغلاف طلع النخـل؛ والمعـنى: كيف تجحدونه، وتكذبون به، وتسـتكبرون عن عبادتـه، وتنكـرون البعث مع أنكم تعلمون نشأتكم؟!..

قوله تعـالى: { وكنتم أمواتـاً }: وذلـك: قبل نفخ الـروح في الإنسـان هو ميت؛ جماد؛ { فأحياكم } أي بنفخ الـروح؛ { ثم يميتكم } ثانيـة؛ وذلك بعد أن يخرج إلى الدنيا؛ { ثم يحييكم } الحياة الآخرة التي لا موت بعدها؛ { ثم إليه ترجعـون }: بعد الإحيـاء الثـاني ترجعـون إلى الله، فينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: شـدة الإنكـار حـتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله، ومآله..

.2 ومنهـا: أن المـوت يطلق على ما لا روح فيه . وإن لم تسـبقه حياة .؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعـالى: { كنتم أمواتاً فأحياكم }؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقـال: "ميت" إلا لمن سبقت حياته؛ فهـذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعـالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: {أمـوات غـير أحياء} [النحل: 21] ..

.3 ومنها: أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الـروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهـذا لا يُغَسَّـل، ولا يكفن، ولا يصـلي عليـه، ولا يـرث، ولا يـورث؛ لأنه ميت جمـاد لا يسـتحق شـيئاً مما يسـتحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيّ مكان في المقبرة، أو غيرها..

.4 ومنها: تمام قـدرة الله عـزّ وجـلّ؛ فـإن هـذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الـروح، فيحـيى، ويكـون إنسـاناً يتحـرك، ويتكلم، ويقـوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عزّ وجلّ..

.5 ومنها: إثبات البعث؛ لقوله تعـالى: { ثم يحـييكم ثم إليه ترجعـون }؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، واستبعده، وقال: {من يحيي العظام وهي رميم} [يس: 78] ؛ فأقام الله . تبـارك وتعـالى . على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة "يس":.

الدليل الأول: قوله تعالى: {قل يحييها الذي أنشـأها أول مـرة} [يس: 79] : هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظـام وهي رميم؛ وقوله تعـالى: {أنشـأها أول مـرة} دليل قـاطع، وبرهـان جليّ على إمكـان إعادته كما قـال الله تعـالى: {وهو الـذي يبـدأ الخلق ثم يعيـده وهو أهون عليه} [الروم: 27] ..

الـدليل الثـاني: قوله تعـالى: {وهو بكل خلق عليم} [يس: 79] يعـني: كيف يعجز عن إعادتها وهو ســبحانه وتعــالى بكل خلق عليم: يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق..
الدليل الثالث: قوله تعالى: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نـاراً فـإذا أنتم منه توقـدون } [يس: 80] : الشـجر الأخضر فيه الـبرودة، وفيه الرطوبـة؛ والنـار فيها الحـرارة، واليبوسـة؛ هـذه النـار الحـارة اليابسة تخـرج من شـجر بـارد رطب؛ وكـان النـاس فيما سـبق يضربون أغصاناً من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: {فـإذا أنتم منه توقدون} [يس: 80] تحقيقاً لذلك..
ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشـجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم..
الـدليل الرابـع: قوله تعـالى: {أو ليس الـذي خلق السـموات والأرض بقادر على أن يخلقْ مثلهم بلى} (يس: 81)
ووجه الدلالــة: أن خلْق الســموات والأرض أكــبر من خلق النــاس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه..
الدليل الخـامس: قوله تعـالى: {وهو الخلّاق العليم} [يس: 81] ؛ فــ {الخلاق } صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلّاقاً، ووصفه الـدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم..
الدليل السادس: قوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شـيئاً أن يقـول له كن فيكون} [يس: 82] : إذا أراد شيئاً مهما كـان؛ و {شـيئاً} : نكـرة في سياق الشرط، فتكـون للعمـوم؛ {أمـره} أي شـأنه في ذلك أن يقـول له كن فيكـون؛ أو {أمـره} الـذي هو واحد "أوامـر"؛ ويكـون المعنى: إنما أمره أن يقول: "كن"، فيعيده مرة أخرى..
ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده..
الـدليل السـابع: قوله تعـالى: {فسـبحان الـذي بيـده ملكـوت كل شـيء} : كل شـيء فهو مملـوك لله عـزّ وجـلّ: الموجـود يعدمـه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء..
ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم
الدليل الثامن: قوله تعالى: (وإليه ترجعون)..
ووجه الدلالــة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هــذه الخليقــة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكـافر، ثم يكـون الأمر هكـذا يـذهب سـدًى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي..
فهــذه ثمانية أدلة على قــدرة الله على إحيــاء العظــام وهي رميم جمعها الله عــزّ وجــلّ في موضع واحــد؛ وهنــاك أدلة أخــرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة..
.6ومن فوائد الآية: أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عزّ وجلّ..

القـرآن

)هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة:29)

التفسير:

لما ذكر جلّ وعلا أنه قادر على الإحياء والإماتة، بيَّن منَّته على العباد بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً

.{ 29 } قوله تعالى: { هو الذي خلق لكم } أي أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلّ وعلا، وعلمه؛ و{ لكم }: اللام هنا لها معنيان؛ المعنى الأول: الإباحة، كما تقول: "أبحت لك"؛ والمعنى الثاني: التعليل: أي خلق لأجلكم..

قوله تعالى: { ما في الأرض جميعاً }؛ { ما } اسم موصول تعُمّ: كل ما في الأرض فهو مخلوق لنا من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال... كل شيء..

قوله تعالى: { ثم } أي بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعاً { استوى إلى السماء } أي علا إلى السماء؛ هذا ما فسرها به ابن جرير . رحمه الله؛ وقيل: أي قصد إليها؛ وهذا ما اختاره ابن كثير . رحمه الله؛ فللعلماء في تفسير { استوى إلى } قولان: الأول: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تاماً قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدل على الكمال، كما قال تعالى: {ولما بلغ أشده واستوى} [القصص: 14] أي كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل عُدّي بـ { إلى } قال: إن { استوى } هنا ضُمِّن معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علوّ جعل { إلى } بمعنى "على"؛ لكن هذا ضعيف؛ لأن الله تعالى لم يستوِ على السماء أبداً؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله وهو أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة الجازمة؛ و{ السماء } أي العلوّ؛ وكانت السماء دخاناً . أي مثل الدخان؛

{ فسواهن سبع سموات } أي جعلها سوية طباقاً غير متناثرة قوية متينة..

قوله تعالى: { وهو بكل شيء عليم }؛ ومن علمه عزّ وجلّ أنه علم كيف يخلق هذه السماء..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: منّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعاً؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا . والحمد لله . والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك..

.2 ومنها: أن الأصل في كل ما في الأرض الحلّ . من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناءً على هذا لو أن إنساناً أكل شيئاً من الأشجار، فقال له بعض الناس: "هذا حرام"؛ فالمحرِّم يطالَب بالدليل؛ ولو أن إنساناً وجد طائراً

يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكلـه، فقـال له الآخـر: "هـذا حـرام"؛ فـالمحرِّم يطـالب بالـدليل؛ ولهـذا لا يَحْـرم شـيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل..
.3 ومن فوائد الآية: تأكيد هـذا العمـوم بقوله تعـالى: { جميعـاً } مع أن { ما } موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حـتى لا يتوهم واهم بأن شيئاً من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل..
.4 ومنها: إثبات الأفعال لله عزّ وجلّ . أي أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: { ثم استوى إلى السماء }: و{ استوى } فعل؛ فهو جلّ وعلا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلا الله..
.5 ومنها: أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: (سبع سموات)
.6 ومنها: كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: (فسواهن)..
.7ومنها: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: (وهو بكل شـيء عليم)
.8ومنها: أن نشـكر الله على هـذه النعمة . وهي أنه تعـالى خلق لنا ما في الأرض جميعــاً؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجــرد الخــبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها..
.9 ومنها: أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فـإذا كان الله عليماً بكل شيء . حتى ما نخفي في صـدورنا . أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزّ وجلّ سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا..

القـرآن

)وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:30)

التفسير:

.{ 30 } قوله تعـالى: { وإذ قـال ربك }: قـال المعربـون: { إذ } مفعول لفعل محـذوف؛ والتقـدير: اذكر إذ قـال؛ والخطـاب في قوله تعالى: { ربك } للنبي صـلى الله عليه وسـلم؛ ولما كـان الخطـاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة..
قوله تعـالى: { للملائكة }: اللام للتعدية . أي تعدية القــول للمقــول لــه؛ و "الملائكــة" جمع "مَلْئَك"، وأصــله "مألــك"؛ لأنه مشــتق من الألوكة . وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل . أي نقل حرف مكـان حـرف آخـر؛ مثل أشـياء أصـلها: "شـيئاء"؛ و "الملائكـة" عـالم غيــبي خلقهم الله تعــالى من نــور، وجعل لهم وظــائف، وأعمــالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيـل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بـني أدم كملك المـوت... إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال..
قوله تعالى: { إني جاعل في الأرض خليفة }؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضاً يتناسلون . على أقوال:.

أما الأول: فيحتمل أن الله أراد من هـــذه الخليقة . آدم، وبنيه . أن يجعل منهم الخلفـاء يخلفـون الله تعـالى في عبـاده بـإبلاغ شـريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعـالى . وحاشـاه من ذلـك، ولا عن عجـز؛ ولكنه يمنّ على من يشـاء من عبـــاده، كما قـــال تعـــالى: {يا داوود إنا جعلنـــاك خليفة في الأرض فـاحكم بين النـاس} [ص: 26] : هو خليفة يخلف الله عـزّ وجـلّ في الحكم بين عباده..

والثـاني: أنهم يخلفـون من سـبقهم؛ لأن الأرض كـانت معمـورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون { خليفة } هنا بمعنى الفاعـل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول..

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضاً؛ بمعنى: أنهم يتناسـلون: هـذا يمـوت، وهـذا يحـيى؛ وعلى هـذا التفسـير تكـون { خليفة } صـالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول..

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقـع؛ لكن قـول الملائكـة: { أتجعل فيها من يفسد فيها ويســـفك الـــدماء } يـــرجح أنهم خليفة لمن سـبقهم، وأنه كـان على الأرض مخلوقـات قبل ذلك تسـفك الـدماء، وتفسد فيهـــا، فســـألت الملائكة ربها عـــزّ وجـــلّ: { أتجعل فيها من يفسد فيها ويســـفك الـــدماء } كما فعل من قبلهم . واســـتفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قـال تعـالى: { إني أعلم ما لا تعلمون } يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت..

قوله تعالى: { ونحن نسـبح } أي نُنَـزِّه؛ والـذي يُنَـزَّه الله عنه شيئان؛ أولاً: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثـاً إن شـئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه؛ النقص: مطلقـاً؛ يعـني أن كل صـفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبـداً . لا وصـفاً دائمـاً، ولا خـبراً؛ والنقص في كمالـه: فلا يمكن أن يكـون في كماله نقص؛ قدرتـه: لا يمكن أن يعتريها عجـز؛ قوتـه: لا يمكن أن يعتريها ضـعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان... وهلم جراً؛ ولهذا قـال عـزّ وجـلّ: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في سـتة أيـام وما مسـنا من لغوب} [ق: 38] أي تعب، وإعياء؛ فهو عـزّ وجـلّ كامل الصـفات لا يمكن أن يعـتري كماله نقص؛ ومماثلة المخلـوقين: هـذه إن شـئنا أفردناها بالـذكر؛ لأن الله تعـالى أفردها بالـذكر، فقـال: {ليس كمثله شــيء} [الشــورى: 11] . وقــال تعــالى: {وله المثل الأعلى} ، وقــال تعالى: { فلا تضربوا لله الأمثال } [النحـل: 74] ؛ وإن شـئنا جعلناها داخلة في القسم الأول . النقص . لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعـني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصـاً، كما قال القائل:.

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تـبين أن السـيف هـذا رديء، وليس بشــيء؛ فربما نفــرد هـذا القسم الثـالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حـال التسـبيح ينبغي لنا . عنـدما نقــول: "ســبحان اللــه"، أو: "أســبح اللــه"، أو ما أشــبه ذلك . أن نستحضر هذه المعاني..

قوله تعالى: و{ بحمدك }: قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة . أي تسبيحاً مصحوباً بالحمد مقروناً به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة، وتعظيماً؛ فإن وصفتَ مرة أخرى بكمال فسَمِّه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: "قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذ قال: {الحمد لله رب العالمين} قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: {الرحمن الرحيم} قال تعالى: أثنى عليّ عبدي" ؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يَرِد الكمال على محل خالٍ من النقص..

قوله تعالى: { ونقدس }: "التقديس" معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على "التنْزيه"؛ لأن "التنزيه" تبرئة، وتخلية؛ و"التطهير" أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبَرد" : فالأول: طلبُ المباعدة؛ والثاني: طلب التنقية . يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنْزيه الله عزّ وجلّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره . أنه لا أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص..

قوله تعالى: { لك } اللام هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضاً للاستحقاق؛ لأن الله . جلّ وعلا . أهل لأن يقدس..

أجابهم الله تعالى: { قال إني أعلم ما لا تعلمون } أي من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ يؤخذ كونه بحرف من قوله تعالى: { إني جاعل في الأرض خليفة }؛ لأن هذه حروف؛ ويؤخذ كونه بصوت من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ وإثبات القول لله على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عزّ وجلّ متكلماً بما شاء كوناً، وشرعاً؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة { كن }؛ لقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} [يس: 82] ؛ وكل الكون مراد له قدراً؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه..

.2 ومن فوائد الآية: أن الملائكة ذوو عقول؛ وجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه؛ وإنما نبَّهْنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء..

.3 ومنها: إثبات الأفعال لله عـزّ وجـلّ أي أنه تعـالى يفعل ما شـاء متى شاء كيف شـاء؛ ومن أهل البـدع من ينكر ذلك زعمـاً منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يسـتوي على العرش، ولا ينْزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:.

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كـــان في مقابلة نص فهو مـــردود على صاحبه..

الثاني: أنها دعوى غير مسلَّمة؛ فإن الحوادث قد تقـوم بـالأول الـذي ليس قبله شيء..

الثالث: أن كونه تعالى فعالاً لما يريد من كماله، وتمام صـفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكـون غـير عـالم، ولا مريـد؛ وإما أن يكــون عاجزاً؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى..

فتَعَجَّبْ كيف أتي هــؤلاء من حيث ظنــوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافيـــة، واســأله أن يعــافي هــؤلاء مما ابتلاهم به من ســفه في العقــول، وتحريف للمنقول..

.4 ومن فوائد الآيــة: أن بــني آدم يخلف بعضـهم بعضـاً . على أحد الأقـوال في معـنى { خليفة }؛ وهـذا هو الواقـع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عـزّ وجـلّ؛ لأن النــــــاس لو من وُلِد بقي لضــــــاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة..

.5 ومنها: قيـام الملائكة بعبـادة الله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)

.6 ومنهـا: كراهة الملائكة للإفسـاد في الأرض؛ لقـولهم: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)

.7 ومنهـا: أن وصف الإنسـان نفسه بما فيه من الخـير لا بـأس به إذا كان المقصود مجـرد الخـبر دون الفخـر؛ لقـولهم: { ونحن نسـبح بحمـدك ونقـدس لك }؛ ويؤيد ذلك قــول النــبي صــلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"[1] ؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: { فلا تزكـوا أنفسـكم هو أعلم بمن اتقى } [النجم: 32] ..

.8 ومنهـا: شـدة تعظيم الملائكة لله عـزّ وجـلّ، حيث قـالوا: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)

---

[1] أخرجه أحمد 3/2، حديث رقم 11000؛ وأخرجه الترمذي ص1970، كتاب تفسير القرآن، باب 17: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم 3148؛ وأخرجه ابن ماجة ص2739، كتاب الزهد، باب 37: ذكر الشفاعة، حديث رقم 4308؛ ومدار الحديث على عليّ بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه 1/39، حديث رقم 47؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة 2/355 – 356، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد 2/356، وقال في صحيح الترمذي: صحيح 3/71، حديث رقم 2516 – 3369.

القـرآن

)وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ) (البقرة:31)

)قَـالُوا سُـبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (البقرة:32)

التفسير:

.{ 31 } قوله تعـالى: { وعلم آدم }: الفاعل هو الله عـزّ وجـلّ؛ و{ آدم } هو أبو البشـر؛ و{ الأسـماء } جمع "اسـم"؛ و "أل" فيها للعمـوم بـدليل قوله تعـالى: { كلها }؛ وهل هـذه الأسـماء أسـماء لمسـميات حاضـرة؛ أو لكل الأسـماء؟ للعلمـاء في ذلك قـولان؛ والأظهر أنها أسـماء لمسـميات حاضـرة بـدليل قوله تعـالى: { ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء }؛ وهذه الأسـماء . والله أعلم . ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت..

قوله تعالى: { ثم عرضهم } أي عرض المسميات؛ بدليل قوله تعـالى: { أنـبئوني بأسـماء هـؤلاء }، ولأن الميم علامة جمع العاقـل؛ فلم تعلم الملائكة أسـماء تلك المسـميات؛ بل كـان جـوابهم: { سـبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا }، ثم قـال تعـالى: { يا آدم أنـبئهم بأسـمائهم }: وأراد عـزّ وجـلّ بـذلك أن يعـرف الملائكة أنهم ليسوا محيطين بكل شيء علمـاً، وأنهم يفـوتهم أشـياء يفضـلهم آدم فيها..

قوله تعالى: { أنبئوني }: هل هو فعل أمر يراد به قيام المأمور بما وُجّه إليه، أو هو تَحَدٍّ؟

الجـواب: الظـاهر الثـاني: أنه تحـدٍّ؛ بـدليل قوله تعـالى: { إن كنتم صـادقين } أن لـديكم علمـاً بالأشـياء فـأنبئوني بأسـماء هـؤلاء؛ لأن الملائكة قـالت فيما سـبق: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك} [البقرة: 30] ، فقال تعالى: { إني أعلم ما لا تعلمون }، ثم امتحنهم الله بهذا..

.{ 32 } قوله تعـالى: { سـبحانك } أي تنزيهـاً لك عما لا يليق بجلالك؛ فأنت يا ربنا لم تفعل هذا إلا لحكمة بالغة..

قوله تعالى: { لا علم لنا إلا ما علمتنا }: اعتراف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبـون إلى الله عزّ وجلّ..

قوله تعـالى: { إنك أنت العليم الحكيم }: هـذه الجملة مؤكـدة بـ "إن" ، وضـمير الفصـل: { أنت }؛ والمعـنى: إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضـر، والمسـتقبل؛ و{ الحكيم } يعـني ذا الحكمـة، والحكم؛ لأن الحكيم مشـتقة من الحكم، والحكمـة؛ فهذان اسمان من أسماء الله عزّ وجلّ: { العليم }، و(الحكيم)

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: بيان أن الله تعالى قد يمنّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك..
.2 ومنها: أن اللغات توقيفية . وليست تجريبية؛ "توقيفية" بمعنى أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناسَ إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها "تجريبية" بمعنى أن الناس كوَّنوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولاً أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه ذلك؛ فاتخذ مما يسمع أصواتاً تدل على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء..
.3 ومن فوائد الآيتين: جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مُجيد فيه..
.4 ومنها: جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: { أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين..
.5 ومنها: أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)..
.6 ومنها: اعتراف الملائكة . عليهم الصلاة والسلام . بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عزّ وجلّ..
ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدَّعي علم ما لم يعلم..
.7 ومنها: شدة تعظيم الملائكة لله عزّ وجلّ، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: {سبحانك}؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: { إلا ما علمتنا }..
.8 ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما { العليم }، و{ الحكيم }؛ فـ { العليم }: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه..
و{ الحكيم }: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئاً منها؛ و "الحكمة" هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: "ليته لم يأمر به"؛ وما نهى عن شيء، فقال: "ليته لم ينهَ عنه"؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة..
واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة

قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة..

ولـ { الحكيم } معنًى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: { أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون } [المائدة: 50] ، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: { ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم } [الممتحنة: 10] ؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدراً على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: { فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين } (يوسف: 80)

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حُكِم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال..

القرآن

)قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) (البقرة:33)

التفسير:

{ 33 }. قوله تعالى: { قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم }؛ القائل هو الله عزّ وجلّ؛ و{ آدم } هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفاً؛ وهو مشتق لغة من الأدْمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد

قوله تعالى: { فلما أنبأهم بأسمائهم } أي أنبأ الملائكة؛ { قال } أي قال الله؛ { ألم أقل لكم }: الاستفهام هنا للتقرير؛ والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: 1] : والمعنى: قد شرحنا لك صدرك؛ { إني أعلم غيب السموات والأرض } أي ما غاب فيهما . وهو نوعان: نسبي؛ وعام؛ فأما النسبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض؛ وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عموماً..

قوله تعالى: { وأعلم ما تبدون } أي ما تظهرون؛ { وما كنتم تكتمون } أي تخفون..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ لقوله تعالى: { يا آدم }؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح . أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض..

2. ومنهـا: أن آدم . عليه الصـلاة والسـلام . امتثـل، وأطـاع، ولم يتوقـف؛ لقوله تعـالى: { فلما أنبـأهم }؛ ولهـذا طـوى ذكر قولـه: "فأنبأهم" إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة..
3. ومنها: جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكـذا . أي بـأمر لا يمكن دفعـه؛ وذلك لقوله تعـالى: { ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض }..
4. ومنهـا: بيـان عمـوم علم الله عـزّ وجـلّ، وأنه يتعلق بالمشـاهد، والغائب؛ لقوله تعالى:
(أعلم غيب السموات والأرض)..
5. ومنهـا: أن السـموات ذات عـدد؛ لقوله تعـالى: { السـموات }؛ و "الأرض" جـاءت مفـردة، والمـراد بها الجنس؛ لأن الله تعـالى قـال: {الله الذي خلق سبع سـموات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: 12] أي في العدد..
6. ومنها: أن الملائكة لها إرادات تُبدى، وتكتم؛ لقوله تعالى: { وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون }..
7. ومنهـا: أن الله تعـالى عـالم بما في القلـوب سـواء أُبـدي أم أُخفي؛ لقوله تعالى: (ما تبدون وما كنتم تكتمون)
فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟..
فالجواب: قوله تعالى: {حـتى إذا فـزع عن قلـوبهم قـالوا مـاذا قـال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} [سبأ: 23]

القـرآن

)وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (البقرة:34)

التفسير:

.{ 34 } قوله تعـالى: { وإذ قلنا } يعـني اذكر إذ قلنـا؛ ومثل هـذا التعبير يتكرر كثيراً في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: "اذكـر"، وهم بحاجة إلى هـذا التقـدير؛ لأن "إذ" ظرفيـة؛ والظـرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكوراً؛ وإما محذوفاً؛ وفي نظم الجُمل:.
لا بد للجـار من التعلق بفعل أو معنـاه نحو مـرتقي ومثله الظـرف؛ وجـاء الضـمير في { قلنا } بضـمير الجمع من بـاب التعظيم . لا التعدد . كما هو معلوم..
قوله تعـالى: { للملائكة }: سـبق الكلام على ذكر الملائكـة، ومن أين اشتق هذا اللفظ..
قوله تعـالى: { اسـجدوا لآدم }: "السـجود" هو السـجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعاً، وخشوعاً؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرَّق بين الركـوع والسـجود، كما في قوله تعالى: {تراهم ركعاً سجداً} [الفتح: 29] ، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا} [الحج: 77] ..
قوله تعـالى: { فسـجدوا } أي من غـير تـأخير؛ فالفـاء هنا للـترتيب، والتعقيب؛ { إلا إبليس } هو الشـيطان؛ وسـمي إبليسـاً لأنه أبلَسَ من رحمة الله . أي أيِسَ منها يأسـاً لا رجـاء بعـده . { أبى } أي

امتنع؛ { واستكبر } أي صار ذا كبر؛ { وكـان من الكـافرين }: زعم بعض العلماء أن المراد: كـان من الكـافرين في علم الله بنـاءً على أن
{ كـان } فعل مـاضٍ؛ والمضي يـدل على شـيء سـابق؛ لكن هنـاك تخريجـاً أحسن من هـذا: أن نقـول: إن "كـان" تـأتي أحيانـاً مسـلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصـوف بهـذه الصـفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: {وكان الله غفوراً رحيماً} [النساء: 96]، وقوله تعالى: {وكان الله عزيزاً حكيماً} [النساء: 158]، وقوله تعالى: {وكان الله سميعاً بصيراً} [النساء: 134]، وما أشبهها؛ هـذه ليس المعـنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون { كان } هنا مسـلوبة الزمـان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملـة؛ وهـذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له..

2. ومنها: أن السجود لغير الله إذا كـان بـأمر الله فهو عبـادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كـان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلمـاء بهـذه الآية على كفر تـارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سـجدة واحـدة أمر بهـا، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هــو؛ وإن لم يســتقم فقد دلت نصــوص أخــرى من الكتــاب، والسـنة، وأقـوال الصـحابة على كفر تـارك الصـلاة كفـراً أكـبر مخرجـاً عن الملة..

ويدل على أن المحرَّم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسـماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهمـا، حيث قـال تعــالى: {فلما أســلما وتلّه للجــبين * وناديـنــاه أن يا إبــراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين} [الصافات: 103 ـ 105]؛ ومن المعلــوم أن قتل الابن من كبــائر الــذنوب، لكن لما أمر الله عزّ وجلّ به كان امتثاله عبادة..

3. ومن فوائد الآيــة: أن إبليس . والعيــاذ بالله . جمع صــفات الــذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحـق، وعلى الخلـق؛ والكفـر؛ إبليس اسـتكبر عن الحـق؛ لأنه لم يمتثل أمر اللـه؛ واسـتكبر على الخلق؛ لأنه قال: {أنا خير منه} [الأعراف: 12]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و"الكبر" بطر الحق، وغمط الناس..

تنبـــــــيه:

إن قـال قائـل: في الآية إشـكال . وهو أن الله تعـالى لما ذكر أمر الملائكة بالسـجود، وذكر أنهم سـجدوا إلا إبليس؛ كـان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟..

والجـواب: أن إبليس كـان مشـاركاً لهم في أعمـالهم ظـاهراً، فكـان توجيه الأمر شــاملاً له بحسب الظــاهر؛ وقد يقــال: إن الاســتثناء

منقطــع؛ والاســتثناء المنقطع لا يكــون فيه المســتثنى من جنس المستثنى منه..

القـرآن

)وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:35)

التفسير:

.{ 35 } قوله تعـالى: { قلنا } فاعل القـول هو الله عـزّ وجـلّ؛ { اسكن أنت وزوجك }: "زوج" معطـوف على الفاعل في { اسـكن }؛ لأن { أنت } توكيد للفاعـل؛ وليست هي الفاعـل؛ لأن { اسـكن } فعل أمر؛ وفعل الأمر لا يمكن أن يظهر فيه الفاعل؛ لأنه مسـتتر وجوبـاً؛ وعلى هــذا فــ { أنت } الضــمير المنفصل توكيد للضـمير المستتر؛ و{ زوجك } هي حواء، كما ثبت ذلك في صـحيح البخـاري، وغيره..

قوله تعـالى:{ الجنة } هي البسـتان الكثـير الأشـجار، وسـمي بذلك لأنه مستتر بأشجاره؛ وهل المراد بــ { الجنة } جنة الخلـد؛ أم هي جنة سوى جنة الخلد؟..

الجواب: ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سـواها؛ لأن "أل" هنا للعهد الذهني..

فــإن قيــل: كيف يكــون القــول الصــحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها . وهذه أخرج منها آدم؟

فــالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخــرج منهــا: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة.

فحيَّ على جنـــات عـــدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم قـــال: "منازلك الأولى"؛ لأن أبانا آدم نزلها..

قوله تعالى: { وكُلا }: أمر بمعنى الإباحـة، والإكـرام؛ { منها } أي من هــذه الجنــة؛ { رغــداً } أي أكلاً هنيــاً ليس فيه تنغيص؛ { حيث شـئتما } أي في أيّ مكـان من هـذه الجنـة، ونقـول أيضـاً: وفي أيّ زمــــان؛ لأن قوله تعـــــالى: { كُلا } فعل مطلق لم يقيد بزمن..

قوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشـجرة } أشـار الله تعـالى إلى الشـجرة بعينهـا، و "أل" فيها للعهد الحضـوري؛ لأن كل ما جـاء بــ "أل" بعد اسم الإشــارة فهو للعهد الحضـوري؛ إذ إن اسم الإشـارة يعني الإشارة إلى شيء قريب؛ وهـذه الشجرة غـير معلومة النـوع، فتبقى على إبهامها..

قوله تعـــــالى: { فتكونا }: وقعت جوابـــاً للطلب . وهو قوله تعالى: { لا تقربا }؛ فالفـاء هنا للسـببية؛ والفعل بعـدها منصـوب بــ "أن" مضمرة بعد فاء السببية؛ وقيل: إن الفعل منصوب بنفس الفاء؛ القول الأول للبصريين، والثاني للكوفيين؛ والثـاني هو المختـار عنـدنا بناءً على القاعدة أنه متى اختلف علماء النحو في إعــراب كلمة أو جملة فإننا: نأخذ بالأسهل ما دام المعنى يحتمله..

قوله تعالى: { من الظالمين } أي من المعتدين لمخالفة الأمر..

الفوائد:

.1من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعـالى: (وقلنا يا آدم)..

.2 ومنها: أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبـة؛ لقوله تعـالى: { يا آدم اسـكن... } إلخ؛ ولـولا أن آدم يسـمعه لم يكن في ذلك فائـدة؛ وأيضـاً هو مـرتب؛ لقوله تعـالى: { يا آدم اسـكن أنت وزوجك }: وهذه حـروف مرتبـة، كما هو ظـاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال

.3 ومن فوائد الآيــة: منّة الله عــزّ وجــلّ على آدم، وحــواء حيث أسكنهما الجنة..

.4 ومنها: أن النكاح سـنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسـل، والأنبيـاء، ومن دونهم، كما قوله تعـالى: {ولقد أرسـلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية} (الرعد: 38)

فإن قال قائل: زوجته بنت من؟..

فالجواب: أنها خلقت من ضلعه..

فإن قال: إذاً تكون بنتاً له، فكيف يتزوج ابنته؟..

فـالجواب: أن لله تعـالى أن يحكم بما شـاء؛ فكما أبـاح أن يـتزوج الأخ أخته من بـني آدم الأولين؛ فكـذلك أبـاح أن يـتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه..

.5 ومن فوائد الآية: أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعـالى: { وكُلا منها }؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: { حيث شـئتما }: خيَّرهما أن يـأكلا من أيّ مكـان؛ ولا شك أن الأمر يـأتي للإباحـة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة..

.6 ومنها: أن ظاهر النص أن ثمـار الجنة ليس له وقت محـدود؛ بل هو موجـود في كل وقت؛ لقوله تعـالى: { حيث شـئتما }؛ فـالتعميم في المكـان يقتضي التعميم في الزمـان؛ وقد قـال الله تعـالى في فاكهة الجنة: {وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعـة} (الواقعـة: 32، 33)

.7 ومنهـا: أن الله تعـالى قد يمتحن العبـد، فينهـاه عن شـيء قد تتعلق به نفسـه؛ لقوله تعـالى: { ولا تقربا هـذه الشـجرة }؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها..

.8 ومنها: أنه قد يُنهى عن قربان الشيء والمـراد النهي عن فعلـه؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشجرة }: المـراد: لا تـأكلا منهـا، لكن لما كـان القـرب منها قد يـؤدي إلى الأكل نُهي عن قربها..

.9 ومنهـا: إثبـات الأسـباب؛ لقوله تعـالى: { ولا تقربا هـذه الشـجرة فتكونا من الظالمين..

.10 ومنها: أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليهـا؛ لقوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين..)

القـرآن

)فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (البقرة:36)

التفسير:

.{ 36 } قوله تعالى: { فازلهما الشيطان }؛ وفي قراءة: { فأزالهما }؛ والفــــرق بينهما أن { أزلهما } بمعـــنى أوقعهما في الزلـــل؛ و{ أزالهما } بمعـنى نحَّاهمـا؛ فعلى القـراءة الأولى يكـون الشـيطان أوقعهما في الزلـل، فـزالا عنهـا، وأخرجا منهـا؛ وعلى الثانية يكـون الشيطان سـبباً في تنحيتهمـا؛ و{ الشـيطان } الظـاهر أنه الشـيطان الــذي أبى أن يســجد لآدم: وســوس لهما ليقوما بمعصــية الله كما فعل هو حين أبى أن يسجد لآدم..

قوله تعالى: { عنها } أي عن الجنة؛ ولهـذا قـال تعـالى: { فأخرجهما مما كانا فيه } من النعيم؛ لأنهما كانا في أحسن ما يكـــــــون من الأماكن..

قوله تعــالى: { وقلنا } أي قــال الله لهمــا؛ { اهبطــوا }: الضــمير للجمع، والمـراد آدم، وحـواء، وإبليس؛ ولهـذا قـال تعـالى: { بعضـكم لبعض عدو }: الشيطان عدو لآدم، وحواء..

قوله تعــالى: { ولكم في الأرض مســتقر ومتــاع إلى حين } يعــني أنكم سوف تستقرون في الأرض، وسوف تتمتعـون بها بما أعطـاكم الله من النعم، ولكن لا على وجه الدوام؛ بل إلى حين . وهو قيـام الساعة..

الفوائد:

.1من فوائد الآيـة: الحـذر من وقــوع الزلل الــذي يمليه الشــيطان؛ لقوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها).

.2 ومنها: أن الشـيطان يغـرّ بـني آدم كما غـرّ أبـاهم حين وسـوس لآدم، وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصـحين، وقـال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ فالشيطان قد يأتي الإنسـان، فيوسـوس لـه، فيصـغر المعصـية في عينـه؛ ثم إن كـانت كـبيرة لم يتمكن من تصـغيرها؛ منّـاه أن يتــوب منهـا، فيسـهل عليه الإقـدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك..

.3ومنهـا: إضـافة الفعل إلى المتســبب لــه؛ لقوله تعــالى: { فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه }؛ وقد ذكر الفقهاء . رحمهم الله . أن المتسـبب كالمباشر في الضـمان، لكن إذا اجتمع متسـبب ومباشر تمكن إحالة الضـمان عليه فالضـمان على المباشـر؛ وإن لم تمكن فالضـمان على المتسـبب؛ مثـال الأول؛ أن يحفر بـئراً، فيـأتي شـخص، فيـدفع فيها إنسـاناً، فيهلـك: فالضـمان على الـدافع؛ ومثـال الثاني: أن يلقي شخصاً بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي لا على الأسد..

4. ومن فوائد الآيــة: أن الشــيطان عــدو للإنســان؛ لقوله تعــالى: { بعضــكم لبعض عــدو }؛ وقد صــرح الله تعــالى بــذلك في قوله تعالى: { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً } (فاطر: 6)

5. ومنها: أن قـول الله تعالى يكـون شـرعياً، ويكـون قـدرياً؛ فقوله تعالى: { يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها }: هـذا شـرعي؛ وقوله تعــالى: { وقلنا اهبطــوا بعضــكم لبعض عــدو }: الظــاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه وتعـالى يعلم أنه لو عـاد الأمر إليهما لما هبطـا؛ ويحتمل أن يكون قولاً شرعياً؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كـوني . والله أعلم..

6. ومنهــا: أن الجنة في مكــان عــالٍ؛ لقوله تعــالى: { اهبطــوا }؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل..

7. ومنها: أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: { ولكم في الأرض مســتقر ومتــاع إلى حين }؛ ويؤيد هــذا قوله تعالى: {فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجـون} [الأعـراف: 25] ؛ وبناءً على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشــوا في غــير الأرض إما في بعض الكـواكب، أو في بعض المـراكب محاولة يائسـة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض..

8. ومنها: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعــالى: { ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين }..

القرآن

)فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَــاتٍ فَتَــابَ عَلَيْــهِ إِنَّهُ هُــوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:37)

التفسير:

{ 37 }. قوله تعــالى: { فتلقي آدم من ربه } يعـني أخـذ، وقَبِـل، ورضي من الله كلمـات حينما ألقى الله إليه هـذه الكلمـات؛ وهـذه الكلمـــات هي قوله تعـــالى: {ربنا ظلمنا أنفســـنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف: 23] ؛ فالكلمات اعـتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سـبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين؛ و{ من ربه } فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة..

قوله تعالى: { فتاب عليه }: الفاعل هو الله . يعني فتاب ربه عليـه؛ و"التوبـة" هي رفع المؤاخـذة، والعفو عن المـذنب إذا رجع إلى ربه عزّ وجلّ..

قوله تعــالى: { إنه هو التــواب الــرحيم }: هـذه الجملة تعليل لقوله تعالى: { فتاب عليه }؛ لأن التوبة مقتضى هذين الاسمين العظيمين: { التـــواب الـــرحيم }؛ و{ هو } ضـــمير فصل يفيد هنا الحصـــر، والتوكيد؛ و{ التواب } صيغة مبالغة من "تاب"؛ وذلك لكثرة التائبين، وكثرة توبة الله؛ ولـذلك سـمى الله نفسه "التـواب" ؛ و{ الـرحيم } أي ذو الرحمة الواسعة الواصلة إلى من شاء من عباده..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـــة: منة الله ســبحانه وتعــالى على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: { فتلقى آدم من ربه كلمات }..
.2 ومنهـــا: أن منة الله على أبينا هي منة علينا في الحقيقـــة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا منَّ على أحد أجداده كان ماثّاً عليه..
.3 ومنهـا: أن قــول الإنســان: "ربنا ظلمنا أنفســنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسـرين" سـبب لقبـول توبة الله على عبـده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكـونن من الخاسـرين" أربعة أنـواع من التوسـل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: {ظلمنا أنفسنا} ؛ الثـالث: تفـويض الأمر إلى اللـه؛ لقولـه: {وإن لم تغفر لنـا...} إلخ؛ الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفـرة الله ورحمتـه؛ لقوله تعالى: {لنكونن من الخاسرين} ، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلاً بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده..
.4 ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يتكلم بصوت مسـموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمـــات؛ وتلقي الكلمـــات لا يكـــون إلا بســـماع الصوت؛ وهذا الـذي عليه أهل السـنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة..
.5 ومنها: منة الله عزّ وجلّ على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منَّتـــان؛ الأولى: التوفيق للتوبـــة، حيث تلقَّى الكلمـــات من اللـــه؛ و الثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: { فتاب عليه }..
واعلم أن لله تعـــالى على عبـــده توبـــتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبـــد؛ وهي التوفيق للتوبـــة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبـــد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قـال الله . تبـارك وتعـالى: {وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسـهم وظنـوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تـاب عليهم ليتوبـوا} [التوبـة: 118] : فقوله تعـالى: {ثم تـاب عليهم} أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: {ليتوبوا} أي يقوموا بالتوبة إلى اللـه؛ وأما توبة القبـول ففي قوله تعـالى: {وهو الـذي يقبل التوبة عن عبـاده ويعفو عن السيئات} (الشورى: 25)
.6 ومن فوائد الآيـة: أن الإنســان إذا صـدق في تفـويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتـوب عليـه؛ وهـذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعـاً تقـرب الله إليه باعـاً، ومن أتـاه يمشي أتـاه الله هرولـة؛ فكـرم الله عـزّ وجلّ أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان..
.7 ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: { التواب }، و{ الرحيم }؛ وما تضمناه من صفة، وفعل..
.8 ومنها: اختصاص الله بالتوبة، والرحمة؛ بدليل ضمير الفصـل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة الـتي لا يقـدر عليها غـيره؛ لأن الإنسـان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا

يقـدر عليها إلا الله . وهي المـذكورة في قوله تعـالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله} [آل عمران: 135] . هذه خاصة بالله..
كـذلك الرحمة المـراد بها الرحمة الـتي لا تكـون إلا للـه؛ أما رحمة الخلق بعضـهم لبعض فهـذا ثـابت . لا يختص بالله عـزّ وجـلّ؛ ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الرحمن"[1] ..

القـرآن

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: 38)

التفسير:

.{ 38 } قوله تعالى: { قلنا اهبطوا منها جميعاً }: الواو ضمير جمع، وعـبر به عن اثـنين لأن آدم، وحـواء هما أبَـوَا بـني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هـذا هو الظـاهر؛ وأما حمله على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضـمير الجمع هنا بمعـنى ضـمير التثنية فبعيـد؛ لأن كـون أقل الجمع اثـنين شـاذ في اللغة العربيـة؛ وأما قوله تعـالى: {إن تتوبا إلى الله فقد صـغت قلوبكمـا} [التحـريم: 4] فـإن الأفصح في المتعـدد إذا أضـيف إلى متعـدد أن يكون بلفظ الجمع . وإن كان المراد به اثنين؛ و{ جميعـاً } منصـوبة على الحال من الواو في قوله تعالى: (اهبطوا)
قوله تعالى: { فإما } أصلها: "فإنْ مـا" : أدغمت النـون في "مـا" ؛ و "إن" شرطية، و "ما" زائدة للتوكيد؛ و
{ يـأتينكم } فعل مضـارع مؤكد بنـون التوكيـد؛ ولـذلك لم يكن مجزومـاً؛ بل كـان مبنيـاً على الفتح؛ لاتصـاله بنـون التوكيد لفظـاً، وتقديراً..
قوله تعالى: { مني هدًى } أي علماً: وذلك بـالوحي الـذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه، ورسله..
قوله تعـالى: { فمن تبع }: الفـاء هنا رابطة لجـواب الشـرط؛ لأن الجملة بعد الفاء هي جـواب الشـرط؛ والجملة هنا اسـمية؛ و "مَنْ" شرطية؛ و "تبع" فعل الشرط؛ والفـاء في قوله تعـالى: { فلا خـوف } رابطة للجواب أيضاً، و "لا" نافية، و "خوف" مبتدأ؛ وجملـة: { فمن تبع هداي فلا خوف} جـواب "إنْ" في قوله تعـالى: {فإما يـأتينكم }؛ وجملة: { فلا خوف } جواب { فمن تبع }..
وقوله تعـالى: { فمن تبع هـداي } أي أخذ به تصـديقاً بأخبـاره، وامتثالاً لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه لأنه الذي شرعه لعبـاده، ولأنه موصل إليه..
قوله تعـالى: { فلا خـوف عليهم } أي فيما يسـتقبل؛ لأنهم آمنـون؛ { ولا هم يحزنـون } أي على ما مضـى؛ لأنهم قد اغتنمـوه، وقـاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة..

---
[1] أخرجه أحمد 2/160، حديث رقم 6494؛ وأخرجه أبو داود ص1585، كتاب الأدب، باب 58: في الرحمة، حديث 4941؛ وأخرجه الترمذي ص1846، كتاب البر والصلة، باب 16: ما جاء في رحمة الناس، حديث رقم 1924، وفي الحديث: أبو قابوس لم يوثقه غير ابن حبان، قال الألباني: حديث صحيح بالشواهد والمتابعات [السلسلة الصحيحة 2/630 – 631، حديث رقم 925],

الفوائد:

.1 من فوائد الآية أن الجنة الـتي أُسـكنها آدم أولاً كـانت عاليـة؛ لقوله تعالى: { اهبطوا }؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى..

.2 ومنها: إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: (قلنا)..

.3 منها: أنه بصوت مسموع، وحروف مرتبـة؛ لقوله تعـالى: { اهبطـوا منها جميعاً }؛ فلولا أنهم سمعوا ذلك ما صح توجيه الأمر إليهم..

.4 ومنهـا: أن التوكيد في الأسـلوب العـربي فصـيح، ومن البلاغـة؛ لقوله تعـالى: { جميعـاً }؛ وهو توكيد معنـوي: لأنه حـال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هاماً فينبغي أن يؤكـد؛ فتقـول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشـيء: "يا فلان عجل عجل عجـل" ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث..

.5 ومنها: أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعـالى: (فإما يـأتينكم مـني هدًى)

فإن قال قائل: "إنْ" في قوله تعالى: { فإما } لا تـدل على الوقـوع؛ لأنها ليست كـ "إذا" ؟ قلنا: نعم، هي لا تـدل على الوقـوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع . أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة . { فإما يأتينكم } . ما يـدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل..

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عزّ وجلّ؛ لأنه هو الذي يأتي به..

.6 ومن فوائد الآية: أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديـه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى:

(فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

.7 ومنها: أنه لا يتعبد لله إلا بما شـرع؛ لقوله تعـالى: (فإما يـأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

.8 ومنهـا: أن من تعبد لله بغـير ما شـرع فهو على غـير هـدى؛ فيكون ضالاً كما شهدت بذلك السـنة؛ فقد كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم في خطبة الجمعة يقـول: "وشر الأمـور محـدثاتها؛ وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة[1].

القـرآن

)وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:39)

التفسير:

.{ 39 } قوله تعالى: { الذين كفروا } مبتدأ؛ وجملة: { أولئك أصحاب النار } خبر المبتـدأ؛ وجملـة: { هم فيها خالـدون } في موضع نصب على الحال . يعني حال كونهم خالدين . ويجـوز أن تكـون اسـتئنافية لبيان مآلهم..

---

[1] أخرجه النسائي ص2193، كتاب صلاة العيدين، باب 22: كيف الخطبة، حديث رقم 1579ن بزيادة: "وكل ضلالة في النار"، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح [1/512، حديث رقم 1577]، وأصله في مسلم ص813، كتاب الجمعة، باب 13: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث 2005 [43] 867، بدون: "وكل محدثة بدعة" ولا "وكل صلالة في النار".

قوله تعـالى: { الـذين كفـروا } أي بـالأمر؛ { وكـذبوا } أي بـالخبر؛ فعندهم جحـود، واسـتكبار؛ وهـذان هما الأساسـان للكفـر؛ لأن الكفر يــدور على شــيئين: إما اســتكبار؛ وإما جحــود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مقر بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعـون، وقومـه: كفر جحـود؛ لقوله تعـالى: { وجحـدوا بها }: فهم في ألسـنتهم مكـذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: { واسـتيقنتها أنفسـهم } [النمل: 14] ..

فقوله تعـالى: { والـذين كفـروا } أي كفـروا باللـه، فاسـتكبروا عن طاعته، ولم ينقـادوا لهـا؛ { وكـذبوا بآياتنا }أي بالآية الشـرعية؛ وإن انضـــاف إلى ذلك الآية الكونية زاد الأمر شـــدة؛ لكن المهم الآية الشرعية؛ لأن من المكـذبين الكـافرين من آمنـوا بالآية الكونية دون الشرعية؛ فمثلاً كفار قريش مؤمنون بالآية الكونية مقرون بـأن الله خـالق السـموات، والأرض، وأنه المحـيي، وأنه المميت، وأنه المـدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآية الشرعية..

قوله تعـالى: { أولئك } أي المـذكورون؛ وأشـار إليهم بإشـارة البعيد لانحطـاط رتبتهم لا ترفيعـاً لهم، وتعلية لهم؛ { أصـحاب النـار } أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي "أصحاب النار" إلا في الكفـار؛ لا تـأتي في المؤمنين أبداً؛ لأن المراد الذين هم مصـاحبون لهـا؛ والمصـاحب لابد أن يلازم من صاحبه؛ { هم فيها خالدون } أي ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيـات في كتـاب اللـه؛ آية في النسـاء، وآية في الأحـزاب، وآية في الجن؛ أما آية النسـاء فقوله تعالى: {إن الذين كفـروا وظلمـوا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقـاً * إلا طريق جهنم خالـدين فيها أبـداً} [النسـاء: 168، 169] ؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً} [الأحزاب: 64، 65] ؛ وأما آية الجن فقوله تعـالى: {ومن يعص الله ورسـوله فـإن له نـار جهنم خالـدين فيها أبداً} [الجن: 23] ..

الفوائد:

1. من فوائد الآيـة: أن الـذين جمعـوا بين هـذين الوصـفين . الكفـر، والتكذيب . هم أصحاب النـار مخلـدون فيها أبـداً . كما سـبق؛ فـإن اتصـفوا بأحـدهما فقد دل الـدليل على أن المكـذب خالد في النـار؛ وأما الكافر فمن كان كفـره مخرجـاً عن الملة فهو خالد في النـار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار..

2. ومنهـا: أن الله تعــالى قد بين الحق بالآية الــتي تقطع الحجــة، وتبين المحجة..

3. ومنهـا: انحطــاط رتبة من اتصــفوا بهــذين الوصــفين . الكفــر، والتكذيب..

4. ومنها: إثبـات النـار؛ وقد ثبت بالـدليل القطعي أنها موجـودة الآن، كما في قوله تعـالى: { واتقـوا النـار الـتي أعـدت للكـافرين } (آل عمران: 131)

القـرآن

)يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (البقرة:40)

التفسير:

.{ 40 } قوله تعالى: { يا بني إسرائيل } أي يا أولاد إسرائيل؛ والأصل في "بني" أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور، والإناث، كقوله تعالى: { يا بني آدم }، وقوله تعالى: { يا بني إسرائيل }؛ و{ إسرائيل } لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ ومعناه . على ما قيل . عبد الله؛ وبنوه هم اليهود، والنصارى، ورسلهم؛ لكن النداء في هذه الآية لليهود والنصارى الموجودين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؛ ووجه الله تعالى النداء لبني إسرائيل؛ لأن السورة مدنية؛ وكان من بني إسرائيل ثلاث قبائل من اليهود في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ سكنوا المدينة ترقباً للنبي صلى الله عليه وسلم الذي علموا أنه سيكون مهاجره المدينة ليؤمنوا به، ويتبعوه؛ لكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به..

قوله تعالى: { اذكروا نعمتي } أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح..

وقوله تعالى: { نعمتي } مفرد مضاف، فيعم جميع النعم الدينية، والدنيوية؛ وقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة..

قوله تعالى: { التي أنعمت عليكم }: أشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل محض من الله عزّ وجلّ..

قوله تعالى: { وأوفوا بعهدي } أي ائتوا به وافياً؛ وعهده سبحانه وتعالى أنه عهد إليهم أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا برسله، كما قال تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً} [المائدة: 12] . هذا عهد الله ...

قوله تعالى: { أوفِ بعهدكم } أي أعطكم ما عهدت به إليكم وافياً . وهو الجزاء على أعمالهم . المذكور في قوله تعالى: {لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار} [المائدة: 12] ؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم..

وقوله تعالى: { أوفِ } جواب الطلب في قوله تعالى: { أوفوا بعهدي }؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف حرف العلة..

قوله تعالى: { وإياي فارهبون } أي لا ترهبوا إلا إياي؛ و "الرهبة" شدة الخوف..

الفوائد:

.1من فوائد الآية: أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجّهه لبني

إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها حق ما ليس عند غيرهم..
.2 ومنها: أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليـه؛ لقوله تعـالى: { اذكـروا نعمـتي الـتي أنعمت عليكم }؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم؟
فـالجواب: نعم، نـذكره بـالنعم؛ لأن هـذا أدعى لقبـول الحـق، وأدعى لكونه يحب الله عـزّ وجـلّ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقـوم بطاعته..
.3 ومن فوائد الآيـة: عظيم منة الله تعـالى في إنعامه على هـؤلاء؛ لقوله تعالى: { التي أنعمت عليكم }..
.4 ومنهـــا: أن من وفى لله بعهـــده وفى الله لـــه؛ لقوله تعـــالى: { وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم }؛ بل إن الله أكرم من عبـده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَـرَّبْتُ إِلَيْـهِ ذِرَاعـاً؛ وَإِذَا تَقَـرَّبَ مِنِّي ذِرَاعـاً تَقَـرَّبْتُ مِنْـهُ بَاعاً؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشْياً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[1] ..
.5 ومن فوائد الآية: أن من نكث بعهد الله فإنه يعـاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفـاء بالعهـد؛ وذلـك؛ لأن المنطـوق في الآية أن من وفى لله وفّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يفِ فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وُعِد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عزّ وجلّ..
.6 ومنهـا: وجـوب الوفـاء بالنـذر؛ لأن النـاذر معاهد للـه، كما قـال تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصـدقن ولنكـونن من الصالحين} [التوبة: 75] ..
.7 ومنها: وجوب إخلاص الرهبة لله عزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: () وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)(البقرة: من الآية40)
.8 ومنها: أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها..
فإن قال قائل: هل ينـافي التوحيد أن يخـاف الإنسـان من سـبُع، أو من عدو؟
فالجواب: لا ينـافي هـذا التوحيـد؛ ولهـذا وقع من الرسـل: إبـراهيم . عليه الصلاة والسلام . لما جـاءه الضـيوف، ولم يـأكلوا أوجس منهم خيفة؛ وموسى . عليه الصـلاة والسـلام . لما ألقى السـحرة حبـالهم، وعصيهم أوجس في نفسه خيفة؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضـيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: "إنك إذا خفت من أحد سـوى الله خوفـاً طبيعياً لكنت مشركاً"، لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خـوف الإنسان مما يخـاف منه خـوفٌ طـبيعي غريـزي لا يمكنه دفعـه؛ كل إنسان يخاف مما يُخشى منه الضرر..
فإن قال قائـل: لو منعه الخـوف من واجب عليه هل يُنهى عنـه، أو لا؟
فالجواب: نعم، يُنهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحـال فلا حـرج عليه في هـذا

[1] أخرجه البخاري بلفظه ص629، كتاب التوحيد، باب 50: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه، حديث رقم 7536؛ وأخرجه مسلم ص1144، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب 1: الحدث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 6805 [2] 2675.

الخوف؛ قال الله تعالى: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 175]ـ ؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعداً؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: 16]ـ ؛ ولو كان العدو أكثر من مثلَي المسلمين فلا يلزمهم أن يصابروهم، ويجوز أن يفروا..

القـرآن

)وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) (البقرة:41)

التفسير:

.{ 41 } قوله تعالى: { وآمنوا } معطوف على قوله تعالى: (اذكروا)

.{ بما أنزلت }: هو القـرآن أنزله الله سـبحانه وتعـالى على محمد صـلى الله عليه وسـلم { مصـدقاً لما معكم } أي مصـدقاً لما ذُكر في التوراة، والإنجيل من أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم ومن أوصاف القرآن الذي يأتي صلى الله عليه وسـلم بـه؛ وكـذلك أيضـاً هو مصدق لما معهم: شاهد للتوراة، والإنجيل بالصدق؛ فصار تصديق القـــرآن لما معهم من وجهين؛ الوجه الأول: أنه وقع مطابقـــاً لما أخـبرت التـــوراة، والإنجيل بـــه؛ والوجه الثـــاني: أنه قد شـــهد لهما بالصـدق؛ فـالقرآن يـدل دلالة واضـحة على أن الله أنـزل التـوراة، وأنزل الإنجيل . وهـذه شـهادة لهما بأنهما صـدق .؛ وكـذلك التـوراة، والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصــاف القــرآن، ومن أوصــاف محمد صـلى الله عليه وسـلم حـتى صـاروا يعرفونه كما يعرفـون أبنـاءهم؛ فـإذا وقع الأمر كما ذُكر فيهما صـار ذلك تصـديقاً لهمـا؛ ولهـذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: "صدقتَ"، ثم وقع ما حدثتك به مشهوداً تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقاً أيضاً..

قوله تعـالى: { ولا تكونـوا أول كـافر به } يعـني لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك كونـوا ثـاني كافر؛ والضمير في قوله تعالى: { تكونوا } ضمير جمـع، و{ كـافر } مفرد، فكيف يصح أن تخبر بالمفرد عن الجماعة؟

والجواب: قال المفسرون: إن تقدير الكلام: أول فريق كـافر بـه؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل عموماً . وهم جماعة ...

قوله تعالى: { ولا تشتروا } أي لا تأخذوا؛ { بآيـاتي ثمنـاً قليلاً } أي الجـاه، والرئاسـة، وما أشـبه ذلـك؛ لأن بـني إسـرائيل إنما كفـروا يريدون الدنيا؛ ولو أنهم اتبعوا محمداً صـلى الله عليه وسـلم لكـانوا في القمة، ولأوتوا أجرهم مـرتين؛ لكن حسـداً، وابتغـاء بقـاء الجـاه، والشرف، وأنهم هم أهل كتاب حسدوا النبي صلى الله عليه وسـلم (، فلم يؤمنوا به..

قوله تعـالى: { وإيـاي فـاتقون } أي لا تتقـوا إلا إيـاي؛ و "التقـوى" اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجلّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيـه؛ ففي الآية الأولى: { وإيــاي فــارهبون } أمر بــالتزام الشــريعة، وألا يخالفوها عصـياناً؛ وفي هـذه الآيـة: { وإيـاي فـاتقون } أمر بـالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم)

.2 ومنها: أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولاً، ثم يفعلها ثانياً؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: "فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة"[1] ..

إذاً هم لا يخاطبون بالفعل . يعني لا يقال: افعلوا .؛ فلا نقول للكافر: تعال صلِّ؛ بل نأمره أولاً بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: {ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين} [المدثر: 72 ـ 47] يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: {لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين} [المدثر: 43 . 44] عبثاً لا فائدة منه، ولا تأثير له..

.3 ومن فوائد الآية: أن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة"[1] يعنى ريحها؛ وحينئذ يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؟

والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكاناً ينفع به المسلمين فهذا لم يشتر بآيات الله ثمناً قليلاً؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة..

---

[1] أخرجه البخاري ص118، كتاب الزكاة، باب 63: أخذ الصدقة من الأغنياء...، حديث رقم 1496؛ وأخرجه مسلم ص684، كتاب الإيمان، باب 7: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم 121 [29] 19.

[1] أخرجه أبو داود ص1494، كتاب العلم، باب 11: في طلب العلم لغير الله، حديث رقم 3664؛ وأخرجه ابن ماجة ص2492، كتاب السنة، باب 23: الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم 252؛ وأخرجه أحمد 2/338، حديث رقم 8438؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه 1/85، كتاب العلم، وقال: هذا حديث صحيح سنده ثقات رواته على الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ومدار الحديث على فليح بن سليمان الخزاعي، قال الدارقطني: يختلفون فيه وليس به بأس، تهذيب التهذيب 8/273، وقال الحاكم فيه: "اتفاق الشيخين عليه يقوي أمره، ت. التهذيب، وقال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول 4/544، حاشية رقم 1: "توبع في جامع بيان العلم 1/90 فهو به حسن". أهـ.

.4 ومن فوائد الآية: أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهـذا قوله تعالى: {قل متـاع الـدنيا قليل والآخـرة خـير لمن اتقى ولا تظلمـون فتيلًا} [النساء: 77] ..
.5 ومنها: أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل، والإصــلاح . بخلاف ما يسنُّه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:.
أولاً: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يُصلح الخلق..
ثانيـاً: لخفـاء المصـالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصـلحة مصـلحة؛ وبالعكس..
ثالثاً: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام، أو القـانون من أذكى الناس، وأعلم الناس بأحوال الناس فإن علمه هذا محدود في زمانــه، وفي مكانــه؛ أما في زمانه فظــاهر؛ لأن الأمــور تتغــير: قد يكـون المصـلحة للبشر في هـذا الـزمن كـذا، وكـذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضاً قد يكون هـذا التشـريع الـذي سـنه البشر مناسـباً لأحــوال هـؤلاء الأمة في مكــانهم؛ ولكن في أمة أخـرى لا يصلح؛ ولهـذا ضل كثـير من المسـلمين مع الأسف الشـديد في أخذ القـوانين الغربيـة، أو الشـرقية، وتطبيقها على مجتمع إسـلامي؛ لأن الـواجب تحكيم الكتـاب، والسـنة؛ والعجب أن بعض النـاس . نسـأل الله العافية . تجـدهم قد مشـوا على قـوانين شـرعت من عشـرات السـنين، أو مئاتهـا، وأهلها الـذين شـرعوها قد عـدلوا عنهـا، فصـار هؤلاء كالذين يمشمشـون العظـام بعد أن تـرمى في الزبالـة؛ وهـذا شيء واضح: هنـاك قـوانين شـرعت لقـوم كفـار، ثم تغيرت الحـال، فغيروهــا، ثم جــاء بعض المســلمين إلى هــذه القــوانين القشــور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها..
.6 . ومن فوائد الآية: وجوب تقوى الله عزّ وجـلّ، وإفـراده بـالتقوى؛ لقوله تعالى: { وإياي فاتقون }..
فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: {واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى اللـه} [البقـرة: 281[، وقوله تعـالى: {واتقـوا النـار الـتي أعـدت للكـافرين} [آل عمـران: 131[، وقوله تعـالى: {واتقـوا فتنة لا تصـيبن الـذين ظلمـوا منكم خاصـة} [الأنفال: 25] ؟
فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عزّ وجـلّ . فلا منافاة ...

القـرآن

)وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:42)

التفسير:

.{ 42 } قوله تعـالى: { ولا تلبسـوا الحق بالباطل } أي لا تمزجـوا بينهما حتى يشـتبه الحق بالباطـل؛ فهم كـانوا يـأتون بشـبهات تُشَـبِّه على الناس؛ فيقولون مثلاً: محمد حق، لكنه رسـول الأمـيين لا جميع الناس..

قوله تعالى: { وتكتموا الحق }: هنا الواو تحتمل أنها عاطفة، وتحتمل أنها واو المعية؛ والمعنى على الأول: لا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق؛ فتكون الجملتان منفرداً بعضهما عن بعض؛ ويحتمل أن تكون الواو للمعية، فيكون النهي عن الجمع بينهما؛ والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل مع كتمان الحق؛ لكن على هذا التقدير يبقى إشكال: وهو أن قوله تعالى: { لا تلبسوا الحق بالباطل } يقتضي أنهم يذكرون الحق، والباطل؛ فيقال: نعم، هم وإن ذكروا الحق والباطل فقد كتموا الحق في الحقيقة؛ لأنهم لبسوه بالباطل، فيبقى خفياً..

قوله تعالى: { وأنتم تعلمون }: الجملة في موضع نصب على الحال . أي والحال أنكم تعلمون صنيعكم ...

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى:

{ ولا تلبسوا الحق بالباطل }؛ ومن لبْس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو على أحكام القرآن، ثم يزيلون الإشكال . مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي . ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد تستقر فيه . وإن ذكِر ما يزيلها ...

.2 ومن فوائد الآية: أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل} [الحج: 62]، وقال تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين} [سبأ: 24]، وقال تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} [يونس: 32]، وقال تعالى: { فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر } [الكهف: 29] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "القرآن حجة لك أو عليك"[1] ..

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب . وهو المباح .؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: "كل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا لعبه في رمحه، ومع أهله، وفي فرسه"[2] ؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة . كلها تعود إلى مصلحة ...

.3 ومن فوائد الآية: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: { وتكتموا }؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

---

(1) أخرجه مسلم 718، كتاب الطهارة، باب 1: فضل الوضوء، حديث رقم 534 [1] 223.

(2) أخرجه أحمد 4/144، 148؛ وأخرجه أبو داود ص1409، كتاب الجهاد، باب 23: في الرمي، حديث رقم 2513؛ وأخرجه الترمذي ص1820، كتاب فضائل الجهاد، باب 11: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث رقم 1637؛ وأخرجه النسائي ص2324، كتاب الخيل، باب 8: تأديب الرجل فرسه، حديث رقم 3608؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه 2/95، كتاب الجهاد، ومدار إسناد بعضها على خالد بن زيد، قال الحافظ في التقريب: مقبول، وصحح الحاكم حديثه في المستدرك (2/95) ووافقه الذهبي، وقال: صحيح، ومدار بعضها على عبد الله بن زيد الأزرق، قال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب 2/244: مجهول لم يرو عنه إلا أبو سلام.

الجــواب: نعم، لكن الطلب نوعــان: طلب بلســان المقــال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا، وكذا: فهذا طلب بلســان المقــال؛ وإذا رأيت النــاس قد انغمســوا في محــرم: فبيانه مطلــوب بلســان الحــال؛ وعلى هــذا فيجب على الإنســان أن يبين المنكــر، ولا ينتظر حــتى يُســأل؛ وإذا ســئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الــواجب؛ لقوله تعــالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} [الإسراء: 23] . هذه واحدة ..

ثانياً: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بــأس أن يكتم كما جــاء في حديث علي بن أبي طالب: "حــدثوا النــاس بما يعرفــون؛ أتحبــون أن يكذب الله ورسوله؟!"[3] ؛ وقال ابن مسعود: "إنك لن تحدث قومــاً حديثاً لا تبلغه عقــولهم إلا كــان لبعضهم فتنــة"[4] ؛ فــإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك..

ثالثــاً: إذا كــان قصد الســائل الامتحــان، أو قصــده تتبع الــرخص، أو ضــرب أقــوال العلمــاء بعضــها ببعض . وأنت تعلم هــذا .: فلك أن تمتنع؛ الامتحان أن يــأتي إليــك، وتعــرف أن الرجل يعــرف المسألة، لكن ســألك لأجل أن يمتحنــك: هل أنت تعرفهــا، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلاماً ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنــع؛ كــذلك إذا علمت أن الرجل يتتبع الــرخص ، فيــأتي يســألك يقــول: سألت فلاناً، وقال: هذا حرام . وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلاً: فحينئذٍ لك أن تمتنع عن إفتائــه؛ أما إذا كــان المســؤول رجلاً تعــرف أنه ليس عنــده علم . إما من عامة النـــاس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قــال لــك: أنا سألت فلاناً، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلاناً؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتــني: فحينئذ يجب عليك أن تفتيــه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ وخلاصة القــول أنه لا يجب عليك الإفتــاء إلا إذا كــان المســتفتي مسترشــداً؛ لأن كتمــان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلســان الحــال، أو بلســان المقال..

القرآن

)وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة:43)

التفسير:

.{ 43 } قوله تعــالى: { وأقيمــوا الصــلاة } أي ائتــوا بها مســتقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتهــا، ومكملاتهــا؛ وهــذا كما أمر الله تعــالى بــه بـــني إســـرائيل أمر به هـــذه الأمـــة؛ و{ الصـــلاة } هنا تشـــمل الفريضة، والنافلة..

---

[3] سبق تخريجه ص18، حاشية رقم 1.
[4] سبق تخريجه ص18، حاشية رقم 2.

قوله تعالى: { وآتوا الزكاة } أي أعطوا الزكاة؛ و "آت" التي بمعنى "أعطِ" تنصب مفعولين؛ المفعول الأول هنا الزكاة؛ والمفعول الثاني محذوف؛ والتقدير: أهلَها؛ و{ الزكاة } هي المال المدفوع امتثالاً لأمر الله إلى أهله من أموال مخصوصة معروفة؛ وسمي بذل المال زكاة؛ لأنه يزكي النفس، ويطهرها، كما قال الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} [التوبة: 103] ..

قوله تعالى: { واركعوا مع الراكعين } أي صلوا مع المصلين؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعاً كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعاً؛ وقد دلّ على ذلك أيضاً قول الله تعالى لمريم: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [آل عمران: 43] ؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود..

.2 ومنها: أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلاً . بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير .؛ فيُمتحَن العباد بإيتاء الزكاة، وبذل شيء من أموالهم حتى يُعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها..

.3 ومنها: الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: (وآتوا الزكاة) ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانها..

.4 ومنها: جواز التعبير عن الكل بالبعض إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: (واركعوا مع الراكعين)

.5 ومنها: وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: { واركعوا مع الراكعين }؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: {اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} : والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذاً لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن . الحمد لله . وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم..

القرآن

)أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (البقرة:44)

التفسير:

.{ 44 } قوله تعالى: { أتأمرون الناس بالبر... }: الاستفهام هنا للإنكار؛ والمراد إنكار أمر الناس بالبر مع نسيان النفس؛ إذ النفس أولى أن يبدأ بها؛ و "البر" هو الخير؛ قال أهل التفسير: إن الواحد منهم يأمر أقاربه باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول: إنه

حـق؛ لكن تمنعه رئاسـته، وجاهه أن يـؤمن بـه؛ ومن أمثلة ذلك أن النبي صـلى الله عليه وسـلم عـاد غلامـاً من اليهـود كـان مريضـاً، فحضر أجله والنـبي صـلى الله عليه وسـلم عنـده؛ فـدعاه النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى الرشـد، فنظر إلى أبيه كأنه يستشـيره، فقـال له أبـوه: "أطع أبا القاسـم" . وأبـوه يهـودي .، فتشـهد الغلام شـهادة الحـق، فخـرج النـبي صـلى الله عليه وسـلم وهو يقـول: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار"[1] أي بدعوتي؛ إذاً هؤلاء اليهود من أحبارهم من يأمر الناس بـالبر . وهو اتبـاع الرسـول صـلى الله عليه وسلم. ولكنه ينسى نفسه، ولا يؤمن؛ فقال الله تعـالى: { وأنتم تتلون الكتاب } أي تقرؤون التوراة؛ والجملة هنا حالية . أي والحـال أنكم تتلون الكتاب .؛ فلم تـأمروا بـالبر إلا عن علم؛ ولكن مع ذلك { تنسون أنفسكم } أي تتركونها، فلا تأمرونها بالبر..

قوله تعالى: { أفلا تعقلون }: الاستفهام هنا للتوبيخ . يعني أفلا يكون لكم عقـول تـدركون بها خطـأكم، وضـلالكم .؟! و "العقـل" هنا عقل الرشـــد، وليس عقل الإدراك الـــذي ينــاط به التكليـــف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو منـاط التكليف . وهو إدراك الأشـياء، وفهمها .؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبـادات، والمعـاملات، وغيرهـا؛ وعقل الرشد . وهو أن يحسن الإنسان التصرف .؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك منافٍ للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشـديد على من كـان هـذا دأبـه؛ فقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم "أنه يـؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه" . و"الأقتاب" هي الأمعاء . "فيـدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولـون: يا فلان، أليس كنت تأمرنا بـــالمعروف، وتنهانا عن المنكــر، فيقــول: كنت آمــركم بـالمعروف ولا آتيـه، وأنهـاكم عن المنكر وآتيـه"[2] ؛ فهو من أشد الناس عذاباً . والعياذ بالله ...

فإن قال قائل: بناءً على أنه مخالف للعقل، وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أَمَر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: "لا تأمر، ولا تنهَ"؟

فالجواب: نقـول: لا، بل مُـرْ، وافعل ما تـأمر بـه؛ لأنه لو تـرك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين: الأولى: ترك الأمر بالمعروف؛ والثانيـة: عدم قيامه بما أمر به؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين: الأولى: تـرك النهي عن المنكـر؛ والثانيـة: ارتكابه للمنكر..

ثم نقــول: أينا الــذي لم يســلم من المنكــر! لو قلنــا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يـأت منكـراً لم يَنـهَ أحد عن منكـر؛ ولو قلنـا: لا يـأمر أحد بمعـروف إلا من أتى المعـروف لم يـأمر أحد بمعـروف؛

---

[1] سبق تخريجه ص79.

[2] أخرجه البخاري ص264، كتاب بدء الخلق، باب 10: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم 3267؛ وأخرجه مسلم ص1195، كتاب الزهد والرقائق، باب 7: من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم 7483 [51] 2989.

ولهـذا نقـول: مُـرْ بـالمعروف، وجاهد نفسك على فعلـه، وانْـهَ عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه..

.2 ومن فوائد الآية: توبيخ العالم المخالف لما يأمر به، أو لما ينهى عنـه؛ وأن العـالم إذا خـالف فهو أسـوأ حـالاً من الجاهـل؛ لقوله تعـالى: { وأنتم تتلـون الكتـاب }؛ وهـذا أمر فُطر النـاس عليه . أن العالم إذا خالف صار أشد لوماً من الجاهل .؛ حـتى العامة تجـدهم إذا فعل العالِم منكـراً قـالوا: كيف تفعل هـذا وأنت رجل عـالم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟!.

.3 ومن فوائد الآية: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: { أفلا تعقلون }..

.4 ومنها: أن من أمر بمعروف، ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم . والعياذ بالله ...

القـرآن

)وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة:45)

التفسير:

.{ 45 } قوله تعالى: { واستعينوا بالصبر والصلاة } أي استعينوا على أمـــوركم بالصـــبر، والصـــلاة؛ و "الاســـتعانة" هي طلب العـــون؛ و "الاسـتعانة بالصـبر" أن يصـبر الإنسـان على ما أصـابه من البلاء، أو حُمِّل إيـاه من الشـريعة؛ و{ الصـلاة } هي العبـادة المعروفـة؛ وتعم الفرض، والنفل..

قوله تعالى: { وإنها }: قيل: إن الضمير يعود على { الصـلاة }؛ لأنها أقـرب مـذكور؛ والقاعـدة في اللغة العربية أن الضـمير يعـود إلى أقـرب مـذكور ما لم يمنع منه مـانع؛ وقيل إن الضـمير يعـود على الاســـتعانة المفهومة من قوله تعـــالى: { واســـتعينوا }؛ لأن الفعل { استعينوا } يدل على زمن، ومصدر؛ فيجوز أن يعـود الضـمير على المصدر المفهوم من الفعل، كما في قوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة: 8]، أي العدل المفهوم من قوله تعالى: { اعدلوا } أقرب للتقوى؛ لكن المعنى الأول أوضح..

قوله تعـــالى: { لكبـــيرة } أي لشـــاقة { إلا على الخاشـــعين } أي الذليلين لأمر الله..

الفوائد:

.1من فوائد الآية: إرشاد الله - تبارك وتعـالى - عبـاده إلى الاسـتعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة..

.2 ومنها: جواز الاسـتعانة بغـير اللـه؛ لكن فيما يثبت أن به العـون؛ فمثلاً إذا استعنت إنساناً يحمل معك المتاع إلى الـبيت كـان جـائزاً؛ قال النبي صـلى الله عليه وسـلم "وتعين الرجل في دابتـه، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة[1]" ..

أما الاستعانة بما لا عـون فيه فهي سـفه في العقـل، وضـلال في الـدين، وقد تكـون شـركاً: كـأن يسـتعين بميت، أو بغـائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه..

---

[1] سبق تخريجه ص14.

.3 ومن فوائد الآيــة: فضــيلة الصــبر، وأن به العــون على مكابــدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقســيم من الاستقراء؛ الأول: الصبر على طاعة الله؛ والثاني: الصــبر عن معصــية اللــه؛ والثــالث: الصــبر على أقــدار الله ؛ فالصــبر على الطاعة هو أشقها، وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفاً اختيارياً: فعل الطاعــة؛ وكــفّ النفس عن التهــاون بهــا، وعــدم إقامتــه؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقـط؛ لكنه أحياناً يكون شديداً على النفس؛ ولهذا جعل النبي صـلى الله عليه وسلم الشاب الـذي دعته امـرأة ذات منصـب، وجمـال، فقـال: "إني أخــاف اللــه"[2] في رتبة الإمــام العــادل من حيث إن الله يظله في ظله يــوم لا ظل إلا ظله . وإن كــان الإمــام العــادل أفضل .؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفــاء المانع فيما إذا كان خالياً بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: "إني أخــاف اللــه"؛ ربما يكــون هــذا الصــبر أشق من كثــير من الطاعــات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العــوارض الــتي تعــرض لبعض النـاس؛ إنما نتكلم عن الشـيء من حيث هـو؛ فالصـبر على الطاعة أفضل من الصــبر عن المعصــية؛ والصــبر عن المعصــية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيـار للإنسـان في دفع أقـدار اللـه؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صــبر معين في شــخص معين؛ قد يكــون بعض النــاس يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلـك، ويكـون هـذا أشق عليه من كثـير من الطاعـات من حيث الانفعـال النفسـي؛ والصـبر على أقـدار الله ليس من المكلف فيه عمـل؛ لأن ما وقع لابد أن يقع . صبرت، أم لم تصبر .: هل إذا جزعت، وندمت، واشــتد حزنك يرتفع المقدور؟!.

الجواب: لا؛ إذاً كما قـال بعض السـلف: إما أن تصـبر صـبر الكـرام؛ وإما أن تسلو سُلوّ البهائم..

.4 ومن فوائد الآية: الحث على الصـبر بـأن يحبس الإنسـان نفسـه، ويُحمِّلها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهـذا مجـرب . أن الإنسـان إذا صبر أدرك مناله؛ وإذا ملّ كسل، وفاته خير كثير .؛ ولهـذا قـال النــبي صـلى الله عليه وسـلم: "احـرص على ما ينفعـك، واسـتعن بالله، ولا تعجز"[3] ؛ وكثـير من النـاس يـرى أن بداءته بهـذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصـوده بسـرعة، فيعجـز، ويكِـلّ، ويترك؛ إذاً ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمناً كثيراً؛ ولا يـأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثانٍ أن يصـيبه مثل ما أصـابه أولاً، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعـه؛ فليصـبر: لنفـرض أن إنسـاناً من طلبة العلم همّ أن يحفظ: "بلوغ المرام"، وشرع فيه، واسـتمر حـتى حفظ نصـفه؛ لكن

---

[2] أخرجه البخاري ص567 – 568، كتاب الحدود، باب 19: فضل من ترك الفواحش، حديث رقم 6806؛ وأخرجه مسلم ص840، كتاب الزكاة، باب 30: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم 2380 [91] 1031.

[3] أخرجه مسلم ص1142، كتاب القدر، باب 8: الإيمان بالقدر والإذعان له، حديث رقم 6774 [34] 2664.

لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس..

.5 ومن فوائد الآية: فضيلة الصلاة، حيث إنها مما يستعان بها على الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: {والصلاة }؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر صلى[1] ؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[2].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عوناً للإنسان؟

فالجواب: تكون عوناً إذا أتى بها على وجه كامل . وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل همّ؛ لأنه اتصل بالله عزّ وجلّ الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "جعلت قرة عيني في الصلاة"[3] ؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: 45] ؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر . هو على ما هو عليه .؛ لا لانَ قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة..

.6 ومن فوائد الآية: أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة..

.7 ومنها: أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين . ولا سيما الصلاة ...

.8 ومنها: أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته..

---

[1] أخرجه أحمد 5/388، حديث رقم 23688؛ وأخرجه أبو داود ص1321، كتاب الصلاة، باب 22: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، حديث رقم 1319، ومدار الحديث على محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي، قال الذهبي: "ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار". ميزان الاعتدال (3/595) رقم 7747، وأقره الحافظ في تهذيب التهذيب 9/241، وقال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب: "مجهور"، تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليماني ولم يوثقه أحد 3/272، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود بإسناد حسن 3/172.

[2] راجع البخاري ص234، كتاب الجهاد، باب 89: ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والقميص في الحرب، حديث رقم 2915؛ ومسلماً ص990، كتاب الجهاد، باب 18: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم 4588 [58] 1763؛ والسيرة النبوية لابن هشام 2/196.

[3] أخرجه أحمد 3/128، حديث رقم 12318؛ وأخرجه النسائي ص2307، كتاب عشرة النساء، باب 1: حب النساء، حديث رقم 3391، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح 3/57، حديث رقم 3949.

القـرآن

)الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة:46)

التفسير:

.{ 46 } قوله تعـالى: { الـذين يظنـون } أي يـتيقنون؛ و "الظن" يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين، وله أمثلة كثيرة؛ منها قول الله . تبـارك وتعـالى .: {حـتى إذا ضـاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه} [التوبـة: 118] ، وقوله تعالى: {ورأى المجرمون النار فظنـوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً} [الكهف: 53] ..

قوله تعالى: { أنهم ملاقو ربهم } أي أنهم سـيلاقون الله عـزّ وجـلّ؛ وذلك يوم القيامة..

قوله تعـالى: {وأنهم إليه راجعـون} أي في جميع أمـورهم، كما قـال تعالى: {وإليه يرجع الأمر كله} [هود: 123] ، وقال تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور}(البقرة: 210)

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: إثبات ملاقاة الله عزّ وجلّ؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء..

.2 ومنها: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فَثَمّ أدلة أخرى كثيرة تدل على ثبوت رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة..

.3 ومنها: أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أموراً:.

أولاً: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله، فسوف تخاف منه..

ثانياً: مراقبة الله عزّ وجلّ . المراقبة في الجوارح .؛ والخوف في القلب؛ يعني أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله، فسوف يخشونه في السرّ، والعلانية..

ثالثاً: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك..

القرآن

)يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة:47)

التفسير:

.{ 47 } قوله تعالى: { يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي } أي بألسنتكم، وقلوبكم؛ والمراد بـ "النعمة" . وإن كانت مفردة . جميع النعم، كما قال الله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} (إبراهيم: 34)

قوله تعالى: { التي أنعمت عليكم }: وهي نعم كثيرة؛ منها ما ذكّرَهم بها نبيهم موسى . عليه الصلاة والسلام .، حيث قال: {اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين} [المائدة: 20] : وهي نعم عظيمة دينية، ودنيوية؛ فالدينية في قوله: {إذ جعل فيكم أنبياء} ؛ والدنيوية في قوله: {وجعلكم ملوكاً} ؛ و {آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين} : من النعمتين..

قوله تعالى: { وفضلتكم على العالمين } أي جعلتكم أفضل من غيركم؛ والمراد عالَم زمانهم؛ وأصل "عالمين" كل من سوى الله، كما قال تعالى: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة] ؛ فليس ثم إلا رب، ومربوب؛ العالَم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالَم من سوى الله؛ وسمي عالماً؛ لأنه عَلَم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: أنه يجب على بـني إسـرائيل أن يـذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعـوا محمـداً صـلى الله عليه وسلم
.2 ومنها: إظهـار أن هـذه النعمة لم تـأت بكسـبهم، ولا بكـدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعـالى: (أنعمت عليكم)

.3 ومنها: أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: { وأني فضـلتكم على العـالمين }؛ لأنهم في ذلك الـوقت هم أهل الإيمان؛ ولـذلك كُتب لهم النصر على أعـدائهم العمالقـة، فقيل لهم: {ادخلـوا الأرض المقدسة الـتي كتب الله لكم} [المائـدة: 21] ؛ و "الأرض المقدسـة" هي فلسـطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسـطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سـبحانه وتعـالى يقـول: {ولقد كتبنا في الزبـور من بعد الـذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: 105] ، وقال موسى لقومه: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبـاده} [الأعـراف: 128] ، ثم قال: {والعاقبة للمتقين} [الأعراف: 128] ؛ إذاً المتقون هم الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسـة؛ لأنهم ليسـوا من عبـاد الله الصـالحين؛ أما في وقت موسى فكـانوا أولى بها من أهلهـا؛ وكـانت مكتوبة لهم، وكـانوا أحق بهـا؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النـبي صـلى الله عليه وسـلم صـار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون . لا العرب .؛ ففلسطين ليس العـرب بوصفهم عرباً هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصـفهم مسـلمين . لا غير وبوصفهم عبـاداً لله عـزّ وجـلّ صـالحين؛ ولـذلك لن ينجح العـرب فيما أعتقد . والعلم عند الله . في اسـترداد أرض فلسـطين باسم العروبة أبـداً؛ ولا يمكن أن يسـتردوها إلا باسم الإسـلام على ما كـان عليه النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وأصـحابه، كما قـال تعالى: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} [الأعـراف: 128] ؛ ومهما حـاول العـرب، ومهما ملـؤوا الـدنيا من الأقـوال والاحتجاجـات، فـإنهم لن يفلحـوا أبـداً حـتى ينـادوا بـإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام . بعد أن يطبقوه في أنفسهم .؛ فإن هم فعلـوا ذلك فسـوف يتحقق لهم ما أخـبر به النـبي صـلى الله عليه وسلم "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُـودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْـلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُـودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَـرِ، وَالشَّـجَرِ، فَيَقُـولُ الْحَجَرُ، أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَـذَا يَهُـودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَـالَ فَاقْتُلْهُ"[1] ؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهـود يقـول: "يا عبد الله" . باسم العبودية لله .، ويقـول: "يا مسـلم" . باسم الإسـلام .؛ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "يقاتل المسلمون اليهود" ، ولم يقل: "العرب"..

---

[1] أخرجه البخاري ص235، كتاب الجهاد والسير، باب 94: قتال اليهود، حديث رقم 2926؛ وأخرجه مسلم ص1184، كتاب الفتن، باب 18: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم 7339 [82] 2922.

ولهــذا أقــول: إننا لن نقضي على اليهــود باسم العروبة أبــداً؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الأرض يرثها عبـادي الصـالحون} [الأنبيـاء: 105] : فجعل المـيراث لعبـاده الصـالحين؛ وما عُلِّق بوصف فإنه يوجد بوجـوده، وينتفي بانتفائـه؛ فـإذا كنا عبـادَ الله الصـالحين ورثناها بكل يسر وســهولة، وبــدون هــذه المشــقات، والمتــاعب، والمصاعب، والكلام الطويل العـريض الـذي لا ينتهي أبـداً!! نسـتحلها بنصر الله عزّ وجلّ، وبكتابة الله لنا ذلك . وما أيســره على الله .! ونحن نعلم أن المســلمين ما ملكــوا فلســطين في عهد الإســلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المـدائن عاصـمة الفـرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعياً صحيحاً بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي . لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصـية .! ولعل بعضـنا سـمع قصة سـعد بن أبي وقــاص رضي الله عنه حينما كســرت الفُــرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسـلمون إليهم؛ فسـخَّر الله لهم البحـر؛ فصـاروا يمشـون على ظهر المـاء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشــون على المــاء كما يمشــون على الأرض لا يغطي المـاء خفـاف الإبـل؛ وإذا تعب فـرس أحـدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يسـتريح عليهـا؛ وهـذا من آيـات الله . ولا شك .؛ والله تعالى على كل شيء قـدير؛ فالـذي فلق البحر لموسى . عليه الصـلاة والسـلام . ولقومـه، وصـار يبسـاً في لحظـة، ومشـوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك..

فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كـانوا عبـاد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العـالمين؛ بل منهم القـردة، والخنـازير؛ وهم أذل عبـاد الله لقوله تعـالى: {ضـربت عليهم الذلة أين ما ثقفـوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من اللـه} [آل عمـران: 112]ـ ، وقوله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصــنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسـبهم جميعـاً وقلـوبهم شـتى ذلك بـأنهم قوم لا يعقلون} [الحشر: 14] ..

ويدل لذلك . أي أن المراد بقوله تعالى .: { فضلتكم على العــالمين } أي في وقتكم، أو فيمن سـبقكم: قوله تعـالى في هـذه الأمة أمة محمد صــلى الله عليه وســلم: {كنتم خــير أمة أخــرجت للنــاس تأمرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكر وتؤمنـون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكـان خـيراً لهم} [آل عمـران: 110]ـ ؛ فقوله تعـالى: {كنتم خير أمة أخـرجت للنـاس} صـريح في تفضـيلهم على النـاس؛ ولهـذا قال تعالى: { ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم }؛ وقد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أننا نـوفي سـبعين أمة نحن أكرمهـا،

وأفضـــلها عند الله عـــزّ وجل[2] . وهـــذا أمر لا شك فيه .، ولله الحمد..

4. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحداً بعلم، أو مال، أو جـاه فـإن ذلك من النعم العظيمـة؛ لقوله تعـالى: { وأني فضـلتكم على العالمين }: خصها بالذكر لأهميتها..

5. ومنها: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم . حتى الرسل يفضل بعضهم بعضاً .، كما قال تعـالى: {تلك الرسل فضـلنا بعضهم على بعض} [البقرة: 253] ، وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: 55] ..

القـرآن

)وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) (البقرة:48)

التفسير:

.{ 48 } قوله تعالى: { واتقوا يوماً } أي اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله..

قوله تعالى: { لا تجـزي نفس عن نفس شـيئاً } أي لا تغـني؛ و{ نفس } نكـرة في سـياق النفي، فيكـون عامـاً؛ فلا تجـزي، ولا تغني نفس عن نفس أبداً . حتى الرسول صلى الله عليه وسـلم لا يغني شيئاً عن أبيه، ولا أمه .؛ وقد نـادى صـلى الله عليه وسـلم عشيرته الأقربين؛ فجعل ينـادي كل واحد باسـمه، ويقـول: "يا صـفية عمة رسـول اللـه، لا أغـني عنك من الله شـيئاً؛ يا فاطمة بنت رسـول اللـه، لا أغـني عنك شـيئاً..."[1] . مع أن العـادة أن الإنسـان يدافع عن حريمه، وعن نسائه .؛ لكن في يوم القيامة ليست هنـاك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنسـاب بينهم يومئذ ولا يتسـاءلون} [المؤمنـون: 101] : تـزول الأنسـاب، وينسى الإنسان كل شيء، ولا يسأل أين ولدي، ولا أين ذهب أبي، ولا أين ذهب أخي، ولا أين ذهبت أمي: {لكل امـــرئ منهم يومئذ شــأن يغنيه} [عبس: 37] ..

قوله تعـالى: { ولا يقبل منها شـفاعة } أي لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة؛ و "الشفاعة" هي التوسط للغير بجلب منفعـة، أو دفع مضـرة؛ فشـفاعة النـبي صـلى الله عليه وسـلم لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة[2] : من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن اسـتحق النـار ألا

---

[2] أخرجه أحمد 5/2، حديث رقم 20264؛ وأخرجه الترمذي ص1954، كتاب تفسير القرآن، باب 3: ومن سورة آل عمران، حديث رقم 3001؛ وأخرجه ابن ماجة ص2737، كتاب الزهد، باب 34: صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 4288، وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن 3/32، حديث رقم 2399.

[1] أخرجه البخاري ص221، كتاب الوصايا، باب 11: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم 2753؛ وأخرجه مسلم ص716، كتاب الإيمان، باب 89: في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين...)، حديث رقم 504 [351] 206.

[2] راجع مسلماً ص715، كتاب الإيمان، باب 85: في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أول الناس يشفع في الجنة..."، حديث رقم 483 [330] 196؛ وباب 84: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم

يدخلها[3] ، وفيمن دخلها أن يخرج منها[4] : من دفع المضرة؛ فيومَ القيامة لا تجـــزي نفس عن نفس شـــيئاً، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبداً..

قوله تعـالى: { ولا يؤخذ منها } أي من النفس؛ { عـدل } أي بـديل يعدل به عن الجزاء؛ و "العدل" بمعنى المعادِل المكافئ؛ ففي الدنيا قد تجب العقوبة على شخص، ويفتدي نفسه ببدل؛ لكن في الآخـرة لا يمكن..

قوله تعـالى: { ولا هم ينصــرون } أي لا أحد ينصــرهم . أي يمنعهم من عـذاب الله .؛ لأن الـذي يخفف العـذاب واحد من هـذه الأمـور الثلاثة: إما شفاعة؛ وإما معادلة؛ وإما نصر..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: التحذير من يـوم القيامـة؛ وهـذا يقع في القـرآن كثيراً؛ لقوله تعـالى: { واتقـوا يومـاً ترجعـون فيه إلى الله }، وقوله تعالى: {يوماً يجعل الولدان شيباً} [المزمل: 17] ..

2. ومنهـا: أنه في يـوم القيامة لا تجــزي نفس عن نفس شــيئاً . بخلاف الدنيا .: فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة: لا..

3. ومنها: أن الشـفاعة لا تنفع يـوم القيامـة؛ والمـراد لا تنفع من لا يستحق أن يشفع له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبـوت الشـفاعة . وهي معروفة في مظانها من كتب الحـديث، والعقائد ...

4. ومنها: أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداءً يعدل به؛ لقوله تعالى: (ولا عدل)

5. ومنها: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كـان من العصـاة؛ ولهـذا قال الله تعالى: {ما لكم لا تناصرون * بل هم اليـوم مستسـلمون} [الصافات: 25، 26] ؛ فلا أحد ينصر أحداً يـوم القيامة . لا الآلهـة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم ...

القـرآن

)وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة:49)

التفسير:

482 [329] 195؛ وفيه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة...

[3] قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم، فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين..." (2/177 – 178)، وذكر الحافظ ابن حجر أن دليل هذا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث حذيفة عند مسلم: "ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم، رب سلم" (فتح الباري 11/428)؛ مسلم ص715، كتاب الإيمان، باب 84: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم 482 [329] 195.

[4] راجع البخاري ص625 – 626، كتاب التوحيد، باب 36: كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم 7510؛ ومسلماً ص714، كتاب الإيمان، باب 84: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم 479 [326] 193.

.{ 49 } قوله تعالى: { وإذ نجيناكم من آل فرعون } أي واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون؛ والمراد بـ{ آل فرعون } جماعة فرعون، ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلِّط لهم على بني إسرائيل..

وكان بنو إسرائيل مستضعفين في مصر، وسُلِّط عليهم الفراعنة حتى كانوا كما قال الله تعالى: { يسومونكم سوء العذاب }؛ ومعنى "السوم" في الأصل: الرعي؛ ومنه السائمة . أي الراعية . والمعنى: أنهم لا يرعونكم إلا بهذا البلاء العظيم و{ سوء العذاب } أي سيئه وقبيحه..

قوله تعالى: { يذبحون أبنائكم }: الفعل مضَعَّف . أي مشدد . للمبالغة؛ لكثرة من يذْبحون، وعظم ذبحهم؛ هذا وقد جاء في سورة الأعراف: { يقتلون } وهو بمعنى { يذبحون }؛ ويحتمل أن يكون مغايراً له؛ فيُحمل على أنهم يقتلون بعضاً بغير الذبح، ويذبحون بعضاً؛ وعلى كلٍّ فالجملة بيان لقوله تعالى: { يسومونكم سوء العذاب}؛ هذا وجاء في سورة إبراهيم: { يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم } بالواو عطفاً على قوله تعالى: { يسومونكم }؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب . وهو التنكيل، والتعذيب . وبين الذبح..

قوله تعالى: { ويستحيون نساءكم } أي يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدماً لآل فرعون؛ وهذا . والعياذ بالله. من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: {فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل} [الشعراء: 57ـ 59] وقال تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين} [الدخان: 25 . 28] . وهم بنو إسرائيل ...

قوله تعالى: { وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم } أي وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزّ وجل عظيم. أي اختبار عظيم .؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون..

.2 ومنها: أن الإنجاء من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى:
(نجيناكم)

.3 ومنها: بيان حنق آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: {اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم} [غافر: 25]ـ ، وقال في سورة الأعراف: {سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} (الأعراف: 127)

وذكر بعض المؤرخين أن هـذا التقتيل كـان قبل بعثة موسـى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبـني إسـرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضـدوا هـذا القـول بما أوحى الله تعـالى إلى أم موسـى: {أن أرضـعيه فـإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني} [القصص: 7] ؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخـاف عليه إما من هـذا الفعل العـام الـذي يقتَّل به الأبنـاء، أو بسـبب آخـر، وآية الأعـراف: {قـالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} [الأعـراف: 129] لا دليل فيها صـراحة على أن التقتيل كـان قبل ولادة موسى عليه السـلام؛ لأن الإيـذاء لا يـدل على القتـل، ولأن فرعـون لم يقـل: سـنقتل أبنـاءهم، ونسـتحيي نسـاءهم إلا بعد أن أرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قـال موسى عليه السـلام لقومه بعد ذلـك: {إسـتعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} (الأعـراف: 128)

4. ومنها: أن الـرب سـبحانه وتعـالى له مطلق التصـرف في عبـاده بما يسوؤهم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى:

{ من ربكم } يعـني هـذا العـذاب الـذي سـامكم إيـاه آل فرعـون، والإنقاذ منـه؛ كله من الله عـزّ وجـلّ؛ فهو الـذي بيـده الخـير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء..

القـرآن

)وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) (البقرة:50)

التفسير:

{ 50 }. قوله تعالى: { وإذ }: متعلقة بمحذوف؛ والتقدير: واذكروا . يعـني بـني إسـرائيل . إذ؛ { فرقنا بكم البحر } أي فلقنـاه لكم، وفصلنا بعضه عن بعض حتى عبرتم إلى الشاطئ..

قوله تعـالى { فأنجينـاكم وأغرقنا آل فرعـون }: وذلك أن موسـى، وقومه لما تكاملوا خارجين من هـذا الـذي فلقه الله عـزّ وجـلّ من البحر دخل فرعـون، وقومـه؛ فلما تكـاملوا داخلين أمر الله تعـالى البحر، فانطبق عليهم، فغرقوا جميعاً..

قوله تعالى: { وأنتم تنظرون }: الجملة هذه حالية . أي أن هذا وقع والحـال أنكم تنظـرون؛ ولهـذا قـال الله . تبـارك وتعـالى . لفرعـون: {فاليوم ننجيك ببدنك لتكـون لمن خلفك آيـة} [يـونس: 92] ينظـرون إليك أنك قد هلكت..

الفوائد:

1. من فوائد الآيـــة: مناســـبة قوله تعـــالى: { وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون }لما قبله ظاهرة جداً، وذلك أنه لما ذكر الله سـبحانه وتعـالى تسـلُّطَ آل فرعـون عليهم ذكر مـآل هـؤلاء المتسـلطين؛ وأن الله أغـرقهم، وأنجى هـؤلاء، وأورثهم أرضـهم، كما قـال الله تعـالى: {وأورثناها بـني إسـرائيل} (الشعراء: 59).

.2 ومنها: تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم..
.3 ومنها: بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله . تبارك وتعالى . أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم . أي كالجبل العظيم؛ وثم وجه آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت يبساً في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبساً، كما قال تعالى: {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى} [طه: 77] ؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض . حتى لا ينْزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى..
وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير . رحمه الله في "البداية والنهاية" أنه ما من آية سبقت لرسول إلا لرسولنا صلى الله عليه وسلم مثلها: إما له صلى الله عليه وسلم هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رحمه الله في "البداية والنهاية" على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشَوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل، ومشيهم على الأرض اليابسة..
.4من فوائد الآية: أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: { وأغرقنا آل فرعون }؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} [يونس: 90] الآيتين..
.5 ومنها: أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم} [التوبة: 14، 15] ؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عزّ وجلّ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نُصروا بالريح التي أرسلها الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: {فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها} [الأحزاب: 9] ..
.6 ومن فوائد الآية: عتوّ بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغياناً، وتكذيباً للرسل، واستكباراً عن عبادة الله عزّ وجلّ..
.7 ومنها: أن الله تعالى سخِر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى . عليه الصلاة والسلام؛ وقد كان فرعون يقول: {يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري

من تحـتي أفلا تبصـرون * أم أنا خـير من هـذا الـذي هو مهين ولا يكاد يبين} [الزخرف: 51 ـ 52] ؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مهين، ولا يكاد يبين..

القرآن

)وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) (البقرة:51)) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:52)

التفسير:

.{ 51 } قوله تعالى: { وإذ واعدنا موسى } أي واذكروا إذ واعـدنا موسـى؛ { أربعين ليلة }: وعـده الله تعـالى لميقاته ثلاثين ليـلة، ثم أتمها بعشـر، فصـارت أربعين ليلـة؛ وفي قوله تعـالى: { واعــدنا } قراءتان سبعيتان: بألف بعد الواو؛ وبدونها..

قوله تعالى: { ثم اتخـذتم العجل } أي صـيرتم العجـل؛ و{ العجل } مفعــول أول؛ والثــاني: محــذوف؛ والتقــدير: اتخــذتم العجل إلهــاً؛ و "العجل" تمثال من ذهب صنعه السامري، وقال لبـني إسـرائيل: هـذا إلهكم، وإله موسى فنسي..

قوله تعــــالى: { من بعـــــده } أي من بعد موسى حين ذهب لميقات الله..

قوله تعالى: { وأنتم ظالمون }: هذه الجملة حال من التاء في قوله تعـالى: { اتخـذتم }؛ والفائـدة من ذكر هـذه الحـال زيـادة التـوبيخ، وأنهم غير معذورين..

.{ 52 } قوله تعالى: { ثم عفونا عنكم } أي تجاوزنا عن عقوبتكم؛ { من بعد ذلك }: أتى بهــا؛ لأن العفو إنما حصل حين تــابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم..

قوله تعــــالى: { لعلكم تشـــكرون }، "لعــــل" هنا للتعليـــــل؛ و{ تشكرون } أي تشكرون الله على نعمه؛ والشكر يكـون بـالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عـزّ وجـلّ، وأن له المنة في ذلك؛ ويكون باللسـان: وهو التحـدث بنعمة الله اعترافـاً . لا افتخـاراً؛ ويكـــون بـــالجوارح: وهو القيـــام بطاعة المنعِم؛ وفي ذلك يقـــول الشاعر:.

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: حكمة الله . تبارك وتعـالى . في تقـديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة ليَنَـزِّل عليه فيها التـوراة . مع أنه سـبحانه وتعالى قادر على أن يَنزِّلها في ليلة مـرة واحـدة؛ ولكن لحكمة . لا نعلم ما هي . وعــده الله تعــالى ثلاثين ليلة أولاً، ثم أتمها بعشــر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة..

.2 ومنها: بيـان جهل بـني إسـرائيل الجهل التـام؛ وجه ذلك أن هـذا الحلي الذي جعلوه إلهاً هم الـذين صـنعوه بأنفسـهم؛ فقد اسـتعاروا حلياً من آل فرعـون، وصـنعوه على صـورة الثـور عجلاً جسـداً . لا

روح فيه؛ ثم قال السامري: {هذا إلهكم وإله موسى فنسي} [طه: 88] ؛ وزعموا أن موسى ضلّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع رباً لكم، ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى . عليه الصلاة والسلام . حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} [الأعراف: 138] قال لهم نبيهم موسى: {إنكم قوم تجهلون} [الأعراف: 138] ، وصدق عليه الصلاة والسلام..

3. ومن فوائد الآيتين: أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: { وأنتم ظالمون } . وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم..

4. ومنها: سعة حلم الله عزّ وجلّ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفِّقوا لها..

5. ومنها: أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: { لعلكم تشكرون }؛ وإذا كان العفو . وهو زوال النقم . موجباً للشكر فحدوث النعم أيضاً موجب للشكر من باب أولى..

القرآن

)وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (البقرة:53)

التفسير:

. { 53 } قوله تعالى: { وإذ آتينا موسى الكتاب } أي واذكروا إذ أعطينا موسى؛ { الكتاب } أي التوراة..

قوله تعالى: { والفرقان } إما صفة مشبهة، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأن المراد بـ{ الفرقان } الفارق؛ والمراد به هنا الفارق بين الحق والباطل؛ وعطفه هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلاً: قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض} [الأنعام: 1] : المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى} [الأعلى: 1 ـ 4] : المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: { الكتاب والفرقان }: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ{ الكتاب } نفس التوراة؛ و{ الفرقان } صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف..

قوله تعالى: { لعلكم تهتدون }: "لعل" للتعليل؛ أي لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة؛ و{ تهتدون } أي هداية العلم، والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي..

الفوائد:

1. من فوائد الآيـة: أن إنـزال الله تعـالى الكتب للنـاس من نعمـه، وآلائـه؛ بل هو من أكـبر النعم؛ لأن النــاس لا يمكن أن يســتقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبياناً للناس..

2. ومنهـا: أن موسى صـلى الله عليه وسـلم نـبي رسـول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب..

3. ومنهــا: فضــيلة التــوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم { الكتــاب }؛ و "أل" هــذه للعهد الــذهني؛ فــدل هــذا على أنها معروفة لــدى بــني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتـاب عنـدهم فهو التـوراة؛ أيضـاً سـماها الله تعـالى الفرقـان، كما سـمى القـرآن الفرقـان؛ لأن كلا الكتـابين أعظم الكتب، وأهداهما؛ لقوله تعالى: {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما} [القصص: 49] . يعني التــوراة، والإنجيل . {أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: 49] ؛ ودل هذا على أن التـوراة مشـاركة للقــرآن في كونها فرقانــاً؛ ولهــذا كــانت عمــدة الأنبيــاء من بــني إسرائيل، كما قال تعـالى: {إنا أنزلنا التـوراة فيها هـدًى ونـور يحكم بها النــبيون الــذين أسـلموا للــذين هــادوا والربــانيون والأحبــار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء} [المائدة: 44] ..

4. ومن فوائد الآيـة: بيـان عتـوّ بـني إسـرائيل، وطغيـانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نـزلت عليهم فرقانـاً، ثم هم يكفـرون هـذا الكفر دلّ على زيـادة عتـوهم، وطغيـانهم؛ إذ من نُـزِّل عليه كتـاب يكـون فرقاناً كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمناً مذعناً..

5. ومنهـا: أن الله . تبـارك وتعـالى . يُـنزل الكتب، ويجعلها فرقانـاً لغاية حميدة حقاً . وهي الهداية؛ لقوله تعالى: (لعلكم تهتدون)

6. ومنهـــــــا: أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة من السماء . لا يطلبها من الأسـاطير، وقصص الرهبـان، وقصص الزهـاد، والعبــاد، وجعجعة المتكلمين، والفلاســفة، وما أشــبه ذلــك؛ بل من الكتب المنَزلة من السماء..

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهــاد، والعباد، ونحوهم نقـول لكاتبيهـا، وقارئيهـا: خـير لكم أن تبـدو للنـاس كتـاب الله عـزّ وجـلّ، وما صح عن رسـوله صـلى الله عليه وسـلم وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حـتى يكـون ذلك نافعــاً للخلــق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جــاء من عند الله عزّ وجلّ..

7. ومن فوائد الآيـة: إثبـات الأسـباب، وتأثيرها في مسـبَّباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد..

8. ومنها: أن الإيتاء المضاف إلى الله سـبحانه وتعـالى يكـون كونيـاً، ويكون شرعياً؛ مثال الكوني قوله تعالى: {وآتينـاه من الكنـوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة} [القصص: 76] ؛ ومثال الشرعي قوله تعالى: {وآتينا موسى الكتاب} (الإسراء: 2)

القـرآن

)وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:54)

التفسير:

.{ 54 } ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أيضاً فقال: { وإذ قال موسى لقومه } أي واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ { يا قوم } أي يا أصحابي؛ وناداهم بوصف القومية تحبباً، وتودداً، وإظهاراً بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة..

قوله تعالى: { إنكم ظلمتم أنفسكم }: أكد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه؛ و{ ظلمتم } بمعنى نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن "الظلم" في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً} [الكهف: 33] أي لم تنقص..

قوله تعالى: { باتخاذكم العجل }: الباء هنا للسببية . أي بسبب اتخاذكم العجل؛ و "اتخاذ" مصدر فِعْله: اتخذ؛ وهو مضاف إلى فاعله: الكاف؛ و{ العجل } مفعول أول؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً؛ والمعنى: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلهاً تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السامري..

قوله تعالى: { فتوبوا إلى بارئكم } أي ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته؛ و "البارئ" : الخالق المعتني بخلقه؛ فكأنه يقول: كيف تتخذون العجل إلهاً وتَدَعون خالقكم الذي يعتني بكم؛ وهذا كقول إلياس عليه السلام لقومه: {أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين} [الصافات: 125، 126] ..

قوله تعالى: { فاقتلوا أنفسكم }: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالى: { فاقتلوا } تفسير للمجمل في قوله تعالى: { توبوا }؛ وعلى هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل . وهو أن تقتلوا أنفسكم؛ أي ليقتل بعضكم بعضاً؛ وليس المعنى أن كل رجل يقتل نفسه . بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنى قوله تعالى: { فاقتلوا أنفسكم } أي يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنى: ليقتل بعضكم بعضاً: يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحاً . خناجر، وسكاكين، وسيوفاً . وكل واحد منكم يهجم على الآخر، ويقتله..

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أو وقع جهاراً بدون ظلمة؟ فقيل: إنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضاً وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه، فيقتله، وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضاً، ولا يدري مَن قتل..

وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهراً بدون ظلمة، وأن هذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، وأنه لما رأى موسى صلى الله

عليه وسلم أنهم سينتهون . لأنه إذا قتل بعضهم بعضاً لن يبقى إلا واحد . ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكف؛ وقيل: بل سقطت أسلحتهم من أيديهم . والله أعلم..

وظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً عِياناً، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى..

وذهب بعضهم إلى أن المراد: أن يقتل البريء منكم المجرم . يعني الذين دعوا إلى عبادة العجل، وعكفوا عليه يُقتَلون؛ والذين تبرؤوا منه يَقتلون . والله أعلم..

ولكن الظاهر الأول؛ لأن قتل البريء للمجرم ليس فيه دلالة على صدق التوبة من المجرمين؛ لأن الإنسان قد يُقتل وهو مصرّ على الذنب؛ ولا يدل ذلك على توبته..

قوله تعالى: { ذلكم } المشار إليه قتل أنفسهم؛ { خير لكم عند بارئكم } أي من عدم التوبة؛ أو من عدم القتل؛ وهذا من التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ والتفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء وارد في اللغة العربية؛ لكن بعضهم يقول: إنه لا يكون بمعنى التفضيل؛ بل المراد به وجود الخير في هذا الأمر بدون وجود مفضَّل عليه..

قوله تعالى: { إنه هو التواب الرحيم }: هذه الجملة تعليل لما قبلها؛ و{ هو } ضمير فصل؛ وسبق بيان فوائده؛ و{ التواب } أي كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛

و{ الرحيم } أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: { يا قوم }؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر..

2. ومنها: أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: { إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل }..

3. ومنها: أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وجه ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص: "إن لنفسك عليك حقا"[1] ..

4. ومنها: أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: { فتوبوا إلى بارئكم }؛ لأن ذكر "البارئ" هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهاً؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهاً هو البارئ . أي الخالق سبحانه وتعالى..

5. ومنها: وجوب التوبة؛ لقوله: (فتوبوا إلى بارئكم)

---

[1] أخرجه البخاري ص154، كتاب الصوم، باب 51: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، حديث رقم 1968.

6. ومنهــا: أن التوبة على الفــور؛ لقولــه: { فتوبــوا }؛ لأن الفــاء للترتيب، والتعقيب..
7. ومنها: إثبـات الأسـباب، وتأثيرها في مسـبباتها؛ لقوله { باتخـاذكم }: فإن الباء هنا للسببية..
8. ومنها: أنه ينبغي للـداعي إلى الله أن يـبين الأسـباب فيما يحكم به؛ لقوله: (إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل)
9. ومنها: سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صـنعوا وهم يعلمـون أنه لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً، ولا نفعاً..
10. ومنهــا: ما وضع الله تعــالى على بــني إسـرائيل من الأغلال، والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضاً؛ لقوله: { فاقتلوا أنفسكم }..
11. ومنها: أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقولـه: { فـاقتلوا أنفسـكم }؛ لأنهم ما أمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضـهم بعضاً؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {ولا تلمزوا أنفسكم} [الحجـرات: 11] أي لا يلمز بعضـكم بعضـاً؛ وعـبر عن ذلك بــ "النفس" ؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه
12. ومنها: تفاضل الأعمال؛ لقوله: (ذلكم خير لكم عند بارئكم)
13. ومنها: أن الله سـبحانه وتعـالى يتـوب على التـائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: { فتاب عليكم }..
14. ومنهــا: إثبــات اســمين من أســماء الله . وهما { التــواب }، و{ الرحيم }؛ وإثبات ما تضمناه من صـفة . وهي: التوبـة، والرحمـة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما . لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صـــــفة ثالثة . وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب..
15. ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أســماء اللــه؛ فيتعــرض لتوبة الله، ورحمتــه؛ فيتــوب إلى ربه سـبحانه وتعـالى، ويرجو الرحمـة؛ وهـذا هو أحد المعـاني الـتي قـال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحصـاها" . أي أسـماء الله التسعة والتسعين . "دخل الجنة"[1] ؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها..

القـرآن

)وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) (البقرة:55)
(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:56)

التفسير:

[1] اخرجه البخاري ص219، كتاب الشروط، باب 18: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار...، حديث رقم 2736؛ وأخرجه مسلم ص1144، كتاب الذكر والدعاء، باب 2: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم 6810 [6] 2677.

.{ 55 } قوله تعالى: { وإذ قلتم يا موسى } أي: واذكـروا أيضـاً يا بـني إسـرائيل إذ قلتم...؛ والخطـاب لمن كـان في عهد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، لكن إنعامه على أول الأمة إنعـام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم..

قوله تعـالى: { لن نـؤمن لك } أي لن ننقـاد، ولن نصـدق، ولن نعترف لك بما جئت به..

قوله تعالى: { حتى نرى الله جهرة }: { نرى } بمعنى نبصر؛ ولهـذا لم تنصب إلا مفعولاً واحداً؛ لأنها رؤية بصرية؛ واختلف العلماء مـتى كان هذا، على قولين:.

القـول الأول: أن موسى صـلى الله عليه وسـلم اختـار من قومه سبعين رجلاً لميقات الله، وذهب بهم؛ ولما صار يكلم اللـه، ويكلمه الله قالوا: { لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة }؛ فعلى هذا القول يكون صعقهم حينما كان موسى خارجاً لميقات الله..

القول الثاني: أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنـزل الله عليه التوراة، وجاء بها قالوا: "ليست من الله؛ { لن نؤمن لك حتى نـرى الله جهرة }"..

والسـياق يؤيد الثـاني؛ لأنه تعـالى قـال: { وإذ آتينا موسى الكتـاب والفرقـان }، ثم ذكر قصة العجـل، وهـذه كـانت بعد مجيء موسى بالتوراة، ثم بعد ذلك ذكر: { وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حـتى نرى الله جهرة }..

وأما قوله تعـالى: {فلما أخـذتهم الرجفة قـال رب لو شـئت أهلكتهم من قبل وإيـاي أتهلكنا بما فعل السـفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشـاء وتهـدي من تشـاء أنت ولينا فـاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} [الأعراف: 155] فقد أيد بعضهم القـول الأول بهـذه الآيـة؛ ولكن الحقيقة ليس فيه تأييد لهم؛ لأنه تعـالى قال: {فلما أخذتهم الرجفة} [الأعـراف: 155] . رُجِـفَ بهم؛ والأخـرى: أخذتهم الصاعقة . صعقوا، وماتوا..

فالظـاهر لي أن القـول الأول لا يـترجح بهـذه الآية لاختلاف العقوبتين؛ هذه الآية كانت العقوبة بالصـاعقة؛ وتلك كـانت بالرجفة . والله أعلم..

قوله تعالى: { فأخذتكم الصاعقة } يعني المـوت الـذي صـعقوا به؛ { وأنتم تنظرون } أي ينظر بعضكم إلى بعض حين تتسـاقطون؛ والجملة في قوله تعـالى: { وأنتم تنظـرون } حـال من الكـاف في قوله تعالى: { فأخذتكم الصاعقة } يعني: والحال أنكم تنظرون..

.{ 56 } قوله تعالى: { ثم بعثناكم بعد موتكم }: أصل "البعث" في اللغة الإخراج؛ ويطلق على الإحيـاء، كما هـذه الآيـة؛ ويـدل على أن المراد به الإحيـاء هنا قوله تعـالى: { من بعد مـوتكم }؛ وهو مـوت حقيقي، وليس نوماً، لأن النوم يسـمى وفـاة؛ ولا يسـمى موتـاً، كما في قوله تعـالى: {وهو الـذي يتوفـاكم بالليل ويعلم ما جـرحتم بالنهار} [الأنعام: 60] ، وقوله تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها} [الزمر: 42]

وقوله تعـالى: { بعثنـاكم من بعد مـوتكم }: هـذه نعمة كبـيرة عليهم أن الله تعـالى أخـذهم بهـذه العقوبـة، ثم بعثهم ليرتـدعوا؛ ويكـون كفارة لهم؛ ولهذا قال تعالى: { لعلكم تشـكرون } أي تشـكرون الله سبحانه وتعالى؛ و "لعل" هنا للتعليل..

وهذه إحـدى الآية الخمس الـتي في سـورة البقـرة الـتي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقـرة؛ والثالثـة: في الذين خرجوا من ديـارهم وهم ألـوف حـذر المـوت، فقـال الله لهم: {موتوا ثم أحياهم} [البقرة: 243] ؛ والرابعة: في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشـها، فقـال: {أنى يحـيي هـذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه} [البقرة: 259] ؛ والخامسة في قصة إبراهيم: {رب أرني كيف تحيي المـوتى قـال أو لم تـؤمن قـال بلى ولكن ليطمئن قلـبي...} [البقـرة: 260] الآيـة؛ والله تعـالى على كل شيء قدير، ولا ينـافي هـذا ما ذكر الله في قوله تعـالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتـــون * ثم إنكم يـــوم القيامة تبعثـــون} [المؤمنون: 15، 16] ؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها . كإخراج عيسى الموتى من قبـورهم . تعتـبر أمـراً عارضاً يـؤتى به لآية من آيـات الله سـبحانه وتعـالى؛ أما البعث العـام فإنه لا يكـون إلا يـوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الـذين أنكـروا البعث من المشـركين، ويقولـــون: {مـــتى هـــذا الوعد إن كنتم صـــادقين} [الأنبيـــاء: 38] ، ويقولـون: {فـأتوا بآبائنا إن كنتم صـادقين} [الـدخان: 36] نقـول: إن هـؤلاء مموهـون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثـون الآن؛ بل يـوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب..

الفوائد:

1. من فوائد الآيتين: تذكير الله تعـالى بـني إسـرائيل بنعمته عليهم، حيث بعثهم من بعد موتهم.

2 . ومنها: سـفاهة بـني إسـرائيل؛ وما أكـثر ما يـدل على سـفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: { لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة }.

3 . ومنهـــا: أن من ســـأل ما لا يمكن فهو حـــري بالعقوبـــة؛ لقوله تعـالى: { فأخـذتكم الصـاعقة }؛ لأن الفـاء تـدل على السـببية . ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هـذا عن تشـكك؛ وفـرْق بين قول موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [الأعـراف: 143] ، وبين قول هؤلاء: { لن نؤمن لك حـتى نـرى الله جهـرة }؛ فموسى قال ذلك شوقاً إلى الله عزّ وجلّ، وليتلـذذ بالرؤية إليـه؛ أما هـؤلاء فقالوه تشككاً . يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففــرق بين الطلبين.

4 . ومن فوائد الآيـــتين: أن ألم العقوبـــة، ووقعها إذا كـــان الإنســـان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: { وأنتم تنظـرون }؛ فـإن الإنسـان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعاً عليه.

5 . ومنها: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أحيـاهم بعد المـوت؛ لقوله تعالى: ثم بعثناكم من بعد موتكم }.

6 . ومنهـا: وجـوب الشـكر على من أنعم الله عليه بنعمـة؛ لقوله تعالى: { لعلكم تشكرون }؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقراراً بالقلب، واعترافـاً باللسـان، وعملاً بالأركـان؛ فيعـترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كـذلك أيضـاً يتحـدث بها بلسانه اعترافاً . لا افتخاراً؛ وكذلك أيضـاً يقـوم بطاعة الله سـبحانه وتعـالى بجوارحـه؛ وبهـذه الأركـان الثلاثة يكـون الشـكر؛ وعليه قـول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثـةً يـدي ولسـاني والضـمير المحجبا 7 . ومن فوائد الآيتين: إثبـات الحكمة لله تعـالى: لقولـه: { لعلكم تشـكرون }؛ فإن "لعل" هنا للتعليل المفيد للحكمة..

القـرآن

)وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (البقرة:57)

التفسير:

.{ 57 } قوله تعـالى: { وظللنا عليكم الغمـام } أي جعلنـاه ظلاً عليكم؛ وكـان ذلك في التيه حين تـاهوا؛ وقد بقـوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عنـدهم مـاء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليه الغمـام؛ و{ الغمـام } هو السحاب الرقيق الأبيض؛ وقيل: السحاب مطلقاً؛ وقيل: السحاب البارد الذي يكـون به الجو بـارداً، ويتولد منه رطوبـة، فيـبرد الجو . وهذا هو الظاهر..

قوله تعالى: { وأنزلنا عليكم المن }: يقولون: { المن } شـيء يشـبه العسل؛ ينْزل عليهم بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس؛ فـإذا قـاموا أكلـوا منـه؛ { والسـلوى }: طـائر نـاعم يسمى "السُّمَانَي"، أو هو شبيه به؛ وهو من أحسن ما يكون من الطيور، وألذه لحماً..

قوله تعـالى: { كلـوا } الأمر هنا للإباحـة؛ يعـني أننا أبحنا لكم هـذا الـذي أنزلنا عليكم من المن، والسـلوى؛ { من طيبـات ما رزقنـاكم }: { مِنْ } هنا لبيـان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ لأنهم أبيح لهم أن يأكلوا جميع الطيبات..

قوله تعـالى: { وما ظلمونا } أي ما نقصـونا شـيئاً؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين..

قوله تعـالى: { ولكن كـانوا أنفسـهم يظلمـون }: { أنفسـهم } مفعول مقدم لـ{ يظلمون }؛ وقُدِّم لإفـادة الحصر . أي لا يظلمـون بهذا إلا أنفسهم؛ أما الله . تبـارك وتعـالى . فـإنهم لا يظلمونـه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: نعمة الله تبـارك وتعـالى بما هيـأه لعبـاده من الظلِّ؛ فإن الظلّ عن الحـرّ من نعم الله على العبـاد؛ ولهـذا ذكـره الله عــزّ وجــلّ هنا ممتنـاً به على بـني إسـرائيل؛ لقوله تعـالى: { وظللنا عليكم الغمام }، وقوله تعـالى: {والله جعل لكم مما خلق ظلالاً} [النحل: 81] ..

.2 ومنها: أن الغمام يسير بـأمر الله عـزّ وجـلّ، حيث جعل الغمـام ظلاً على هؤلاء..

.3 . ومنهـا: بيـان نعمة الله على بـني إسـرائيل بما إنـزل عليهم من المن، والسـلوى . يـأتيهم بـدون تعب، ولا مشـقة؛ ولهـذا وصف بــ "المن" ..

.4 ومنهـا: أن لحم الطيـور من أفضل اللحـوم؛ لأن الله تعـالى هيأ لهم لحـوم الطـير . وهو أيضاً لحـوم أهل الجنـة، كما قـال تعـالى: {ولحم طير مما يشتهون} (الواقعة: 21)

5. ومنهــا: أن الإنســان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى:

{ كلوا من طيبات ما رزقناكم } [البقـرة: 57] ؛ فـإن الإنسـان لا ينبغي أن يتعفف عن الشـيء المبـاح؛ ولهـذا قـال شـيخ الإسـلام . رحمه اللـه: "من امتنع من أكل الطيبـات لغـير سـبب شـرعي فهو مذموم"؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أبـاح الله له وكأنه يقـول: إنه لا يريد أن يكـــون لله عليه منـــة؛ فالإنســـان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسـان عن اللحم؛ لأن بدنه لا يقبلـه، فيكـون تركه له من باب الحمية؛ وقد يـترك الإنسـان اللحم، لأنه يخشى أن تتسـلى به نفسه حـتى يكـون همه أن يُـذهب طيباته في حياته الـدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الـرزق مراعـاة لغـيره، مثل ما يـذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة . عـام الجـدب المشـهور . أنه كـان لا يأكل إلا الخـبز والـزيت، حـتى اسـود جلـده، ويقـول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جيـاع[1] ؛ فيكـون تركه لـذلك مراعـاة لغيره؛ إذاً من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم..

6. ومنها: أن المباح من الـزرق هو الطيب؛ لقوله تعـالى: (كلـوا من طيبات).

7. ومنها: تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خـبيث لذاتـه؛ وخـبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنْزيـر، والخمـر، وما أشـبهها، كما قال الله تعالى: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرمـاً على طـاعم يطعمه إلا أن يكـــون ميتة أو دمـــاً مســـفوحاً أو لحم خنْزير فإنه رجس} [الأنعـام: 145] أي نجس خـبيث؛ وهـذا محـرم لذاتـه؛ محـرم على جميع النـاس؛ وأما الخـبيث لكسـبه فمثل المـأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكـذب، وما أشـبه ذلـك؛ وهذا محرم على مكتسبه، وليس محرماً على غيره إذا اكتسـبه منه بطريق مبـاح؛ ويـدل لـذلك أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم كـان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يـأكلون السـحت، ويأخـذون الربـا، فـدلّ ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب..

8. ومن فوائد الآيـة: أن بـني إسـرائيل كفـروا هـذه النعمـة؛ لقوله تعالى: (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

9. ومنها: أن العاصي لا يضر الله شيئاً؛ وإنما يظلم نفسه..

القـرآن

)وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَـةَ فَكُلُـوا مِنْهَا حَيْثُ شِـئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُـوا الْبَـابَ سُـجَّداً وَقُولُـوا حِطَّةٌ نَغْفِـرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة:58))فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا قَـوْلاً غَيْـرَ الَّذِي قِيـلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ

[1] البداية والنهاية 10/185.

ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (البقـرة: 59)

التفسير:

.{ 58 } قوله تعالى: { وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية } أي واذكروا يا بني إسـرائيل إذ قلنا ادخلـوا هـذه القريـة؛ و{ ادخلـوا } أمر كـوني، وشـرعي؛ لأنهم أُمـروا بـأن يـدخلوها سـجداً وهـذا أمر شـرعي؛ ثم فُتحت، فدخلوها بالأمر الكوني..

واختلف المفسـرون في تعـيين هـذه القرية ؛ والصـواب أن المـراد بهـا: بيت المقـدس؛ لأن موسى قـال لهم: { ادخلـوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم} [المائدة: 21]؛ و{ القرية } هي البلد المسكون؛ مأخوذة من القرْي. وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسـكونة قرية لتجمع النـاس بهـا؛ ومفهـوم القرية في اللغة العربية غـير مفهومها في العـرف؛ لأن مفهـوم القرية في العـرف: البلد الصـغير؛ وأما الكبـير فيسـمى مدينـة؛ ولكنه في اللغة العربية . وهي لغة القـرآن . لا فـرق بين الصـغير، والكبـير؛ فقد سـمى الله عـزّ وجـلّ مكة قريـة، كما في قوله تعـالى: {وكـأين من قرية هي أشد قـوة من قريتك الـتي أخرجتك أهلكنـاهم فلا ناصر لهم} [محمـد: 13]ـ : المراد بقريته التي أخرجته: مكـة، وقـال تعالى: {وكـذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها} [الشورى: 7] : فسـمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة، والكبيرة..

قوله تعالى: { فكلـوا منها }: الأمر للإباحة أي فأبحنا لكم أن تـأكلوا منها؛ { حيث شئتم } أي في أي مكان كنتم من البلد في وسـطها، أو أطرافها تأكلون ما تشاءون؛ { رغداً } أي طمأنينة، وهنيئاً لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا يمانعكم..

قوله تعـالى: { وادخلـوا البـاب } أي بـاب القريـة؛ لأن القـرى يجعل لها أبواب تحميها من الـداخل، والخـارج؛ { سـجداً } منصـوب على أنه حـال من الـواو في قوله تعـالى: { ادخلـوا } أي سـاجدين؛ والمعنى: إذا دخلتم فاسجدوا شـكراً للـه؛ وعلى هـذا فالحـال ليست مقارنة لعاملها؛ بل هي متأخرة عنه..

قوله تعالى: { وقولـوا حطة } أي قولـوا هـذه الكلمـة: { حطة } أي احطط عنا ذنوبنـا، وأوزارنـا؛ فهي بمعـنى قولـوا: ربنا اغفر لنـا؛ والمـراد: اطلبـوا المغفـرة من الله سـبحانه وتعـالى إذا دخلتم، وسجدتم؛ و{ حطة } خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: سؤالنا حطـة، أو حاجتنا حطة . أي أن تحط عنا ذنوبنـا؛ والجملة من المبتـدأ، والخـبر في محل نصب مقول القول..

قوله تعالى: { نغفر لكم } بنون مفتوحة، وفاء مكسـورة؛ وفي قراءة: { تُغفَر لكم } بتاء مضمومة، وفاء مفتوحة؛ وفي قراءة ثالثة: { يُغفَر } بياء مضمومة وفاء مفتوحـة؛ وكلها قـراءات صـحيحة؛ بأيها قرأت أجزأك..

وقوله تعـالى: { نغفر لكم خطايـاكم }: "المغفـرة" هي سـتر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه أن الله ستر ذنبك، ويتجـاوز عنـك، فلا

يعاقبــك؛ لأن "المغفــرة" مــأخوذة من المغفر . وهو ما يــوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر "المغفـرة" بمجـرد الستر فقد قصَّر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقــرره بذنوبه قــال: "قد ســترتها عليك في الــدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم"[1] أي اليوم أسترها أيضاً، ثم أتجاوز عنها؛ و{ خطايـاكم } جمع خَطِيَّة، كـ"مطايـا" جمع مطيـة؛ و "الخطيـة" ما يرتكبه الإنسـان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى "أخطـاء"؛ ولهـذا يفـرق بين "مخطئ"، و"خـاطئ"؛ الخـاطئ ملـوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: { لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة } [العلق: 15، 16]، وقـال تعـالى: { ربنا لا تؤاخـذنا إن نسـينا أو أخطأنا } (البقرة: 286)

قوله تعــالى: { وســنزيد } أي ســنعطي زيــادة على مغفــرة الذنوب { المحسـنين } أي الـذين يقومـون بالإحسـان، و "الإحسـان" نوعان:.

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسـره رسـول الله صـلى الله عليه وسلم بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه؛ فـإن لم تكن تـراه فإنه يراك[2]" ..

والنوع الثاني: إحسـان في معاملة الخلق وهو بـذل المعـروف، وكفُّ الأذى..

.{ 59 } قوله تعالى: { فبدل الذين ظلموا } أي فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبـديل، والمخالفة { قـولاً غـير الـذي قيل لهم }: وذلك أنهم قالوا: "حنطة في شعيرة" بدلاً عن قولهم: "حطة" ..

وفي قوله تعالى: { فبدَّل الذين ظلموا } إظهار في موضع الإضـمار؛ ومقتضى السـياق أن يكـون بلفـظ: فبـدلوا قـولاً.. إلخ، وللإظهـار في موضع الإضمار فوائد من أهمها:.

أولاً: تحقيق اتصاف محل المضـمر بهـذا الوصـف؛ معـنى ذلـك: الحكم على هؤلاء بالظلم..

ثانياً: أن هذا مقياس لغيرهم أيضاً؛ فكل من بدل القـول الـذي قيل له فهو ظالم؛ فيؤخذ منه تعميم الحكم بعموم علة الوصف..

ثالثــاً: التنبيه أعــني تنبيه المخــاطب؛ لأنه إذا جــاء الكلام على خلاف السياق انتبه المخاطب..

قوله تعـالى: { فأنزلنا } الفـاء للسـببية؛ والمعـنى: فبسـبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا { على الـذين ظلمـوا } أي عليهم؛ { رجـزاً } أي عذاباً؛ لقوله تعالى: {لئن كشفت عنا الرجز} [الأعراف: 134] . أي العذاب . {لنؤمنن لك ولنرسـلن معك بـني إسـرائيل} [الأعـراف: 134]، والعذاب غير الرجس؛ لأن الرجس النجس القـذر؛ والرجـز: العـذاب، { من الســماء } أي من فــوقهم، كالحجـارة، والصــواعق، والبَرَد، والريح، وغيرها؛ والمراد بـ{ السماء } هنا العلوّ، ولا يلزم أن

---

[1] أخرجه البخاري ص192، كتاب المظالم، باب2: قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، حديث رقم 2441؛ وأخرجه مسلم ص1158، كتاب التوبة، باب 8: في سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين وفداء كل مسلم بكافر من النار، حديث رقم 7015 [52] 2768.

[2] أخرجه البخاري ص6، كتاب الإيمان، باب 37: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان...، حديث رقم 50؛ وأخرجه مسلم ص681، كتاب الإيمان، باب 1: بيان الإيمان والإسلام...، حديث رقم 93 [1] 8.

يكون المراد بها السماء المحفوظة؛ لأن كل ما علا فهو سماء ما لم يوجد قرينة كما في قوله تعالى: {وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون} [الأنبياء: 3]
قوله تعالى: { بما كانوا يفسقون }: الباء هنا للسببية . أي بسبب؛ و "ما" مصدرية . أي بكونهم فسقوا؛ وإذا كانت مصدرية فإنه يحول ما بعدها من الفعل، أو الجملة إلى مصدر؛ و{ كانوا }: هل المراد فيما مضى؛ أم المراد تحقيق اتصافهم بذلك؟ الجواب: الثاني؛ وهذا يأتي في القرآن كثيراً؛ و{ يفسقون } أي يخرجون عن طاعة الله عزّ وجلّ..
الفوائد:
.1 من فوائد الآيتين: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { وإذ قلنا ادخلوا }؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: {ولا يحيطون به علماً} [طه: 110] ؛ وهكذا جميع صفات الله عزّ وجلّ لا يمكن إدراك حقائقها..
.2 ومنها: وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا..
.3 ومنها: جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلّ الغنائم من خصائص هذه الأمة . أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك..
.4 ومنها: أنه يجب على من نصره الله، وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع، والشكر لله؛ لقوله تعالى: { وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة }؛ ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخلها مطأطئاً رأسه[1] يقرأ قول الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً} [الفتح: 1] ..
.5ومنها: لؤم بني إسرائيل، ومضادَّتُهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجداً؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكباراً واستهزاءً..
.6 ومنها: بيان قبح التحريف سواء كان لفظياً، أو معنوياً؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص..
.7 ومنها: أن الجهاد مع الخضوع لله عزّ وجلّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: { نغفر لكم خطاياكم }، وسبب للاستزادة أيضاً من الفضل؛ لقوله تعالى: { وسنزيد المحسنين }..
.8 ومنها: أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحساناً في عبادة الله، أو إحساناً إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد

[1] راجع البخاري ص350، كتاب المغازي، باب 49: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، حديث رقم 4281؛ ومسلماً ص803، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب 35: ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم 1854 [238] 794؛ ولم أقف على من أخرجه بلفظ "مطأطئاً رأسه".

ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[2] ؛ وقال: "ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته[3]" ..

9. ومنها: تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى:(فبدل الذين ظلموا قولًا)

10. ومنها: بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء..

11. ومنها: الإشارة إلى عدل الله عزّ وجلّ، وأنه لا يظلم أحداً، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه..

12. ومنها: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده "الإيمان" ، كما في قوله تعالى: {وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار} [السجدة: 20] ؛ و فسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده "العدالة" ، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} (الحجرات: 6)

13. ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: { بما كانوا يفسقون }..

14. ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلماً، والله . تبارك وتعالى . يقول: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: 49].

15. ومنها: أن الفسوق سبب لنُزول العذاب..

القرآن

)وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (البقرة:60)

التفسير:

{ 60 } قوله تعالى: { وإذا استسقى موسى لقومه } أي: واذكر إذ استسقى موسى لقومه . أي طلب السقيا لهم؛ وهذا يعم كونهم في التيه، وغيره..

قوله تعالى: { فقلنا اضرب بعصاك الحجر }: "العصا" معروفة؛ و{ الحجر }: المراد به الجنس؛ فيشمل أيّ حجر يكون؛ وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين؛ وهذه "العصا" كان فيها أربع آيات عظيمة:.

أولاً: أنه يلقيها، فتكون حية تسعى، ثم يأخذها، فتعود عصا..

ثانياً: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيوناً..

---

[2] أخرجه مسلم ص1147، كتاب الذكر والدعاء، باب 11: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم 6853 [38] 2699.

[3] أخرجه البخاري ص192، كتاب المظالم، باب 3: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم 2442؛ وأخرجه مسلم ص1129، كتاب البر والصلة، باب 15: تحريم الظلم، حديث رقم 6578 [58] 2580.

ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود العظيم..
رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم، وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون..

قوله تعالى: { فانفجرت منه }؛ "الانفجار": الانفتاح، والانشقاق؛ ومنه سمي "الفجر"؛ لأنه ينشق به الأفق؛ فمعنى { انفجرت } أي تشققت منه هذه العيون..

قوله تعالى: { اثنتا عشرة عيناً }؛ { عيناً }: تمييز؛ وكانت العيون اثنتي عشرة؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة أسباطاً؛ لكل سبط واحدة..

قوله تعالى: { قد علم كل أناس } أي من الأسباط { مشربهم } أي مكان شربهم، وزمانه حتى لا يختلط بعضهم ببعض، ويضايق بعضهم بعضاً..

وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل؛ وهي من نعمة الله على موسى؛ أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته؛ وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنها مزيلة لعطشهم، ولظمئهم..

قوله تعالى: { كلوا واشربوا } الأمر هنا للإباحة فيما يظهر؛ { من رزق الله } أي من عطائه، حيث أخرج لكم من الثمار، ورزقكم من المياه..

قوله تعالى: { ولا تعثوا في الأرض مفسدين } أي لا تسيروا مفسدين؛ فنهاهم عن الإفساد في الأرض؛ فـ"العُثو"، و"العِثي" معناه الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: 41].

الفوائد:

1. من فوائد الآية: مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشرع من قبلنا شرع لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي في خطبة الجمعة[1] ، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم[2] ..
2. ومنها: أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض..
3. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى..
4. ومنها: أن الرسل . عليهم الصلاة والسلام . كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء..

---

[1] راجع البخاري ص79، كتاب الاستسقاء، باب 7: الاستسقاء في خطبة الجمعةن حديث رقم 1014؛ وصحيح مسلم ص817 – 818، كتاب صلاة الاستسقاء، باب 2: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم 2078 [8] 897.

[2] راجع البخاري ص80، كتاب الاستسقاء، وراجع مسلماً ص817، كتاب صلاة الاستسقاء، باب 1: كتاب صلاة الاستسقاء حديث رقم 2072 [3] 894.

.5ومنها: رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: { وإذا استسقى موسى لقومه }..
.6 ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قادر جواد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي..
.7 ومنها: إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: { فقلنا }؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدل على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه..
.8 . ومنها: كمال قدرة الله عزّ وجلّ، حيث إن موسى صلى الله عليه وسلم يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيوناً؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عزّ وجلّ، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه..
.9 ومنها: الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيوناً مع أن الحجر صلب، ويابس؛ وقد وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم، حيث أتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون[3] ؛ ووجه كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيوناً بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار} [البقرة: 74] ؛ ووجه آخر: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة..
.10 ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عيناً؛ لفائدتين:.
الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عيناً واحدة لحصلت مشقة الزحام..
الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة، والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطاً؛ فلو كانوا جُمعوا في مكان واحد مع الضيق، والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله . تبارك وتعالى . ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عيناً، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: { قد علم كل أناس مشربهم }: كل أناس من بني إسرائيل..
.11 من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى يذكِّر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى: (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)
.12 ومنها: أن ما خلق الله تعالى من المأكول، والمشروب للإنسان فالأصل فيه الإباحة، والحل؛ لأن الأمر للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حل شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات، والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحل، والإباحة..
.13 ومنها: تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: { ولا تعثوا في الأرض مفسدين }؛ والأصل في النهي التحريم..

---
[3] راجع البخاري ص19، كتاب الطهارة، باب الوضوء في التور، حديث رقم 200.

القـرآن

)وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَــى لَنْ نَصْــبِرَ عَلَى طَعَــامٍ وَاحِــدٍ فَــادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْــرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَـالَ أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُـوا مِصْـراً فَـإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَـاءُوا بِغَضَـبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ ذَلِـكَ بِمَا عَصَـوْا وَكَـانُوا يَعْتَـدُونَ) (البقرة:61)

التفسير:

.{ 61 } قوله تعـالى: { وإذ قلتم يا موسى لن نصـبر على طعـام واحد }؛ المن، والسلوى من أحسن الأطعمة، وأنفعها للبدن، وألـذّها مذاقاً، ومن أحسن ما يكون؛ لكن بني إسرائيل لدناءتهم لم يصبروا على هــذا؛ قــالوا: { لن نصــبر على طعــام واحد }: لا نريد المن، والسـلوى فقـط؛ نريد أطعمة متعـددة؛ ولكنها أطعمة بالنسـبة للـتي رُزِقوها أدنى . يعني ليست مثلها؛ بل إنها تعتـبر رديئة جـداً بالنسـبة لهذا..

فــإن قــال قائــل: كيف يقولــون: طعــام واحد وهما طعامــان: المن، والسلوى؟

فالجواب: أن المن في الغـالب يسـتعمل في الشـرب؛ فهو ينبذ في الماء، ويشرب؛ أو يقال: المراد بالطعـام هنا الجنس؛ يعـني: لا نصـبر على هذا الجنس فقط . ليس عندنا إلا منّ وسلوى..

قوله تعالى: { فادع لنا ربك }: هذا توسل منهم بموسى ليـدعو الله عــزّ وجــلّ لهم؛ وكلمـة: { فـادع لنا ربك } تـدل على جفـاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: "ادع لنا ربنا"، أو "ادع اللـه"؛ بل قـالوا: "ادع لنا ربـك" ، كـأنهم بريئـون منه . والعيـاذ باللـه؛ وهـذا من سـفههم، وغطرستهم، وكبريائهم..

قوله تعالى: { يخرج لنا }؛ { يخرج } فعل مضارع مجـزوم على أنه جواب الطلب: "ادع" ؛ أو جواب لشرط محـذوف؛ والتقـدير: إن تدعه يخرج لنا..

قوله تعالى: { مما تنبت الأرض } أي مما تخرجه..

قوله تعالى: { من بقلها }؛ { من } بيانية؛ بينت الاسم الموصول: { ما }؛ لأن الاسم الموصـول مبهم يحتـاج إلى بيـان؛ و{ بقلها }: هو النبـات الـذي ليس له ساق، مثل الكـراث؛ { وقثائها }: هي صـغار البطيخ؛ { وفومها } هو الثُّوم؛ يقـال: "ثـوم" بالمثلثـة؛ ويقـال: "فـومٍ" بالفاء الموحدة، { وعدسها }؛ "العدس" معروف؛ { وبصـلها }: أيضـاً معروف..

وكل هذه بالنسبة للمن، والسلوى ليست بشـيء؛ ولهـذا أنكر عليهم موسى صلى الله عليه وسلم، فقـال: { أتسـتبدلون الـذي هو أدنى

بالـذي هو خـير }، أي أتأخـذون الـذي هو أدنى بـدلاً عن الـذي هو خير..
قوله تعالى: { اهبطـوا مصـراً فـإن لكم ما سـألتم } يعـني أن هـذا ليس بصعب يحتاج إلى دعـاء اللـه؛ لأن الله تعـالى أوجـده في كل مصـر؛ وكـأن موسى صـلى الله عليه وسـلم أنكر عليهم هـذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سـبحانه وتعـالى لهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛ وأما قول من قال من المفسرين: "إنه دعا، وقيل لـه: قل لهم: يهبطـون مصـراً فـإن لهم ما سـألوا" فهـذا ليس بصـحيح؛ لأنه كيف ينكر عليهم أن يطلبـوا ذلك منـه، ثم هو يـذهب، ويدعو الله به!!! فالصـواب أن موسى وبَّخهم على ما سـألوا، وأنكر عليهم، وقال لهم: إن هذا الأمر الذي طلبتم موجـود في كل مصـر؛ ولهذا قـال: { اهبطـوا مصـراً }؛ و{ مصـراً } ليست البلد المعـروف الآن، ولكن المقصود أيّ مصر كانت؛ ولهـذا نُكِّرت؛ و"مصـر" البلد لا تنكَّر، ولا تنصرف؛ واقرأ قوله تعالى: {وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً} [يونس: 87] ؛ فالمعنى: اهبطوا أيّ مصر من الأمصار تجدون ما سألتم..
قوله تعالى: { وضربت عليهم الذلة والمسـكنة }؛ وفي قوله تعـالى: { عليهم } ثلاث قـراءات: كسر الهـاء وضم الميم؛ وكسـرها جميعـاً؛ وضمهما جميعاً..
قوله تعـالى: { وضـربت عليهم الذلة والمسـكنة }: جملة مسـتأنفة إخبار من الله عزّ وجـلّ بما حصل عليهم؛ و{ الذلة }: الهـوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدواً، وقد قال الله تعالى: {لا يقـاتلونكم جميعـاً إلا في قـرى محصـنة أو من وراء جـدر} [الحشـر: 14] و{ المسـكنة }: الفقـر؛ فليس عنـدهم شـجاعة، ولا غنًى؛ لا كـرم بالمـال، ولا كـرم بالنفس؛ فـ"الشجاعة" كرم بالنفس: بأن يجود الإنسـان بنفسه لإدراك مقصوده؛ و"الكرم" جـود بالمـال؛ فلم يحصل لهم هـذا، ولا هـذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوبـاً، ولا أبخل من اليهـود، فـالأموال كثـيرة، لكن قلوبهم فقيرة، وأيديهم مغلولة..
قوله تعالى: { وباءوا بغضب من الله } أي رجعوا؛ والباء للمصـاحبة؛ و{ من } للابتداء؛ يعني الغضب من الله . أي أن الله غضب عليهم، كما قال تعـالى: {قل هل أنـبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـــــردة والخنـــــازير وعبد الطاغوت} [المائدة: 60] ..
قوله تعـالى: { ذلك }: الظـاهر أن المشـار إليه كل ما سـبق، وليس فقط قوله تعـالى: {وضـربت عليهم الذلـة...}؛ فكل ما سـبق مشار إليه حتى سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير؛ {بأنهم}: البـاء للسببية؛ {كانوا يكفرون بآيات الله } أي يكـذبون بهـا؛ والمـراد الآية الكونيـة، والشـرعية؛ فالشـرعية تتعلق بالعبـادة؛ والكونية تتعلق بالربوبية، فهم يكفرون بهذا، وبهذا..
قوله تعـالى: { ويقتلـون النبـيين } أي يعتـدون عليهم بالقتـل؛ وفي قوله تعـالى: { النبـيين } قراءتـان؛ الأولى: بتشـديد اليـاء بـدون همز: { النبيِّين }؛ والثانية: بتخفيف الياء، والهمز: { النبيئين } ؛ فعلى

القراءة الأولى قيل: إنه مشتق من النَّبْوَة . وهو الارتفاع؛ لارتفاع منْزلة الأنبياء؛ وقيل: من النبأ، وأبدلت الهمزة ياءً تخفيفاً؛ وعلى القراءة الثانية فإنه مشتق من النبأ، لأن الأنبياء مخبرون عن الله عزّ وجلّ..
قوله تعالى { بغير الحق } أي بالباطل المحض؛ وهذا القيد لبيان الواقع، وللتشنيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبداً..
قوله تعالى: { ذلك }: المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ { بما عصوا }: الباء للسببية؛ و "المعصية" الخروج عن الطاعة إما بترك المأمور؛ وإما بفعل المحظور؛ { وكانوا يعتدون } معطوف على قوله تعالى: { بما عصوا }؛ و "الاعتداء" مجاوزة الحد إما بالامتناع عما يجب للغير؛ أو بالتعدي عليه..
والفرق بين "المعصية" ، و "العدوان" إذا ذكرا جميعاً: أن "المعصية" فعل ما نهي عنه؛ و "الاعتداء" تجاوز ما أُمِر به، مثل أن يصلي الإنسان الظهر مثلاً خمس ركعات؛ وقيل: إن "المعصية" ترك المأمور؛ و "العدوان" فعل المحظور..
وسواء أكان هذا أم هذا فالمهم أن هؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة... وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها، وبين الهدى، والنور، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} (المطففين: 14])

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل، وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم: (لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يُخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها)
.2 ومنها: غطرسة بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: { ادع لنا ربك }؛ ولم يقولوا: "ادع لن ربنا"، أو: "ادع لنا الله"؛ كأن عندهم . والعياذ بالله . أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: { ادع لنا ربك } . كما قالوا: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} [المائدة: 24] ..
.3 ومنها: أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال..
.4 ومنها: أن من علوّ همة المرء أن ينظر للأكمل، والأفضل في كل الأمور..
.5 ومنها: أن التوسع في المآكل، والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلاً عن

الرديء[1] ؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شـرعي فلا بـأس كما فعله عمر رضي الله عنه عـام الرمـادة؛ وأما إذا تركها لغـير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعـالى يحب من عبـده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه[2].

.6 ومن فوائد الآية: حِلّ البقول، والقثاء، والفوم، والعـدس، والبصـل؛ لقـولهم: { ادع لنا ربك يخـرج لنا مما تنبت الأرض... } إلى قولـه: { اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم } أي من الأصناف المذكورة..

وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول صلى الله عليه وسلم قدر فيه بقـول فكـره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كـره أكلهـا، قـال الرسـول صـلى الله عليه وسلم "كل؛ فإني أناجي من لا تناجي"[3] ؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في البصل، وعلموا كراهة النبي صلى الله عليه وسلم لها قالوا: حُرّمت؛ قال صلى الله عليه وسـلم "إنه ليس بي تحريم ما أحل الله"[4] ؛ فبين أنه حلال..

.7ومن فوائد الآيـة: جـواز إسـناد الشـيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقـولهم { مما تنبت الأرض }؛ والـذي ينبت حقيقة هو الله سبحانه وتعالى..

.8 ومنهـا: جـواز إسـناد الشـيء إلى سـببه الحقيقي الـذي ثبت أنه سبب شرعاً، أو حساً؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعاً يكـاد يمـوت من الجوع فإنه يجوز أن تقـول: "لـولا أني أطعمته لهلـك"؛ لأن الإطعـام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القـراءة على المـريض، فيـبرأ، فتقـول: "لـولا القـراءة عليه لم يـبرأ"؛ أما المحظور فهو أن تثبت سبباً غير ثـابت شـرعاً، ولا حسـاً، أو تقـرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عزّ وجلّ؛ مثـال الأول: أولئك الـذين يعلقـون التمـائم البدعيـة، أو يلبسـون حلقـاً، أو خيوطـاً لـدفع البلاء، أو رفعه . كما زعمـوا؛ و مثـال الثـاني: ما جـاء في الحـديث أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال له رجـل: "ما شاء الله وشئت"، فقال له النبي (صلى الله عليه وسـلم "أجعلتـني لله نـداً، بل ما شـاء الله وحـده"[5] ، لأنك إذا قلت: "ما شـاء الله وشئت" جعلت المخاطَب ندًّا لله في المشيئة..

---

[1] راجع البخاري ص181، كتاب الوكالة، باب 11: إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، حديث رقم 2312؛ وصحيح مسلم ص945، كتاب المساقاة، باب 18؛ بيع الطعام مثلاً بمثل، حديث رقم 4083 [96] 1594.

[2] انظر ص197 الفائدة الخامسة.

[3] اخرجه البخاري ص67، كتاب الأذان، باب 160: ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، حديث رقم 855؛ وأخرجه مسلم ص764، كتاب المساجد، باب 17: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم 1253 [73] 564.

[4] أخرجه مسلم ص764 – 765، كتاب المساجد، باب 17: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم 1256 [76] 565.

[5] أخرجه أحمد 1/214، حديث رقم 1839؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، راجع فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد 2/253، باب 339: قول الرجلك ما شاء الله وشئت، حديث رقم 783؛ وأخرجه ابن أبي شيبة 5/340، باب 231: في الرجل يقول: ما شاء الله وشاء فلان، حديث رقم 26282، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: فالإسناد حسن 1/217، حديث رقم 139، وقال في صحيح الأدب المفرد: صحيح ص292.

فـإذا قـال قائـل: أليس الله قد ذم قـارون حينما قـال: {إنما أوتيته على علم عندي} [القصص: 78] ؛ فنسب حصول هـذا المـال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحاً؟

فـالجواب أن هـذا الرجل أنكر أن يكـون من الله ابتـداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سـببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبِّب فهو مشرك؛ وأيضاً فإن قارون أراد بقوله هـذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغياً بذلك الدار الآخرة..

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:.

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده..

الثانية: أن يضـيفه إلى الله تعـالى مقرونـاً بسـببه المعلـوم؛ مثل أن يقول: "لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت"..

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحـده مع اعتقـاد أن الله هو المسـبِّب؛ ومنه قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: "لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار[1]" ..

الرابعة : أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب المعلوم بـ"ثم"، كقوله: "لولا الله ثم فلان"؛ "وهذه الأربع كلها جائزة" ..

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقرونـاً بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: "لولا الله وفلان

الصـورة السادسـة: أن يضـيفه إلى الله ، وإلى السـبب المعلـوم مقرونـاً بالفـاء، مثـل: "لـولا الله ففلان"؛ فهـذا محل نظـر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع..

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعاً، ولا حساً، فهذا شرك . كما سبق ..

.9 ومن فوائد الآية: تـوبيخ موسى عليه السـلام لبـني إسـرائيل، وأن الـذي يسـتبدل الأدنى بالـذي هو خـير يسـتحق التـوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)

.10 ومنها: أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم يكن لها داعٍ؛ لأنه قال: { اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم }؛ وكأنه قـال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض..

.11 ومنهـا: ضـرب الذلة على بـني إسـرائيل؛ وقد ذكر الله تعـالى أنهم ضـــربت عليهم الذلة أينما ثقفـــوا إلا بحبل من الله . وهو الإسلام؛ أو بحبل من النـاس وهو المسـاعدات الخارجيـة؛ والمشـاهد الآن أن اليهود أعزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى..

.12 ومنهـا: أن اليهـود قد ضـربت عليهم المسـكنة وهي الفقـر؛ ويشـمل فقر القلـوب الـذي هو شـدة الطمع بحيث أن اليهـودي لا يشبع، ولا يتوقف عن طلب المـال ولو كـان من أكـثر النـاس مـالاً؛ ويشمل أيضاً فقر المال وهو قلته..

.13 ومنها: أن بني إسرائيل لا يقومـون للمسـلمين لو حـاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حوربـوا بالطاعة

---

[1] أخرجه البخاري ص315، كتاب مناقب الأنصارن باب 40: قصة أبي طالب، حديث 3883؛ وأخرجه مسلم ص717، كتاب الإيمان، باب 90: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم 510 [357] 209.

والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر} [الحشر: 14] ؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:.

الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيراً من الذين يقاتلون اليهود . أو أكثرهم . لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قَبَليّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود..

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالى: {حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون} (آل عمران: 152)

.14 ومن فوائد الآية: إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقفُّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزّ وجلّ دال على كمال عظمته، وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله..

وفسر أهل التحريف "غضب الله" بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزّ وجلّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى { غضب الله عليهم } عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد..

.15 ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان..

.16 ومنها: بيان حكمة الله عزّ وجلّ حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: { ذلك بأنهم }، وقوله تعالى: { ذلك بما عصوا }؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيراً في مسبَّباتها بما جعله الله رابطاً بين الأسباب والمسبَّبات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم صلى الله عليه وسلم. مع أنها سبب للإحراق . لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: {كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} [الأنبياء: 69] ..

القرآن

)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة:62)

التفسير:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب بَيَّن أن المؤمنين من بني إسرائيل، وغيرهم كلهم لهم أجرهم عند الله..

ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال: { وباءوا بغضب من الله } بيَّن أن من آمن منهم، وعمل صالحاً فإن الله لا يضيع أجره؛ فقال تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم)

{ 62 }. قوله تعالى: { إن الذين آمنوا } يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب، والرسل..

قوله تعالى: { والذين هادوا } أي الذين انتسبوا إلى دين اليهود . وهي شريعة موسى، { والنصارى } أي الذين انتسبوا إلى دين عيسى..

قوله تعالى: { والصابئين }: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين . وهذا هو الأقرب؛ فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف، والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذُكروا معهم..

قوله تعالى: { من آمن منهم بالله واليوم الآخر } هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين..

قوله تعالى: { فلهم أجرهم } أي ثوابهم؛ وسمى الله تعالى "الثواب" أجراً؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ { عند ربهم }: أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفاً، وتكريماً، وإظهاراً للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عزّ وجلّ، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع..

قوله تعالى: { ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون }؛ "الخوف" هو الهمّ مما يستقبل؛ و "الحزن" : هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه؛ ولهذا يقال لمن أصيب بمصيبة: "إنه محزون"؛ ويقال لمن يتوقع أمراً مرعباً، أو مروعاً: "إنه خائف"؛ وقد يطلق "الحزن" على الخوف مما يستقبل، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: "لا تحزن إن الله معنا"[1] ، فالمراد . والله أعلم . لا تخف؛ فقوله تعالى: { ولا خوف عليهم } أي من كل مما يخاف في المستقبل: من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك؛ وقوله تعالى: { ولا هم يحزنون } أي على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا، ويتحسر، كما قال تعالى:

---

[1] أخرجه البخاري ص294، كتاب المناقب، باب 25: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم 3615؛ وأخرجه مسلم ص1199، كتاب الزهد، باب 19: في حديث الهجرة ويقال له حديث الرجل، حديث رقم 7521 [75] 2009.

{وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: 54 ـ 56] : هذا تحزُّن، وتحسُّر..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أيّ صنف كان..

2. ومنها: ثمرة الإيمان بالله، واليوم الآخر . وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى..

3. ومنها: أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله، واليوم الآخر . وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجراً..

4. ومنها: عظم أجر الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: { عند ربهم }..

5. ومنها: أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحاً عاماً؛ لأنه تعالى بعدما قال: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق} [البقرة: 61] بيَّن أن منهم من آمن بالله، واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون..

القرآن

)وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: 63))ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (البقرة:64)

التفسير:

{ 63 }. ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأمر أخذه عليهم، فقال تعالى: { وإذ أخذنا ميثاقكم } يعني اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم؛ و "الميثاق" : العهد الثقيل المؤكد؛ وسمي بذلك من الوَثاق . وهو الحبل الذي يُشد به المأسور، كما في قوله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق} (محمد: 4)

قوله تعالى: { ورفعنا فوقكم } أي فوق رؤوسكم { الطور } هو الجبل المعروف؛ رفعه الله . تبارك وتعالى . على بني إسرائيل لما تهاونوا في طاعة الله سبحانه وتعالى إنذاراً لهم، وقال تعالى لهم: { خذوا ما آتيناكم بقوة } أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة . كما قال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب} [البقرة: 121] . واعملوا به بقوة؛ والمراد بالـ "قوة" هنا الحزم، والتنفيذ؛ والتطبيق؛ وضده أن

يأخذ الإنسان أخذاً ضعيفاً متساهلاً على كسل؛ والباء في قوله تعالى: { بقوة } للمصاحبة؛ أي خذوا هذا الكتاب . أي التوراة التي جاء بها موسى صلى الله عليه وسلم. أخذاً مصحوباً بقوة، فلا تهملوا شيئاً منه..

قوله تعالى: { واذكروا ما فيه } أي اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن { ما } اسم موصول يفيد العموم..

قوله تعالى: { لعلكم تتقون }: "لعل" للتعليل؛ أي لأجل أن تتقوا الله عزّ وجلّ؛ فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة، وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجر بعضها بعضاً، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: 183] ؛ فالطاعات يجر بعضها بعضاً، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، ونفوراً، والمعاصي يجر بعضها بعضاً؛ وسبق قوله تعالى: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [البقرة: 61] ؛ ثم بعد هذا الإنذار، وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا، وخشعوا، قال الله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة} [الأعراف: 171] ؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود؛ وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم..

.{ 64 } قوله تعالى: { ثم توليتم } أي أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله سبحانه وتعالى { من بعد ذلك }: المشار إليه: رفع الجبل في قوله تعالى: { ورفعنا فوقكم الطور }؛ والمعنى: بعد هذه الإنابة وقت رفع الطور توليتم، ولم تذكروها؛ ما ذكرتم أن الذي خوفكم بهذا الجبل قد يعيد عليكم ذلك مرة أخرى..

قوله تعالى: { فلولا فضل الله عليكم ورحمته } بإرسال الرسل، وبيان السبل، وغير ذلك فـ "الفضل" بمعنى التفضل؛ و "لولا" حرف امتناع لوجود؛ و "فضل" مبتدأ، وخبره محذوف، كما قال ابن مالك:.
وبعد لولا غالباً حذف الخبر حتم وفي نص يمين ذا استقر والتقدير: فلولا فضل الله عليكم موجود..

قوله تعالى: { لكنتم من الخاسرين }: اللام واقعة في جواب "لولا" ..

وقوله تعالى: { الخاسرين } أي الذين خسروا الدنيا، والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: تذكير الله . تبارك وتعالى . لبـني إسـرائيل بما أخذ عليهم من عهـد؛ لقوله تعـالى: { وإذ أخـذنا ميثـاقكم ورفعنا فـوقكم الطـور }؛ وهـذا التـذكير مقتضـاه الإلـزام . أي فـالتزموا بالميثاق..

.2 ومنها: عتـوّ بـني إسـرائيل، حيث لم يؤمنـوا إلا حين رفع فـوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئـذٍ آمنـوا؛ وهـذا الإيمـان في الحقيقة يشـبه إيمـان المكـره الـذي قيل لـه: إما أن تـؤمن؛ أو تُقْتَل..

.3 ومنها: بيان قـوة الله عـزّ وجـلّ، وقدرتـه؛ لقوله تعـالى: { ورفعنا فـوقكم الطـور }؛ وقد قـال الله تعـالى في آية أخـرى: {وإذ نتقنا الجبل فـوقهم كأنه ظلـة} [الأعـراف: 171]ـ ؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عـزّ وجـلّ؛ فالأحجـار العظيمة الثقيلة الكبـيرة أمسـكها الله تعـالى بقدرته..

.4 ومنهـا: أن الـواجب على أهل الملة أن يأخـذوا كتـابهم بقـوة لا بضـعف، ولين، ومداهنـة؛ بل لابد من قـوة في التطـبيق، والـدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حـدّ قوله تعـالى: {ادع إلى سـبيل ربك بالحكمة والموعظةً الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النمل: 125]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا..

.5 ومنهـا: أن الأخذ بالكتـاب المُنَـزَّل يـوجب التقـوى؛ لقوله تعـالى: لعلكم تتقون } أي لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزّ وجلّ..

.6 ومنهـا: لـؤم بـني إسـرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا، كما قال تعالى: { ثم توليتم من بعد ذلك }؛ وهذا من اللؤم؛ لأن من الـواجب أن يـذكروا رفع الجبل فـوقهم حـتى يسـتقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولوا من بعد ما رأوا الآية..

.7 ومنها: بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بـني إسـرائيل؛ لقوله تعالى: (فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين).

.8 ومنها: أن الإنسـان لا يسـتقل بنفسه في التوفيـق؛ لقوله تعـالى: (فلولا فضل الله عليكم ورحمته).

.9 ومنهـا: إثبـات فضل الله تعـالى على بـني إسـرائيل بما أعطـاهم من الآية الكونية، والشرعية..

.10 ومنها: إثبات الأسـباب، وربطها بمسـبباتها؛ لقوله تعـالى: { فلـولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسـرين }؛ فهـذا صـريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها..

القـرآن

)وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَـدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّـبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (البقرة:65))فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ) (البقـرة: 66)

التفسير:

.{ 65 } قوله تعـالى: { ولقد }: اللام موطئة للقسـم؛ وعلى هـذا فالجملة مؤكـــدة بثلاثة مؤكـــدات، وهي: القسم المقـــدر، واللام، و "قد" ؛ والتقدير: والله لقد؛ و{ علمتم }: الخطاب لبني إسـرائيل؛ أي علمتم عِلم القين، وعرفتم معرفة تامة { الـذين اعتـدوا منكم } أي تجاوزوا الحدود، وطغوا منكم..

قوله تعـــالى { في الســـبت } أي في الحكم الـــذي حكم الله به عليهم يـوم السـبت؛ وذلك أن الله حـرم عليهم العمل والصـيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شُرَّعاً، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صـيدها بحيلـة، حيث وضـعوا شـباكاً يـوم الجمعـة، فتـدخل فيه الحيتـان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصـدها يـوم السـبت، فقـال لهم الله تعـالى: { كونـوا قـردة خاسـئين } أي ذليلين، فصاروا كذلك..

.{ 66 } قوله تعالى: { فجعلناها } أي صيرناها؛ واختلف المفسرون في مرجع الضـمير المفعـول بـه؛ فقيـل: يعـود على القريـة؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: {واسألهم عن القرية التي كـانت حاضـرة البحر إذ يعـدون في السـبت} ؛ فيكـون مرجع الضـمير مفهومـاً من السياق؛ وقيل: يعود على العقوبة . أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعـالى: { فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالًا }؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالاً..

قوله تعـالى: { نكـالًا }: النكـال، والتنكيل أن يعـاقب الإنسـان بعقوبة تمنعه من الرجوع إلى ما عوقب عليه..

قوله تعــالى: { لما بين يــديها وما خلفها }: اختلف في مرجع الضمير "ها" ؛ فقيل: يرجع إلى القريـة؛ فيكـون: { لما بين يـديها }: ما قـرب منها من القـرى من أمامهـا؛ و{ ما خلفها }: ما كـان من القرى من خلفها؛ لأن أهل القرى علمـوا بما نـزل بها من العقوبـة، فكان ذلك نكالاً لهم؛ وقيل: إن المـراد بــ "ما بين يـديها" : ما يـأتي بعدها: "وما خلفها": ما سبقها؛ ولكن في هذا إشكالاً؛ لأن من سبقها قد مضى، فلا يكون منتفعاً، ولا ناكلاً إلّا أن يـراد بــ"ما بين يـديها" من عاصرها، و "ما خلفها" : من يـأتي بعـدهم، ويكـون "الخَلْـف" هنا بمعـنى الأمـام، كما جـاء "الـوراء" بمعـنى الأمـام في قوله تعـالى: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً} [الكهف: 79] ..

قوله تعـالى: { وموعظة للمتقين } أي موضع اتعـاظ للـذين يتقـون الله..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـتين: تـوبيخ اليهـود الموجـودين في عهد الرسـول صلى الله عليه وسلم على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علمـوا ما حلّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله..
.2 ومنهـا: تحـريم الحيـل، وأن المتحيل على المحـارم لا يخـرج عن العـدوان؛ لقوله تعـالى: { الـذين اعتـدوا منكم في السـبت }؛ بل الحيل على فعل محـرم أعظم إثمـاً من إتيـان المحـرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كـان المنـافقون أشد جرماً وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني . رحمه الله . في المتحيلين: "إنهم يخـــادعون الله كما يخـــادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون"؛ وصدق رحمه اللـه؛ وللحيل مفاسد كثـيرة . راجع إن شـئت كتـاب "إغاثة اللهفـان" لابن القيم . رحمه الله . وغيره..
وأنت إذا تـأملت حيل اليهـود في السـبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلـوا ثمنهـا؛ وتـأملت حيل بعض المسـلمين اليـوم على الربا وغـيره. وجـدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهـود . ومع ذلك أحل الله بهم نقمتـــه، وقد نهانا عن ذلك رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فقـال: "لا ترتكبـوا ما ارتكبت اليهـود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل"[1] ؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة..
.3 ومن فوائد الآيتين: بيـان حكمة الله في مناسـبة العقوبة للـذنب؛ لأن عقوبة هـؤلاء المتحيلين أنهم مسـخوا قـردة خاسـئين؛ والـذنب الذي فعلوه أنهم فعلـوا شـيئاً صـورته صـورة المبـاح؛ ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بـالآدمي، ولكنه ليس بـآدمي؛ وهـذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويـدل لـذلك أيضـاً قوله تعـالى: {فكلًّا أخذنا بذنبه} [العنكبوت: 40] ..
.4 ومنهـا: بيـان قـدرة الله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { كونـوا قـردة خاسئين }؛ فكانوا في لحظة قردة..
.5 ومنها: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين }..
.6 ومنها: أن الذين مسخوا قردة من هذه القرية هم الـذين اعتـدوا في السـبت؛ وأما الـذين نَهَـوا عن السـوء فقد نجـوا؛ وأما الـذين سكتوا عن المعتدين، ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم..
.7 ومنهـا: أن العقوبـات فيها تنكيل لغـير العامـل؛ لقوله تعـالى: { فجعلناها نكالاً لما بين يـديها وما خلفها }؛ ولهـذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عزّ وجلّ: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: 111] ..

---

[1] قال ابن القيم: [رواه أبو عبد الله ابن بطة: "حدثنا أحمد بن سلام حدثنا الحسن بن صباح حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو"، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي]. أهـ. إغاثة اللهفان 1/513؛ عون المعبود مع شرح ابن القيم 9/340.

8. ومنها: أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل..

9. ومنها: أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون..

10. ومنهـا: أن المواعظ قسـمان: كونيـة، وشـرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدريـة؛ لأن الله أحل بهم العقوبة الـتي تكـون نكـالاً لما بين يـــديها، وما خلفهـــا، وموعظة للمتقين؛ وأما الشـــرعية فمثل قوله تعالى: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشـفاء لما في الصـدور} [يـونس: 57] ؛ والمواعظ الكونية أشد تـأثيراً لأصـحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشـرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات..

11. ومن فوائد الآيـتين: أن الـذين ينتفعـون بالمواعظ هم المتقـون؛ وأما غـــير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونيـــة، ولا بالمواعظ الشـــرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضـــطراراً، وإكراهـــاً؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عاديـة، كما قـال تعالى: {وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركـوم} [الطور: 44] ؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعـالى، كما قـال تعـالى: {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: 65] ، وقال تعـالى: {وإذا غشـيهم مـوج كالظلل دعـوا الله مخلصـين له الـدين فلما نجَّاهم إلى الـبر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور} [لقمان: 32] ..

12. ومن فوائد الآيتين: أن من فوائد التقوى . وما أكثر فوائدها . أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية..

القـرآن

)وَإِذْ قَالَ مُوسَـى لِقَوْمِـهِ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تَـذْبَحُوا بَقَرَةً قَـالُوا أَتَتَّخِـذُنَا هُـزُواً قَـالَ أَعُـوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (البقرة:67))قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَـالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّهَا بَقَـرَةٌ لا فَـارِضٌ وَلا بِكْـرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) (البقرة:68) (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَـــالَ إِنَّهُ يَقُـــولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ) (البقـرة:69) (قَـالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَـرَ تَشَـابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) (البقرة:70)(قَالَ إِنَّهُ يَقُــولُ إِنَّهَا بَقَــرَةٌ لا ذَلُــولٌ تُثِـيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْــقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِـيَةَ فِيهَا قَـالُوا الْآنَ جِئْتَ بِـالْحَقّ فَـذَبَحُوهَا وَمَا كَـادُوا يَفْعَلُــونَ) (البقــرة:71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسـاً فَـادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْـرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ) (البقـرة:72) فَقُلْنَا اضْـرِبُوهُ بِبَعْضِـهَا كَـذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (البقرة:73

التفسير:

.{ 67 } قوله تعالى: { وإذ قال موسى لقومه } أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه، وإضافة "القـوم" إليه لبيـان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسـان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم..

قوله تعـالى: { إن الله يـأمركم أن تـذبحوا بقـرة }: قالها في جواب ذكره الله سبحانه وتعالى في أثناء القصة:

{ وإذ قتلتم نفسـاً فـادَّارأتم فيها والله مخــرج ما كنتم تكتمــون } [البقرة: 72] ؛ فقد قُتل منهم نفس فتخاصموا، وتدافعوا: كل يدعي أن هؤلاء قتلوه؛ حتى كادت تثـور الفتنة بينهم؛ ولا حاجة بنا إلى أن نعلل لماذا قتـل؛ أو لأي غـرض؛ هـذا ليس من الأمـور الـتي تهمنـا؛ لأن القــرآن لم يتكلم بهـا؛ ولكن غاية ما يكــون أن نأخذ عن بــني إسرائيل ما لا يكون فيه قدح في القرآن، أو تكذيب لـه، فقـالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتـل، ويُـذهب بعضـنا بعضـاً؛ نـذهب إلى نـبي الله موسى، ويخبرنا من الذي قتلـه؛ فـذهبوا إليـه، فقـال لهم: { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة } صدَّر الأمر من الله؛ لم يقل: آمــركم، ولا قال: اذبحوا؛ بل قال: { إن الله يأمركم أن تـذبحوا بقـرة }؛ ليكـون أعظم وقعاً في نفوسهم، وأدعى إلى قبوله، وامتثاله..

وقوله { بقرة }: لم تعين بوصف؛ فلو ذبحوا أيّ بقرة كـانت لكـانوا ممتثلين؛ ولكنهم تعنتوا، وتشددوا فشدد الله عليهم . كما سيأتي..

قوله تعالى: { أتتخذنا هـزواً }؛ { هـزواً } مصـدر بمعـنى اسم المفعول؛ أي أتتخذنا مهزوءاً بنا؛ ويجوز أن تكون (هـزواً) على بابهـا؛ ويكون المعنى: أتتخذنا ذوي هُـزْء؛ فحُـذف المضـاف، وأقيم المضـاف إليه مقامه؛ "والهزء" السخرية؛ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقـرة سـبباً لـزوال ما بينهم من المـدارأة؛ والتعبـير بقـولهم: { أتتخـذنا هـزواً } أبلغ من قـول "أتسـتهزئ بنـا"؛ لأن الأولى تفيد أنهم جُعلـوا محل اسـتهزاء . بخلاف الثانية فإنما تـدل على حصـول الاستهزاء . ولو بمرة واحدة..

فأجابهم نبي الله بقولـه: { أعـوذ بالله أن أكـون من الجـاهلين } أي أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل فأتخذ عباد الله هـزواً؛ والمـراد بــ "الجهـل" هنا السـفه، كما في قوله تعـالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة} [النساء: 17] . أي بسـفاهة . {ثم يتوبون من قريب} [النساء: 17] ..

.{ 68 . 69 } قوله تعالى: { قالوا ادع لنا ربك }: سبق الكلام على نظيرها؛ { يبين لنا ما هي }: هذا الطلب ليس له وجـه؛ لأن اللفظ بين: فـالبقرة معلومـة، والمطلق ليس مجملاً يحتـاج إلى بيـان . لوضوح معناه؛ فإذا قيل مثلاً: "أكرم رجلاً"؛ فلا يحتـاج أن تقـول: "ما صفة هـذا الرجـل"؛ إذا أكـرمت أيّ رجل حصل المقصـود؛ فلو أنهم ذهبوا، وذبحوا أيّ بقـرة، وامتثلـوا ما أمـرو به لانتهى الأمـر؛ ولكنهم تعنتوا..

قوله تعـالى: { قـال } أي موسى { إنه يقـول } أي الله عـزّ وجلّ { إنها بقرة لا فارض ولا بكر }: "البكر" معروف: التي لم تلـد، ولا قرعها الفحل، و "الفارض" تُعـرف بمقابلهـا، فـإذا كـانت "البكـر" هي الـتي لم يقرعها الفحـل، فـإن "الفـارض" هي المسـنة الكبـيرة؛ وهذا . أي تفسير الكلمة، أو معرفة معـنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها . له نظير في القـرآن، مثل قوله تعـالى: {فـانفروا ثبـات أو انفـروا جميعـاً} [النسـاء: 71] ؛ فكلمـة: {ثبـات} هنا يتـبين معناها بما ذكر مقـابلاً لها . وهو قوله تعـالى: {أو انفـروا جميعـاً} ؛ فيكـون معناهـا: متفرقين أفراداً..

قوله تعـالى: { عـوان بين ذلك } أي وسط بين ذلك . أي بين كونها فارضاً وبكراً؛ وفيه إشكال على هذا: لأنه إذا كان المشار إليه اثـنين وجب تثنية اسم الإشـارة؛ واسم الإشـارة هنا مفـرد مـذكر؟ والجـواب عنه أن يقـال: { بين ذلك } أي بين ذلك المـذكور من الفارض والبكر . أي لا تكون هكذا، ولا هكذا، ولكن عـوان بين ذلك المذكور..

قوله: { فافعلوا ما تـؤمرون }؛ هـذا الأمر من موسـى؛ وليس من كلام الله عـزّ وجـلّ؛ فموسى يقـول لبـني إسـرائيل: افعلـوا ما تـؤمرون به من ذبح بقـرة لا فـارض، ولا بكـر، ولا تتعنتـوا فيشـدد عليكم مـرة ثانيـة؛ ولو أنهم امتثلـوا، وذبحـوا بقـرة عوانـاً بين ذلك لحصل المقصود؛ وكان عليهم أن يفعلوا . وإن لم يأمرهم نبيهم بـه؛ ولكنهم أهل عناد، وتعنت؛ ولهذا أمرهم أمراً ثانياً؛ ومع ذلك قالوا: {

ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها }: كل هذا من باب التعنت، والتشدد؛ و{ ما لونها } يعني أيّ شيء لونها . بيضاء؛ سوداء؛ شهباء..؟

قوله تعالى: { قال } أي موسى { إنه يقول } أي الله سبحانه وتعالى { إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين }: شدد عليهم مرة أخرى في اللون: أولاً حيث قال تعالى: { إنها بقرة صفراء }، فخرج بهذا ما عدا الصفرة من الألوان . وهذا نوع تضييق؛ ثانياً بكونها: { فاقع لونها }؛ و "الفاقع" يعني الصافي؛ والمعنى: أنه ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة؛ وقيل: معنى { فاقع لونها } أي شديد الصفرة، وهو كلما كان صافياً كان أبين في كونه أصفر؛ ثالثاً بكونها: { تسر الناظرين } يعني ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها؛ فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين..

.{ 70 } قوله تعالى: { قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي }: هذا أيضاً طلب ثالث؛ يقولون: { ادع لنا ربك يبين لنا ما هي } أي من حيث العمل؛ { إن البقر تشابه علينا } أي اشتبه علينا البقرة المطلوبة؛ وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذُكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم، وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله..

قولهم: { وإنا إن شاء الله لمهتدون }: أكدوا الهداية هنا بمؤكدين؛ وهما: "إن" ، واللام؛ ومؤكد ثالث؛ وهو الجملة الاسمية؛ وهي أبلغ من الجملة الفعلية، وأخذوا على أنفسهم أنهم سيهتدون؛ ولكنهم علقوا ذلك بمشيئة الله، قال بعض السلف: "لو لم يقولوا: { إن شاء الله } لم يهتدوا إليها أبداً" . وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: "إن الله لم يشأ أن نهتدي"! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم..

.{ 71 } فأجابهم على هذا: { قال }: أي موسى { إنه يقول } أي الله عزّ وجلّ { إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها }: هذا أيضاً تشديد زيادة على ما سبق؛ و{ ذلول } على وزن فَعول؛ وهي المتذللة التي ذللت لصاحبها؛ و "والمذللة" هي التي تثير الأرض للزرع؛ و{ لا تسقي الحرث } أي لا يُستَى عليها؛ فهي ليست سانية، ولا حارثة؛ و{ مسلمة } أي من العيوب؛ { لا شية فيها } أي ليس فيها لون يخالف لونها؛ مأخوذ من وشي الثوب . وهو تلوينه بألوان مختلفة، مثل عِدَة مأخوذة من الوعد؛ إذاً هي صفراء ليس فيها سواد، ولا فيها بياض، ولا فيها أي لون آخر؛ وهذا كله من زيادة التشديد عليهم..

وبهذا التقرير نعرف أنه لا حاجة بنا إلى ما ذكره كثير من المفسرين من الإسرائيليات من أن هذه البقرة كانت عند رجل بارّ بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مَسكها ذهباً . يعني بملء جلدها ذهباً؛ وهذا من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولكن ظاهر القرآن هنا يدل على كذبها؛ إذ لو كان واقعاً لكان نقله من الأهمية

بمكان لما فيه من الحث على برّ الوالدين حتى نعتبر؛ فالصواب أن نقول في تفسير الآية ما قال الله عزّ وجلّ، ولا نتعرض للأمور التي ذكرها المفسرون هنا من الحكايات..
قوله تعالى: { قالوا الآن جئت بالحق }؛ { الآن } اسم زمان يُشار به للوقت الحاضر؛ فمقتضى كلامهم أنه أولاً أتى بالباطل، وقد صدّروا هذه القصة بقولهم { أتتخذنا هزواً }؛ يعني الآن عرفنا أنك لست تستهزئ؛ وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول؛ وقال بعض المفسرين اتقاءً لهذا المعنى البشع: إن المراد بقولهم: { بالحق } أي بالبيان التام . أي الآن بينت لنا أوصافها، فجعلوا "الحق" هنا بمعنى البيان؛ ولكن الصواب أن "الحق" هنا ضد الهزء، والباطل؛ يدل على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: { أتتخذنا هزواً }؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عزّ وجلّ قالوا: الآن جئت بالحق، وعرفنا أنك لست مستهزئاً بنا؛ بل إنك جادّ فيما تقول..
قوله تعالى: { فذبحوها } أي بعد العثور عليها بأوصافها السابقة؛ { وما كادوا يفعلون } أي ما قاربوا أن يفعلوا؛ وذلك بإيرادهم الطلب عن سنها، ولونها، وعملها، وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا؛ لقوله تعالى: (فذبحوها)
.{ 72 . 73 } قوله تعالى: { وإذ قتلتم نفساً } أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً؛ ووجه الخطاب لمن كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع أن الفعل كان ممن سبقهم؛ لأن الأمة الواحدة بمنزلة الجسد الواحد؛ وفعل أولها كفعل آخرها فيما يلحقهم من ذمّ..
قوله تعالى: { فادَّارأتم فيها } أي تدافعتم؛ كل منكم يدافع عن نفسه التهمة، ويتهم الآخر، وكان قد قُتل منهم قتيل من إحدى القبيلتين؛ فادّعت كل واحدة أن الأخرى هي قاتلته؛ وكاد يكون بينهم فتنة؛ فأتوا إلى موسى، فقال لهم: { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة... } إلخ..
قوله تعالى: { والله مخرج ما كنتم تكتمون } أي مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينها في قوله تعالى: { فقلنا اضربوه ببعضها }؛ القائل هو الله عزّ وجلّ؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى . عليه الصلاة والسلام؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك وتعالى؛ لأنه هو الآمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} [القيامة: 16 ـ 18] : فالمراد بقوله تعالى: {قرأناه} قرأه جبريل . عليه الصلاة والسلام .؛ فهنا قوله تعالى: { فقلنا اضربوه ببعضها } يعني أن الله تعالى أمر نبيه موسى صلى الله عليه وسلم، فقال لهم بأمر الله: { اضربوه ببعضها } أي اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة؛ ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أيّ جزء من أجزائها، فليس لنا أن نعينه بجزء منها..

قوله تعالى: { كذلك يحيي الله الموتى } أي مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عزّ وجلّ الموتى بكلمة واحدة، كما قال تعالى: {إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} (يس: 53)

قوله تعالى: { ويريكم آياته } أي يظهرها لكم حتى تروها؛ والمراد بـ "الآية" هنا الآية الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضاً؛ لأن موسى . عليه الصلاة والسلام . أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقاً لقول موسى . عليه الصلاة والسلام ...

قوله تعالى: { لعلكم تعقلون }؛ "لعل" للتعليل؛ أي لأجل أن تعقلوا عن الله . تبارك وتعالى . آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ فالذكاء هو سرعة البديهة، والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكياً، ولكنه ليس بعاقل..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: تعظيم الله عزّ وجلّ، حيث أسند الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} [النحل: 90] ..

2. ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر، أو الخبر؛ لقوله: { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة }..

3. ومنها: استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: { أتتخذنا هزواً } وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجدّ مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجدّ؛ لأنه أمر من الله عزّ وجلّ..

4. ومنها: أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق، والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة والسلام: (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)

5. ومنها: أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عزّ وجلّ؛ فإن موسى صلى الله عليه وسلم كان من أولي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: { قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين }؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزّ وجلّ؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "فمن وجد معاذاً فليعذ به"[1] ..

6. ومنها: استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى . عليه الصلاة والسلام: { ادع لنا ربك }؛ فأمروه أمراً، ثم أضافوا ربوبية الله عزّ وجلّ إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: "ادع ربنا"، أو "ادع الله"؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم طلبوا من موسى . عليه الصلاة والسلام . أن يبين لهم ما هذه البقرة مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أيّ واحدة..

---

[1] أخرجه البخاري ص590 – 591، كتاب الفتن، باب 9: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، حديث رقم 7081؛ وأخرجه مسلم ص1177 – 1178، كتاب الفتن، باب 3: نزول الفتن كمواقع القطر، حديث رقم 7249 [12] 2886.

7. ومنها: تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: { فـافعلوا ما تؤمرون }؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا، وطلبوا شيئاً آخـر: { قـالوا ادع لنا ربك يـبين لنا ما لونها }؛ فسـألوه عن اللـون مع أن أيّ لون يمكن أن يكون في البقرة لا يمنع من إجزائها..
8. ومنها: بيان ما يدل أيضاً على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيـان هل البقرة عاملة، أو غير عاملة..
9. ومنها: أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديماً معروفـاً بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية..
10. ومنها: تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهـذه الصـفات الـتي يعز وجودها في بقـرة واحـدة؛ وذلك بـأن تكـون متوسـطة في السن لا فارضاً ولا بكـراً؛ وأن تكـون صـفراء فاقعـاً لونها تسر الناظرين؛ وألا تكون ذلـولاً تثـير الأرض وتسـقي الحـرث؛ وأن تكون مسلّمة ليس فيها شيء من العيوب..
وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: (لا شية فيها).
11. ومنهـا: أن من شـدد على نفسه شـدد الله عليه . كما حصل لهؤلاء؛ فـإنهم لو امتثلـوا أول ما أُمِـروا، فـذبحوا أيّ بقـرة لكفـاهم؛ ولكنهم شددوا، وتعنتوا، فشدد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكـون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر..
12. ومنها: أن بـني إسـرائيل أرادوا أن يتقهقـروا عن تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ على درجات؛ الدرجة الأولى: ما سبق من قولهم: { أتتخـذنا هـزواً }؛ الدرجة الثانيـة: قـولهم: { ادع لنا ربك يـبين لنا ما هي }، الدرجة الثالثـة: قـولهم: { ادع لنا ربك يـبين لنا ما لونها }؛ الدرجة الرابعة: قولهم: { ادع لنا ربك يبين لنا ما هي } مرة أخرى
13 . ومنها: اسـتهتار بـني إسـرائيل، حيث قـالوا: { الآن جئت بـالحق }؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قـاموا بـذبحها على مضـض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عزّ وجلّ..
14. ومنهـا: أن الإنسـان إذا لم يقبل هـدى الله عـزّ وجـلّ من أول مرة فإنه يوشك أن يشدد الله عليـه؛ ولهـذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم "إن الدين يسر؛ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه[2]" ..
15. ومنها: تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم..
16. ومنها: تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها..
17. ومنهـا: أن قـول الرسـول قـول لمرسـله إذا كـان بـأمره؛ لقوله تعالى: { فقلنا اضربوه ببعضها }..
18. منهـا: أن البعض الـذي ضـرب به هـذا القتيل من البقـرة غـير معلـوم؛ لقوله تعـالى: { ببعضـها }؛ فقد أبهمه اللـه؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية..
19. ومنها: أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضـها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى:

---

[2] أخرجه البخاري ص5، كتاب الإيمان، باب 29: الدين يسر، حديث رقم 39.

{ ببعضـها }؛ ولم يعين لهم ذلك توسـعة عليهم؛ ليحصل المقصـود بأيّ جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثاً أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله..." كذا وكذا؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة، وموضوعها؛ أما أن تعرف من هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلاً؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها، وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام . اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين..

.20ومن فوائد الآية: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أمروا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: "افعل بعض هذه الأشياء" يكون أسهل مما إذا قيل لك: "افعل هذا الشيء بعينه"؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خيروا في أمور متعددة . والله أعلم..

.21 ومنها: أن هذه الآية من آيات الله عزّ وجلّ . وهي أن تكون البقرة سبباً لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى..

.22 ومنها: أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف، والنِّزاع، من نعمة الله عزّ وجلّ؛ يعني مثلاً إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف، وهذا النِّزاع..

.23 ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يخرج ما كان يكتمه أهل الباطل، ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: { والله مخرج ما كنتم تكتمون }؛ واذكروا قول الله تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيِّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً} (النساء: 108)

.24ومنها: التحذير من أن يكتم الإنسان شيئاً لا يرضاه الله عزّ وجلّ؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئاً مما لا يُرضي الله عزّ وجلّ فإن الله سوف يطلع خلقه عليه . إلا أن يعفو الله عنه ...

القرآن

)ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:74)

التفسير:

.{ 74 } قوله تعالى: { ثم قست قلوبكم } أي صلبت، وتحجرت؛ { من بعد ذلك } أي من بعد أن منَّ الله عليكم بما حصل من المدارأة في القتيل حتى تبين..

قوله تعالى: { فهي } أي قلوبكم { كالحجارة } أي مثلها؛ { أو أشد قسوة } أي من الحجارة؛ لأن الحجارة أقسى شيء . حتى إنّها أقسى من الحديد؛ إذ إن الحديد يلين عند النار، والحجارة تتفتت، ولا تلين؛ و{ أو } هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء . رحمهم الله . هل هي بمعنى "بل"، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق . أي أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟ في هذا قولان لأهل العلم . رحمهم الله؛ وهي كقوله تعالى: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون} [الصافات: 147] : فمن العلماء من قال: إن {أو} بمعنى "بل" . أي بل يزيدون على مائة ألف؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق . أي إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا؛ والله أعلم بما أراد في كتابه..

ثم بين الله عزّ وجلّ أن الحجارة فيها خير بخلاف قلوب هؤلاء فإنه لا خير فيها؛ فقال تبارك وتعالى: { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار } يعني إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار . أي أنهار الماء التي يشرب الناس منها، ويسقون بها زروعهم، ومواشيهم..

وقوله تعالى: { لما يتفجر }: { ما } اسم موصول في محل نصب اسم { إن }؛ واللام للتوكيد؛ أي: لَلذِي يتفجر منه الأنهار..

قوله تعالى: { وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء }: وهي دون الأول؛ الأول يتفجر منها الأنهار؛ أما هذه فإنها تتشقق، ويخرج منها الماء كالذي يحصل في أحجار الآبار، وما أشبهها..

قوله تعالى: { وإن منها لما يهبط من خشية الله }، كما قال تعالى: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله} [الحشر: 21] ، ولما قال موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [الأعراف: 143] ، قال الله سبحانه وتعالى له: {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا وخرَّ موسى صعقاً} [الأعراف: 143] ..

وقوله تعالى: { من خشية الله }، { من } هنا سببية؛ و{ خشية الله } أي خوفهم مع العلم بعظمته..

قوله تعالى: { وما الله بغافل عما تعملون }: فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غافلاً عما يعملون؛ وذلك لكمال علمه، وإحاطته تبارك وتعالى..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم..

2. ومنها: تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: { فهي كالحجارة }؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن

الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شبه بـالأمر الحسـي؛ وهـذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين..
.3 ومنها: أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل..
.4 ومنها: بيان قدرة الله سبحانه وتعـالى، حيث جعل هـذه الحجـارة الصماء تتفجر منها الأنهار؛ وقد كان موسى . عليه الصلاة والسلام . يضـرب بعصـاه الحجـر، فينبجس، ويتفجر عيونـاً بقـدرة الله . تبـارك وتعالى
.5 ومنها: أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيراً؛ فـإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهـار؛ ومنها ما يشـقق، فيخـرج منه المـاء؛ ومنها ما يهبط من خشية اللـه؛ وهـذه كلها خيـر، وليس في قلـوب هؤلاء خير..
.6 ومنهـا: أن الجمـادات تعـرف الله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { وإن منها لما يهبط من خشية الله }؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: {يسبح لله ما في السموات وما في الأرض} [الجمعة: 1] ، وقوله تعالى: {تسـبح له السـموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شـــيء إلا يســـبح بحمـــده ولكن لا تفقهـــون تســـبيحهم} [الإسراء: 44] ، وقوله تعالى: {ثم استوى إلى السـماء وهي دخـان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهـاً قالتا أتينا طـائعين} [فصـلت: 11] : ففهمتا الأمر، وانقادتا..
.7 ومن فوائد الآية: عظمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { من خشـية الله }؛ والخشية هي الخـوف المقـرون بـالعلم؛ لقوله تعـالى: { إنما يخشى اللّه َ من عبـاده العلمـاء } [فـاطر: 28]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه..
.8 ومنهـا: سـعة علم الله سـبحانه وتعـالى؛ لقوله تعـالى: { وما الله بغافل عما تعملون }؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعـالى السلبية؛ والصفات السلبية هي التي ينفيها الله سـبحانه وتعـالى عن نفسه. وتتضمن أمرين هما: نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها..

القـرآن

)أَفَتَطْمَعُـونَ أَنْ يُؤْمِنُـوا لَكُمْ وَقَـدْ كَـانَ فَرِيـقٌ مِنْهُمْ يَسْـمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَـهُ مِنْ بَعْـدِ مَا عَقَلُـوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:75)

التفسير:

.{ 75 } قوله تعـالى: { أفتطعمـون أن يؤمنـوا لكم }؛ الهمـزة للاسـتفهام؛ والمـراد به الاسـتبعاد، والتيـئيس . أي تيـئيس المسـلمين من أن يـؤمن هـؤلاء اليهـود لهم؛ والفـاء عاطفة على مقـدر بعد الهمزة مناسب للمقـام؛ و "الطمـع" معنـاه الرجـاء المقـرون بالرغبة الأكيـدة؛ يعـني: أنتم ترجـون مع رغبـة؛ لأن الـذي يرجو الشـيء مع الرغبة الأكيدة فيه يقال: طمع فيه؛ و "الإيمان" هنا بمعنى التصـديق؛ أي أن يُصَدِّقوا لكم؛ ويحتمل أن يكـون بمعـنى الانقيـاد، والاستسـلام

لكم؛ وهذا أمر بعيد؛ لقوله تعالى: { وقد كان فريق منهم... }: الـواو هنا للحـال؛ و{ قد } للتحقيـق؛ فالجملة في محل نصب حـالاً من الـواو في { يؤمنـوا لكم } يعـني: والحـال أن فريقـاً منهم يسـمعون كلام اللـه؛ و "الفريـق" بمعـنى الطائفـة؛ و{ منهم } أي من بـني إسرائيل..
قوله تعـالى: { يسـمعون كلام الله ثم يحرِّفونه }: ذكر المفسـرون فيه قولين:.
القول الأول: أن المراد بذلك التـوراة . يسـمعونها ثم يحرفونها . أي يغيرونهـا؛ ومنه قـولهم: حَـرَفْت الدابة . يعـني غـيرت اتجاههـا؛ { من بعد ما عقلوه } أي من بعد ما فهموها، وعرفوا معناهـا، ولم تشكل عليهم؛ ومن ذلك تحريفهم إياها في صفة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ومبعثـه، وقـولهم: إنه الرسـول المنتظر . وليس هـذا الرسول..
والقـول الثـاني: أن المـراد بـذلك الـذين أسـمعهم الله كلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام؛ وهم الـذين اختـارهم موسى . وهم سـبعون رجلاً فأسـمعهم الله تعـالى كلامه لموسـى، ولكنهم قالوا: { لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة }، ثم حرفوا ما سمعوه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى..
وقد بحثت في كتب التفسير التي لدي فلم أجد احتمالاً ثالثاً . وهو أن المراد بـ{ كلام الله } القرآن، وأنهم يسمعونه، ثم يحرفونه؛ لأن القـرآن كلام اللـه؛ وقد قـال الله تعـالى: {وإن أحد من المشـركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللـه} [التوبـة: 6] أي حـتى يسـمع القـرآن؛ فـإن كـان هـذا الاحتمـال صـحيحاً فهو أقـرب من القـولين السابقين . والله أعلم بمراده..
قوله تعالى: { وهم يعلمون } أي يعلمـون أنهم يحرفـون الكلم أي كلام الله عزّ وجلّ، ويعلمون أن التحريف محرم؛ فتعدوا الحدود، وحرفوا كلام الله عزّ وجلّ، وارتكبوا الإثم عن بصيرة..
الفوائد:
.1 من فوائد الآية: أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه يبعد أن يـؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسـمع كلام اللـه، ثم يحرفـه، أبْعَـدُ قبولاً للحق ممن لم يسمعه..
.2 ومنها: أن الله تعـالى يسلي رسـوله صـلى الله عليه وسـلم بما يـذهب عنه الأسـى، والحـزن؛ حيث بين له حـال هـؤلاء، وأنهم قـوم عتاة لا مطمع في إيمانهم..
.3 ومنهـا: إثبـات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصـوت مسـموع؛ لقوله تعـالى: { يسـمعون كلام الله }؛ وكلام الله . تبـارك وتعـالى . صـفة حقيقية تتضمن اللفظ، والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحـروف، وأصوات مسموعة؛ وتفصـيل ذلك والـرد على من خالفه مـذكور في كتب العقائد..
.4ومنهـا: أن كلام الله سـبحانه وتعـالى من صـفاته الفعلية باعتبـار آحـاده؛ وأما باعتبـار أصل الصـفة فهو صـفة ذاتيـة؛ والفـرق بين الصفات الذاتيـة، والفعلية أن الصـفات الذاتية لازمة لـذات الله أزلاً،

وأبداً . ومعنى "أزلاً" أي فيما مضى؛ و"أبـداً" أي فيما يسـتقبل . مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعـزة، والسـمع، والبصر إلى غـير ذلك، و الصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئته، فتحْـدُث إذا شـاء، كالاسـتواء على العـرش، والنُّزول إلى سـماء الـدنيا، والمجيء يـوم القيامة للفصل بين العبـاد، والفـرح، والرضـا، والغضـب.. عند وجـود أسبابها..

.5 ومن فوائد الآيـة: الـرد على الأشـعرية، وغـيرهم ممن يـرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف، والأصـوات عبـارة عن كلام الله، وليست كلام اللـه؛ بل خلقها الله ليعـبر بها عما في نفسه؛ و الرد عليهم مفصلاً في كتب العقائد..

.6 ومنهـا: أن هـؤلاء اليهـود قد حرفـوا كلام اللـه، لقوله تعـالى: (ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه)..

.7 ومنهـا: بيـان قبح تحريف هـؤلاء اليهـود، لأنهم حرفـوا ما عقلـوه؛ والتحريف بعد عقل المعـنى أعظم؛ لأن الإنسـان الجاهل قد يعـذر بجهلـه؛ لكن الإنسـان العـالم الـذي عقل الشـيء يكـون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها . فيكون أعظم..

.8 ومنها: قبح تحريف كلام اللـه، وأن ذلك من صـفات اليهـود؛ ومن هــذه الأمة من ارتكبــه، لكن القــرآن محفــوظ؛ فلا يمكن وقــوع التحريف اللفظي فيـه؛ لأنه يعلمه كل أحـد؛ وأما التحريف المعنـوي فواقـع، لكن يقيض الله عـزّ وجـلّ من الأئمـة، وأتبـاعهم من يبينـه، ويكشف عوار فاعله..

القـرآن

)وَإِذَا لَقُـوا الَّذِينَ آمَنُـوا قَـالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَـــالُوا أَتُحَــــدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (البقـرة:76))أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) (البقرة:77)

التفسير:

. 76 } قوله تعالى: { وإذا لقوا } الضمير يعود على اليهود؛ أي إذا قابلوا، واجتمعوا بـ{ الـذين آمنـوا } أي بالله ورسـوله محمد صـلى الله عليه وســلم { قـــالوا } أي بألســنتهم { آمنا } أي دخلنا في الإيمان كإيمانكم، وآمنا بالرسول محمد صـلى الله عليه وسـلم هـذا إذا لقـــوا المؤمـــنين؛ و{ إذا خلا بعضـــهم إلى بعض } أي إذا أوى بعضـهم إلى بعض، وانفـرد به قـال بعضـهم لبعض: { أتحـدثونهم }: الاستفهام هنا للإنكار، والتعجب؛ والضمير الهـاء يعـود على المؤمـنين بالرسول صلى الله عليه وسلم يعني يقول اليهود بعضهم لبعض إذا اجتمعوا: كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسـوله { بما فتح الله عليكم } أي من العلم بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم
{ ليحاجوكم به عند ربكم }: اللام للعاقبة . أي أن ما حـدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم..
قوله تعالى: { أفلا تعقلون }: الهمزة للاستفهام؛ والمـراد به التـوبيخ؛ يعني: أين عقـولكم؟! أنتم إذا حـدثتموهم بهـذا، وقلتم: إن هـذا الـذي بُعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة..
قوله تعـــالى: { أفلا تعقلـــون }؛ الفـــاء واقعة بعد همــــزة الاستفهام؛ وهذا يكثر في القـرآن: { أفلا تعقلـون }؛ { أفلا تـذكرون }؛ { أفلم يسـيروا }؛ { أو لم يسـيروا }؛ { أثم إذا ما وقع آمنتم به }؛ وأشــباه ذلــك؛ يعـني أنه يـأتي حـرف العطف بعد همـزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجـود العـاطف؛ لأن الفـاء عاطفـة؛ فقـال بعض النحـويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عُطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخــرون: بل إن الهمـزة مقدمـة؛ وإن حـرف العطف هو الـذي تـأخر . يعـني زُحلق حرف العطف عن مكانـه، وجعلت الهمـزة مكانـه؛ وعلى هـذا فيكون التقدير: فـألا تعقلـون؛ أما على الأول فيكـون التقـدير: أجهلتم فلا تعقلـون؛ أو: أسـفهتم فلا تعقلـون... المهم يقـدر شـيء مناسب حسب السـياق؛ فـالقول الأول أدق؛ والثانية أسـهل؛ لأن الثـاني لا يحتاج عناءً وتكلفاً فيما تقدره بين الهمزة والعاطف..
قوله تعالى: { أو لا يعلمون }: الاستفهام هنا للتـوبيخ، والإنكـار عليهم لكـــونهم نزَّلـــوا أنفســـهم منْزلة الجاهـــل؛ { أن الله يعلم ما يسرون }: يشـمل ما يسـره الإنسـان في نفسـه، وما يسـره لقومه وأصحابه الخاصين به؛ { وما يعلنون } أي ما يظهرون لعامة الناس؛

فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا، وهذا؛ ولا يخفى عليه شيء؛ والمعنى: كيف يؤنب بعضهم بعضاً بهذا الأمر وهم لو جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، وأنكروا نبوَّته، ولم يؤمنوا فإن الله تعالى لا يخفى عليه الأمر؟! فسواء أقروا، أو لم يقروا عند الصحابة أن الرسول حق فإن الله تعالى عالم بهم..

الفوائد:

1. ومن فوائد الآية: أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: { وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا... } إلخ..
2. ومنها: أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: { وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض... } إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين..
3. منها: أن بعضهم يلوم بعضاً على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: (وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم)..
4. ومنها: أن العلم من الفتح؛ لقولهم: { بما فتح الله عليكم }؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه..
5. ومنها: أن المؤمن، والكافر يتحاجَّان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: { ليحاجُّوكم به عند ربكم }؛ ويؤيده قوله تعالى: (ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون } [المؤمنون: 15) ..
6. ومنها: سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحاً عليهم؛ لقولهم: (أفلا تعقلون).
7. ومنها: الثناء على العقل، والحكمة؛ لأن قولهم: { أفلا تعقلون } توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلاً؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت"[1] ..
8. ومنها: أن كفر اليهود بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوباً عليهم..
9. ومنها: توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: { أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون
10. ومنها: إثبات عموم علم الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (يعلم ما يسرون وما يعلنون)
11. ومنها: الوعيد على مخالفة أمر الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { أولا يعلمون أن الله يعلم.... } الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم..

القرآن

[1] أخرجه البخاري ص509، كتاب الأدب، باب 31؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم 6018؛ وأخرجه مسلم ص688، كتاب الإيمان، باب 19: الحث على إكرام الجار...، حديث رقم 173 [74] 47.

)وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُـونَ الْكِتَـابَ إِلَّا أَمَـانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (البقرة:78)

التفسير:

.{ 78 } قوله تعـالى: { ومنهم } أي من اليهـود؛ { أميـون } أي بمنْزلة الأمـيين؛ والأمّي من لا يعـرف أن يقـرأ، ولا أن يكتب؛ { لا يعلمون الكتاب إلا أماني } أي إلا قـراءة بـدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعـــنى فهو في حكم من لا يعـــرف القـــراءة؛ لأنه لا يستفيد شيئاً بقراءته؛ { وإن هم إلا يظنون } أي ما هم إلا يظنون؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف إلا اللفظ ليس عنده علم..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن الأُمّية يوصف بها من لا يقـرأ، ومن يقـرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: { ومنم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني }..

.2 ومنها: ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزّ وجلّ..

.3 ومنهـا: أن من لا يفهم المعـنى فإنه لا يتكلم إلا بـالظن؛ لقوله تعالى: { وإن هم إلا يظنـون }؛ العـامي يقـرأ القـرآن من أوله إلى آخـره، لكن لا يفهم معنـاه؛ فـإذا تكلم في حكم من أحكـام الله الشـرعية الـتي دل عليها الكتـاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى..

.4 ومنهـا: ذم الحكم بـالظن، وأنه من صـفات اليهـود؛ وهـذا موجـود كثيراً عند بعض الناس الذين يحبـون أن يقـال عنهم: "إنهم علمـاء"؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القـرآن، والسـنة وهو لا يعلم..

.5 ومنها: أن المقلد ليس بعالم؛ لأنه لا يفهم المعنى؛ وقد قـال ابن عبد الـبر: "إن العلمـاء أجمعـوا أن المقلد لا يعد في العلمـاء"؛ وهو صحيح: المقلد ليس بعـالم؛ غاية ما هنالك أنه نسـخة من كتـاب؛ بل الكتاب أضبط منه؛ لأنه قد ينسى؛ وليس معنى ذلك أننا نذم التقليد مطلقاً؛ التقليد في موضعه هو الواجب؛ لقوله تعـالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النمل: 43 ..

القـرآن

)فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْـدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُـونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة:79)

التفسير:

.{ 79 } قوله تعـالى: { فويل للـذين يكتبـون الكتـاب بأيـديهم... }؛ "ويل" كلمة وعيد؛ يتوعد الله تعالى من اتصـفوا بهـذه الصـفة؛ وهي مبتدأ؛ وجاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنها تفيد الوعيد . والوعيد معنًى خـاص، فـزال به إجمـال النكـرة المطلقـة؛ و{ الكتـاب } بمعـنى المكتوب؛ والمراد به التوراة؛ { بأيديهم }: كلمة مؤكدة لقوله تعالى: { يكتبون }؛ أو مبينة للواقع؛ لأنه لا كتابة إلا باليد غالبـاً؛ والمعـنى:

أنهم يكتبونه بأيـــديهم، فيتحققـــون أنه ليس الكتـــاب المنَـــزَّل؛ فهم يباشـــرون هـــذه الجناية العظيمـــة؛ { ثم يقولـــون } أي بعـــدما كتبـــوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صُنْع أيديهم؛ { هذا من عند الله } أي نزل من عند الله؛ { ليشتروا به } أي ليأخـــذوا بـــه؛ واللام للتعليـــل؛ فـــإذا دخلت اللام على الفعل المضـــارع تكـــون للتعليل . كما هي هنـــا؛ وتكون للعاقبة، مثل: {ليكون لهم عدوًّا وحزناً} [القصص: 8] ؛ وتكون زائدة، مثل: {يريدون ليطفئوا نـــور اللـــه} [الصـــف: 8] أي يريـــدون أن يطفئوا؛ لأن الفعل "يريد" يتعـــدى بنفسه بـــدون حـــرف الجـــرّ؛ { ثمنـــاً قليلاً } أي عوضـــاً قليلاً؛ وهـــذا العـــوض القليل هو الرئاســـة، والجـــاه، والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: {قل متاع الـــدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى} [النساء: 77] ؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسـبة للآخـــرة؛ كما جـــاء في الحـــديث الصـــحيح الـــذي رواه الإمـــام أحمد بن حنبل من حـــديث سهل بن سعد أن النبي (صلى الله عليه وسلم قال: "لموضع سوط في الجنة خـــير من الـــدنيا وما فيهـــا"[1] : الـــدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيها، وقصورها، وكل ما فيهـــا، وموضع الســـوط متر تقريباً؛ إذاً متاع الدنيا قليل..

قوله تعـــالى: { فويل لهم مما كتبت أيـــديهم }: هـــذا وعيد على فعلهم؛ { وويل لهم مما يكسبون }: هذا وعيد على كسبهم..

الفوائد:

1. من فوائد الآيـــة: الوعيد على الـــذين يكتبـــون الكتـــاب بأيـــديهم، ثم يقولون هذا من عند الله وهم كاذبون..

2. ومنها: أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجـــاه؛ لقوله تعـــالى: { ليشـــتروا به ثمنـــاً قليلاً }؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علماً يبتغى به وجه الله لينال عرضاً من الدنيا..

3. ومنها: أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: {قل متاع الدنيا قليل} (النساء: 77)

4. ومنهـــا: أن الجـــزاء بحسب العمـــل؛ لقوله تعـــالى: (فويل لهم مما كتبت أيديهم)

5. ومنها: إثبات العلل، والأســـباب؛ لقوله تعـــالى: { مما كتبت أيـــديهم }؛ فـــإن هـــذا بيـــان لعلة الوعيـــد؛ وهـــذه غـــير الفائـــدة الســـابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب..

6. ومنها: أن عقوبة القـــول على الله بغـــير علم تشـــمل الفعـــل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى:

{ فويل لهم مما كتبت أيـــديهم وويل لهم مما يكســـبون }؛ فما نتج عن المحـــرم من الكسب فإنه يـــأثم به الإنســـان؛ مثلاً: إنســـان عمل عملاً محرماً . كالغش . فإنه آثم بالغش؛ وهـــذا الكسب الـــذي حصل به هو أيضاً آثم به..

القـــرآن

[1] أخرجه أحمد 5/330، حديث رقم 23183؛ وأخرجه البخاري ص232، كتاب الجهاد والسير، باب 73: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم 2892.

)وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:81)(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:82)

التفسير:
.{ 80 } قوله تعالى: { وقالوا } أي اليهود { لن تمسنا النار } أي لن تصيبنا نار الآخرة { إلا أياماً معدودة } يعنون أنهم يبقون فيها أياماً معدودة، ثم يخلفهم فيها النبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون؛ فنحن نقول: إقراركم على أنفسكم بدخول النار مقبول؛ ودعواكم الخروج من النار دعوى لا بينة لها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى متحدياً إياهم: { قل } . الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. { أتخذتم عند الله عهداً } أي أأخذتم عند الله عهداً أن لا تمسكم النار إلا أياماً معدودة، ثم يخلفكم فيها الرسول، والمؤمنون؟! والاستفهام هنا للإنكار؛ و "العهد" الميثاق، والالتزام؛ { فلن يخلف الله عهده } أي إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد..
قوله تعالى: { أم تقولون على الله ما لا تعلمون }؛ قيل: إن { أم } متصلة؛ وقيل: إنها منقطعة؛ والفرق بينهما من وجهين: الأول: أن المنقطعة تكون بمعنى "بل"؛ و الثاني: أن ما بعدها منقطع عما قبلها؛ وأما المتصلة فتكون بمعنى "أو"، وما بعدها معادل لما قبلها؛ مثال المتصلة: قوله تعالى: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم} [البقرة: 6] ؛ ومثال المنقطعة: قوله تعالى: {أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون} [الطور: 32] أي بل هم قوم طاغون؛ أما في هذه الآية التي نحن بصددها فيحتمل أنها منقطعة؛ وعلى هذا فيكون معناها: بل تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ويحتمل أنها متصلة، فيكون معناها: هل أنتم اتخذتم عند الله عهداً فادعيتموه، أو أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون؟! وعلى كلا الاحتمالين فهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ إذاً إذا لم يكن عندهم من الله عهد، وقد قالوا على الله ما لا يعلمون، فتكون دعواهم هذه باطلة..
.{ 81 } قوله تعالى مبيناً من الذي تمسه النار، ومن الذي لا تمسه: { بلى من كسب سيئة }: قال المفسرون: { بلى } هنا بمعنى "بل"؛ فهي للإضراب الانتقالي؛ ويحتمل أن تكون للإضراب الإبطالي . أي لإبطال قولهم: { لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة }؛ و{ مَنْ } يحتمل أن تكون اسم شرط؛ وجوابه: { فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذي؛

وهي مبتدأ، وخبره: { فأولئك أصحاب النار }، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول الاسم الشرط في العموم؛ والاحتمال الأول أولى؛ و "الكسب" معناها: حصول الشيء نتيجة لعمل؛ و{ سيئة } من ساء يسوء؛ والمراد الأعمال السيئة..

قوله تعالى: { وأحاطت به خطيئته }: "الإحاطة" في اللغة: الشمول؛ و{ أحاطت } أي صارت كالحائط عليه، وكالسور . أي اكتنفته من كل جانب؛ وفي قوله تعالى: { خطيئته } قراءتان: الإفراد، والجمع؛ والإفراد بمعنى الجمع؛ لأنه مفرد مضاف فيعم؛ لكن الجمع يفيد الإشارة إلى أنواع الخطايا..

وقوله تعالى: { سيئة }، و{ خطيئته }: قيل: بمعنى واحد، وأن السيئة امتدت حتى أحاطت به؛ وقيل: إن المراد بالسيئة: الكفر؛ والخطيئة: ما دونه؛ وهذا هو المعروف عند المفسرين..

قوله تعالى: { فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }: المشار إليه ما سبق؛ و{ أصحاب } جمع صاحب . أي أهل النار؛ وسموا أصحاباً لها لملازمتهم إياها . والعياذ بالله؛ و{ خالدون } أي ماكثون؛ فالخلود بمعنى المكث، والدوام؛ ومنه قوله تعالى: {ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود} [ق: 34] ..

.{ 82 } قوله تعالى: { والذين آمنوا وعملوا الصالحات }: مبتدأ؛ خبره: قوله تعالى: { أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون }؛ لما ذكر الله عزّ وجلّ مصير الكافرين ذكر بعده مصير المؤمنين ليكون العبد سائراً إلى الله سبحانه وتعالى بين الخوف والرجاء؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني . أي تُثَنَّى فيه المعاني، والأحوال..

وقوله تعالى: { والذين آمنوا } أي صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان.

وقوله تعالى: { وعملوا الصالحات } أي عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول، والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول، والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح..

قوله تعالى: { أولئك أصحاب الجنة } أي أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة ملازمة؛ و{ الجنة }: الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[1] ، كقوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} (السجدة: 17).

قوله تعالى: { هم فيها خالدون } سبق الكلام عليها..

الفوائد:

---

[1] اخرجه البخاري ص263، كتاب بدء الخلق، باب 8: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم 2344؛ وأخرجه مسلم ص1169، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب 1: صفة الجنة، حديث رقم 7130 [2] 2824.

.1 من فوائد الآية: أن اليهود يقرون بـالآخرة، وأن هنـاك نـاراً، لقوله تعالى: { وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة }؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذبوا محمـداً صـلى الله عليه وسـلم؛ وعلى هـذا ليسوا بمؤمنين..
.2 ومنهـا: أنهم قـالوا على الله ما لا يعلمـون، إما كـذباً، وإما جهلاً؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: { أم تقولون على الله ما تعلمون..
.3 ومنهـا: حسن مجادلة القـرآن؛ لأنه حصر هـذه الـدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما منتفٍ: { أتخـذتم عند الله عهـداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون }؛ وهذا على القـول بـأن { أم } هنا متصلة؛ أما على القـول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد..
.4 ومنهـا: أن الله سـبحانه وتعـالى لن يخلف وعـده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صـفتين عظيمـتين همـا: الصـدق، والقـدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكَـذِب، وإما لعجـز؛ فكـون الله . جـلَّ وعلا . لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته..
.5 ومنها: أن من دأب اليهود القول على الله بلا علم؛ لقوله تعـالى: { أم تقولون على الله ما لا تعلمـون }؛ والقـول على الله يتضـمن القـول عليه في أحكامـه، وفي ذاتـه، وصـفاته؛ من قـال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل، أو حـرَّم، أو أوجب، فقد قـال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئاً من أسماء، أو صـفات لم يثبته الله لنفسه فقد قـال على الله بلا علم؛ ومن نفى شـيئاً من أسـمائه وصـفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صـرف شـيئاً عن ظـاهره من نصـوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم..
.6 ومن فوائد الآيـة: تحـريم الإفتـاء بلا علم؛ وعلى هـذا يجب على المفتي أن يتقي الله عـزّ وجـلّ، وألا يتسـرع في الإفتـاء؛ لأن الأمر خطير..
.7 . ومنهـا: أن الثـواب والعقـاب لا يـترتب على الأشـخاص بحسب النسب، أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل..
.8 ومنهـا: أن من أحـاطت به خطيئته فلم يكن له حسـنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها..
.9 ومنهـا: أن من كسب سـيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها . ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه..
.10 ومنها: إثبات النار، وأنها دار الكافرين
.11 ومنها: خلود أهل النار فيها؛ وهو خلـود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزّ وجلّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القـرآن؛ الأول: في سـورة النسـاء في قوله تعـالى: {إن الـذين كفـروا وظلمـوا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديـدهم طريقـاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً} [النسـاء: 168، 169] ؛ الموضع الثاني: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {إن الله لعن الكـافرين وأعد لهم سـعيراً * خالـدين فيها أبـداً لا يجدون ولياً ولا نصـيراً} [الأحـزاب: 64، 65] ؛ الموضع الثـالث: في

سورة الجن في قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً} [الجن: 23] ..

12. ومن فوائد الآية: أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان، والعمل الصالح؛ ولا يكون العمل صالحاً إلا بأمرين: الإخلاص لله عزّ وجلّ، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[1]. وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"[2] . وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم "فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مِائة شرط[3]" ..

13. ومن فوائد الآية: أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بد من عمل صالح..

14. ومنها: أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادراً عن إيمان؛ لقوله تعالى: { آمنوا وعملوا الصالحات ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم..

15. ومنها: بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: {الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني} [الزمر: 23] ؛ فإن من معاني المثاني أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك..

16. ومنها: إثبات الجنة..

17. منها: أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة..

القرآن

)وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (البقرة:83)

التفسير:

.{ 83 } قوله تعالى: { وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل } أي اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛ و "الميثاق" : العهد؛ وسمي "العهد" ميثاقاً؛ لأنه يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي، والأرجل؛ لأنه يُلزمه؛ و{ إسرائيل } هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وبنوه: ذريته من ذكور، وإناث، كما يقال: "بنو تميم" لذكورهم، وإناثهم؛ و "بنو إسرائيل" بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛ وجدهم واحد . وهو إبراهيم

---

[1] سبق تخريجه ص90.

[2] سبق تخريجه ص91.

[3] أخرجه البخاري ص201 – 202، كتاب المكاتب، باب 3: استعانة المكاتب وسؤاله الناس، حديث رقم 2563؛ وأخرجه مسلم ص937، كتاب العتق، باب 1: ذكر سعاية العبد، حديث رقم 3779 [8] 1504.

صلى الله عليه وسلم والميثاق بينه الله سبحانه وتعالى بقولـه: { لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتـامى والمسـاكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة }؛ فالميثاق اشتمل على ثمانية أمور:.

الأول: أن لا يعبدوا إلا الله؛ لقوله تعـالى: { لا تعبـدون إلا الله }؛ و "العبادة" معناهـا: الـذل، والخضـوع؛ مـأخوذة من قـولهم طريق معبَّد . أي مذلَّل..

الثــاني: الإحســان إلى الوالــدين؛ لقوله تعــالى: { وبالوالــدين إحساناً } أي أحسنوا بالوالدين إحساناً؛ وهو شامل للإحسان بالقول، والفعـل، والمـال، والجـاه، وجميع طـرق الإحسـان؛ لأن الله أطلـق؛ فكل ما يسـمى إحســاناً فهو داخل في قوله تعــالى: { وبالوالــدين إحساناً }؛ والمراد بـ "الوالدين" الأب، والأم، والأباعد لهم حق؛ لكن ليســوا كحق الأب، والأم الأدنــيين، ولهــذا اختلف إرثهم، واختلف ما يجب لهم في بقية الحقوق..

الثالث: الإحسان إلى القرابـة؛ لقوله تعـالى: { وذي القــربى }؛ وهي معطوفة على قوله تعـالى: { بالوالــدين }؛ والمعـنى: وإحســاناً بذي القربى؛ و{ ذي } بمعنى صاحب؛ و{ القـربى } بمعـنى القرابـة؛ ويشمل: القرابة من قِبَلِ الأم؛ والقرابة من قِبَلِ الأب، لأن { القربى } جاءت بعد "الوالدين" أي القربى من قِبَل الأم، ومن قِبَل الأب..

الرابع: الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعـالى: { واليتـامى }: جمع يتيم . وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكـر، أو أنـثى، وأوصى الله تعـالى باليتـامى؛ لأنه ليس لهم من يـربيهم، أو يعـولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة، والرحمة، والرعاية..

الخامس: الإحسـان إلى المسـاكين؛ لقوله تعـالى: { والمسـاكين }: جمع مسـكين وهو الفقـير الـذي أسـكنه الفقـر؛ لأن الإنسـان إذا اغتــنى فإنه يطغى، ويــزداد، ويرتفع، ويعلــو؛ وإذا كــان فقــيراً فإنه بــالعكس، وهنا يــدخل الفقــراء مع { المســاكين }؛ لأن "الفقــراء"، و"المســاكين" من الأسـماء الـتي إذا قـرنت افـترقت؛ وإذا افـترقت اجتمعت؛ فكلمة "الفقـــراء" إذا كـــانت وحـــدها شـــملت الفقـــراء، والمســاكين؛ و"المســاكين" إذا كــانت وحــدها شــملت الفقــراء، والمســاكين؛ وإذا قيــل: فقــراء ومســاكين . مثل آية الزكــاة: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} [التوبة: 60] . صار "الفقراء" لها معنى؛ و"المساكين" لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: فـ"الفقــير": من لا يجد شيئاً من الكفايـة، أو يجد دون النصـف؛ و"المسـكين": من يجد نصف الكفاية دون كمالها..

السادس: أن يقولوا للناس قولاً حسناً؛ لقوله تعـالى: { وقولــوا للنــاس حســناً } بسـكون السـين، وفي قـراءة: { حسَـناً } بفتحهـا؛ والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئتـه؛ وفي معنـاه، ففي هيئتـه: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة، والشـدة، وفي معنـاه: بـأن يكـون خـيراً؛ لأن كل قـولٍ حسـنٍ فهو خـير؛ وكل قـول خـير فهو حسن..

السابع: إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: { وأقيموا الصلاة } أي ائتوا بها قائمة . أي قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بـــأن يـــأتوا بها بشـروطها، وأركانهـا، وواجباتهـا؛ وكمـال ذلك أن يـأتوا بمسـتحباتها؛ و{ الصلاة } تشمل الفريضة، والنافلة..

الثامن: إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: { وآتـوا الزكـاة } أي أعطوها مسـتحقها؛ و "الزكـاة" هي النصـيب الـذي أوجبه الله لمسـتحقه في الأموال الزكوية..

قوله تعــالى: { ثم تــوليتم إلا قليلاً منكم } فيه التفــات من الغيبة إلى الخطــاب؛ وفائدتــه: إدخــال الموجــودين في عهد النــبي صلى الله عليه وسـلم في هـذا الحكم . أعـني التـولي؛ و "التـولي" ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعـراض؛ لأن الإعـراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار..

قوله تعـالى: { وأنتم معرضـون } الجملة هنا حاليـة؛ أي تـوليتم في إعـراض؛ وذلك أن المتـولي قد لا يكـون عنـده إعـراض في قلبه . فقد يتولى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تـولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يُقْبِل بعد ذلك..

الفوائد:

.1 ن فوائد الآيـة: بيـان عظمة الله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { وإذ أخــذنا }؛ لأن الضــمير هنا للتعظيم؛ وهو ســبحانه وتعــالى العظيم الذي لا أعظم منه..

.2 ومنهــا: أن التوحيد جــاءت به الرسل جميعــاً؛ لقوله تعــالى: (لا تعبدون إلا الله).

.3 ومنهـا: أن العبـادة خاصة بالله . تبـارك وتعـالى؛ فلا يعبد غـيره؛ لقوله تعالى: { لا تعبدون إلا الله }؛ لأن هذا يفيد الحصر..

.4 ومنها: وجـوب الإحسـان إلى الوالـدين؛ لقوله تعـالى: { وبالوالـدين إحسـاناً }؛ وإنما أوجب ذلـك؛ لأن نعمة الوالـدين على ولـدهما هي التي تلي نعمة الله عزّ وجلّ؛ ولذلك قـال الله سـبحانه وتعـالى في سورة لقمان: {أن اشكر لي ولوالديك} [لقمـان: 14] ؛ فهما سـبب وجـودك، وإمـدادك، وإعـدادك . وإن كـان أصل ذلك من اللـه؛ فلـولا الوالـدان ما كنت شـيئاً؛ والإحسـان إلى الوالـدين شـامل للإحسـان بـالقول، والفعـل، والمـال، والجـاه، وغـير ذلك من أنـواع الإحسـان؛ وضده أمران؛ أحدهما أن يسـيء إليهمـا؛ والثـاني: أن لا يحسـن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء..

.5 ومن فوائد الآيـة: وجـوب الإحسـان إلى ذوي القـربى . أي قرابة الإنسان . وهم من يجتمعون به بـالأب الرابـع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحســان يتفــاوت؛ فكل من كــان أقــرب فهو أولى بالإحســان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قـــوي بحسب قـــوة ذلك الوصف؛ فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكـثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخـال أكـثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال..

.6 ومنها: وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} [الأنعام: 152] ..

.7 ومنها: وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك..

.8 ومنها: وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: { وقولوا للناس حسناً }؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما قول السوء فإنه منهي عنه؛ وأما القول الذي ليس بسوء، ولا حسن فليس مأموراً به، ولا منهياً عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم: {لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراماً} [الفرقان: 72] ؛ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً؛ أو ليصمت"[1] ..

.9 ومنها: الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها..

.10 ومنها: أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا..

.11 ومنها: وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: (وآتوا الزكاة)

.12 ومنها: وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم..

.13 ومنها: أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به إلا القليل منهم..

.14 ومنها: أن تولي بني إسرائيل كان تولياً كبيراً، حيث كان تولياً بإعراض..

.15 ومنها: أن المتولي المعرض أشد من المتولي غير المعرض..

.16 ومنها: أن التولي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقاً لم يستقم قوله: (وأنتم معرضون)

القرآن

)وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) (البقرة:84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:85)(أُولَئِكَ

---

[1] سبق تخريجه ص255.

الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا بِـالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) (البقرة:86)

التفسير:

. { 84 . 85 } قوله تعـالى: { وإذ أخـذنا ميثـاقكم }: يـذَكِّرهم الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ وبين الله تعـالى الميثـاق هنا بأمرين:.

الأول: قوله تعـالى: { لا تسـفكون دمـاءكم } أي لا تريقونهـا؛ و"السفك"، و"السفح" بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الـدم: القتـل، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة: "لا يحل لامرئ يـؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً"[1] أي يقتل نفساً بغير حـق؛ و{ دماءكم } أي دماء بعضـكم؛ لكن الأمة الواحـدة كالجسد الواحـد؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ذمة المسـلمين واحـدة يسعى بها أدناهم"[2] ، وقال: "ويجير عليهم أقصاهم"[3] "..

الأمر الثاني: قوله تعـالى: { ولا تخرجـون أنفسـكم من ديـاركم }؛ المراد: لا يخرج بعضكم بعضاً من ديـاركم؛ ولا شك أن الإخـراج من الوطن شاق على النفوس؛ وربما يكون أشق من القتل..

قوله تعـالى: { ثم أقـررتم وأنتم تشـهدون } أي ثم بعد هـذا الميثاق بقيتم عليـه، وأقـررتم بـه، وشـهدتم عليـه، ولم يكن الإقـرار غائبـاً عنكم، أو منسـياً لـديكم؛ بل هو بـاق لا زائـل؛ ثم بعد هـذا الميثاق، والإقرار بـه، والشـهادة عليه { أنتم هـؤلاء تقتلـون أنفسـكم }؛ و{ هؤلاء } منادى حذف منه حرف النداء . أي: يا هؤلاء؛ وليست خبر المبتـدأ؛ و{ أنتم }: مبتـدأ خـبره جملـة: { تقتلـون }؛ والخطـاب لمن كـان في عهد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك، ورضوا به..

وقوله تعـالى: { تقتلـون أنفسـكم } أي يقتل بعضـكم بعضـاً؛ { وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم } أي تجلونهم عن الديار؛ وهـذا وقع بين طوائف اليهـود قـرب بعثة النـبي صـلى الله عليه وسـلم حيث قتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم..

قوله تعالى: { تظاهرون } بتخفيف الظاء؛ وفيها قـراءة أخـرى: { تظّاهرون } بتشديد الظـاء؛ وأصـله: تتظـاهرون؛ ولكن أبـدلت التـاء ظـاءً، ثم أدغمت بالظـاء الأصـلية؛ و{ تظـاهرون } أي تعـالَون؛ لأن الظهور معناه العلوّ، كما قال الله تعـالى: { هو الـذي أرسل رسـوله بالهـدى ودين الحق ليظهـره على الـدين كله } [الصـف: 9] يعـني ليعليـه؛ وسـمي العلـوّ ظهـوراً: من الظهـر؛ لأن ظهر الحيـوان أعلاه؛

---

[1] أخرجه البخاري ص12، كتاب العلم، باب 37: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم 104؛ وأخرجه مسلم ص903 – 904، كتاب الحج، باب 82: تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها...، حديث رقم 3304 [446] 1354.

[2] أخرجه البخاري ص257، كتاب الجزية والموادعة، باب 17: إثم من عاهد ثم غدر، حديث رقم 3179؛ وأخرجه مسلم ص905، كتاب الحج، باب 85: فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة...، حديث رقم 3327 [467] 1370.

[3] اخرجه أبو داود ص1428، كتاب الجهاد، باب 147: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم 2751؛ وأخرجه ابن ماجه ص2638، كتاب الديات، باب 31: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث رقم 2685، قال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح 2/170.

وقيل: { تظاهرون } أي تعينون من يعتدي على بعضكم في عدوانه..

قوله تعالى: { بالإثم } أي بالمعصية؛ { والعدوان } أي الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدواناً . إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب الخمر عاصٍ، وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصوماً هذا آثم، ومعتد؛ والذي يخرجه من بلده آثم، ومعتد؛ ولهذا قال تعالى: { تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان }؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع الإقرار، والشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم، والعدوان..

قوله تعالى: { وإن يأتوكم } أي يجيئون إليكم؛ { أسارى }: جمع أسير؛ وتجمع أيضاً على أسرى، كما في قوله تعالى: {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى} [الأنفال: 70] ؛ والأسير هو الذي استولى عليه عدوه؛ ولا يلزم أن يأسره بالحبل؛ لكن الغالب أنه يؤسر به؛ لئلا يهرب؛ و{ تفادوهم } أي تفكوهم من الأسر بفداء؛ وفي قراءة(تفدوهم)

قوله تعالى: { وهو محرم عليكم إخراجهم } يعني: تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله؛ ولهذا قال الله تعالى: { أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض }؛ والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: { أفتؤمنون } عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام[1] ؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار..

قوله تعالى: { فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة }؛ "ما" نافية؛ والجزاء، والمجازاة، والمعاقبة معناها واحد؛ أو متقارب؛ ومعنى "الجزاء" : إثابة العامل على عمله؛ والمعنى: ما ثوابكم على عملكم هذا إلا خزي في الحياة الدنيا؛ و "الخزي" معناه الذلّ..

قوله تعالى: { ويوم القيامة } أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه يقام فيه العدل؛ و{ يوم القيامة } ظرف متعلق بـ{ يردون } أي يرجعون من ذلّ الدنيا، وخزيها؛ { إلى أشد العذاب } أي أعظمه؛ و{ العذاب }: العقوبة..

قوله تعالى: { وما الله بغافل }: هذه صفة سلبية . أي نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه، ومراقبته؛ و{ عما تعملون }: بالتاء؛ وفيها قراءة: { يعملون }: بالياء..

.{ 86 } قوله تعالى: { أولئك }: المشار إليه هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد؛ { اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة } أي اختاروا الدنيا على

---

[1] ص249.

الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمناً . لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منْزلة . لأنها دون الآخرة؛ وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها[2]" ..

وقوله تعالى: { بالآخرة }: الباء هنا للبدل؛ وهي تدخل دائماً على الثمن، كقولهم: "اشتريت الثوب بدينار": فالدينار هو الثمن؛ ويقال: "اشتريت الدينار بثوب": فالثوب هو الثمن..

قوله تعالى: { فلا يخفف عنهم العذاب } أي لا يهوَّن عنهم لا زمناً، ولا شدة، ولا قوة؛ { ولا هم ينصرون } أي ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} [غافر: 49، 50] ؛ فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: "أخرجنا من النار"، ولم يقولوا: "يخفف عنا دائماً"؛ بل قالوا: {يخفف عنا يوماً من العذاب} : يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يوماً واحداً من الأبدي السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيخاً، وتقريعاً، وتنديماً: { أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا }؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: { وما دعاء الكافرين إلا في ضلال }، أي ضياع..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: أن بني إسرائيل أُخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم)
2. ومنها: تحريم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم..
3. ومنها: أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: (لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم).
4. ومنها: الأسلوب البليغ في قوله تعالى: { لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم }؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نُهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه
5. ومنها: أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: { ثم أقررتم وأنتم تشهدون..
6. ومنها: بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويخرج بعضهم بعضاً من ديارهم..
7. ومنها: أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم، والعدوان..
8. ومنها: تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: { تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان }؛ وأما إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: 13]

---
[2] سبق تخريجه ص258.

، وقال تعـالى: {فلا تهنـوا وتـدعوا إلى السـلم وأنتم الأعلـون والله معكم ولن يتركم أعمالكم} [محمد: 35] ..
.9 ومنها: تنـاقض بـني إسـرائيل في دينهم، وقبـولهم للشـريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضاً، ويخرج فريقاً من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أســيراً فــاداه . أي دفع فدية لفك أســره؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضـاً؛ وهـذا من الإيمـان ببعض الكتـاب، والكفر ببعضـه؛ ولهـذا قـال الله تعـالى: { أفتؤمنـون ببعض الكتـاب وتكفرون ببعض }..
.10 ومنها: أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بـــــــالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: { كذبت قوم نوح المرسلين } [الشعراء: 105] . ونــــوح هو أول الرسل لم يســـبقه رســـول؛ ومع ذلك جعل الله المكــذبين له مكــذبين لجميع الرسـل؛ ولقوله تعـالى: {إن الــذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقـوا بين الله ورسـله ويقولـون نـؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريــدون أن يتخــذوا بين ذلك سـبيلًا * أولئك هم الكـافرون حقـاً وأعتـدنا للكـافرين عـذاباً مهينـاً} [النسـاء: 150، 151] ..
.11 ومن فوائد الآيــة: مضــاعفة العقوبة على بـني إسـرائيل؛ لقوله تعالى: (فما جـزاء من يفعل ذلك منكم إلا خـزي في الحيـاة الـدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب)
.12 ومنها: إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم..
.13 ومنها: تهديد الذين نقضـوا العهـد؛ لقوله تعـالى: (وما الله بغافل عما تعملون)
.14 ومنها: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه..
.15 ومنها: إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعـالى؛ وإنما النفي الواقع في صـفاته لبيـان كمـال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبـارك وتعالى: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهـف: 49] إثبـات كمـال العـدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: {وما مسَّـنا من لغـوب} [ق: 38] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضـابط في الصـفات الـتي نفاها الله تعـالى عن نفسه أنها تـدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها..
.16 ومن فوائد الآيـة: تـوبيخ من اختـار الـدنيا على الآخـرة؛ وهو مع كونه ضلالاً في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليــل، ثم يزول؛ والآخرة خير، وأبقى..
.17 ومنها: أن هـؤلاء القـوم خالـدون في العـذاب أبد الآبـدين؛ لقوله تعالى: { فلا يخفف عنهم العذاب }..
.18ومنهـا: أن المجـرم لا يجد ناصـراً له يمنعه من عـذاب الله عـزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { ولا هم ينصرون }..
مسألة :-

هذا الذي قصه الله تعالى علينا من أخبار بني إسرائيل مضمونه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه ولكن مع الأسف أن بعض هذه الأمة وقعوا في جنس ما وقع فيه بنو إسرائيل؛ وهذا مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم "لتركبن سنن من كان قبلكم[1]" ..

القرآن

)وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) (البقرة:87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة:88)

التفسير:

.{ 87 . 88 } قوله تعالى: { ولقد }: اللام موطئة للقسم؛ و "قد" للتحقيق؛ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكّدة بثلاثة مؤكّدات . وهي: القسم المقدَّر، واللام الموطئة للقسم، و "قد"؛ و{ آتينا } أي أعطينا؛ و{ موسى } هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ و{ الكتاب }: المراد به هنا التوراة..

قوله تعالى: { وقفينا من بعده بالرسل } أي أتبعنا من بعده بالرسل؛ لأن التابع يأتي في قفا المتبوع..

قوله تعالى: { وآتينا عيسى ابن مريم } أي أعطيناه { البينات }: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: الآية البينات . أي الظاهرات في الدلالة على صدقه، وصحة رسالته؛ وهذه الآية البينات تشمل الآية الشرعية، كالشريعة التي جاء بها؛ والآية القدرية الكونية، كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله..

قوله تعالى: { وأيدناه } أي قويناه، كقوله تعالى: {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين} [الصف: 14] أي قويناهم عليهم؛ وهو معروف اشتقاقه؛ لأنه من "الأيد" بمعنى القوة، كما قال الله تعالى: { والسماء بنيناها بأيد } [الذاريات: 47] أي بقوة..

قوله تعالى: { بروح القدس } من باب إضافة الموصوف إلى صفته . أي بالروح المقدس؛ و"القُدُس"، و"القُدْس" بمعنى الطاهر؛ واختلف المفسرون في المراد بـ "روح القدس":.

القول الأول : أن المراد روح عيسى؛ لأنها روح قدسية طاهرة؛ فيكون معنى: {أيدناه بروح القدس } أي أيدناه بروح طيبة طاهرة تريد الخير، ولا تريد الشر..

---

[1] أخرجه أحمد 5/218، حديث رقم 22242؛ وأخرجه الترمذي ص1871، كتاب الفتن، باب 18: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث رقم 2180؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه 8/248، باب: ذكر الأخبار عن اتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم، حديث رقم 6667، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح 2/235، حديث رقم 1771.

والقـول الثـاني : أن المـراد بــ "روح القـدس" : الإنجيـل؛ لأن الإنجيل وحي؛ والـوحي يسـمى روحـاً، كما قـال الله تعـالى: {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا} [الشورى: 52] ..

و القـول الثـالث: أن المـراد بــ "روح القـدس" جبريل . عليه الصلاة والسلام . كما قال تعالى: {قل نزله روح القـدس من ربـك} [النحـل: 102] : وهو جبريـل؛ وقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم لحسان بن ثابت وهو يهجو المشركين: "اللهم أيده بـروح القـدس"[2] أي جبريل؛ وهذا أصح الأقوال . وهو أن المـراد بــ "روح القـدس" : جبريل . عليه الصلاة والسلام . يكون قريناً له يؤيده، ويقويه، ويلقنه الحجة على أعدائه؛ وهذا الـذي رجحنـاه هو الـذي رجحه ابن جريـر، وابن كثــير . أن المــراد بـــ "روح القــدس" : جبريل عليه الصــلاة والسلام..

قوله تعالى: { أفكلما }: الهمزة للاسـتفهام الإنكـاري، والتـوبيخ؛ والفـاء عاطفـة؛ و "كلمـا" أداة شـرط تفيد التكـرار؛ ولا بد فيها من شـرط، وجـواب؛ والشـرط هنـا: قوله تعـالى: { جـاءكم }؛ والجـواب: { استكبرتم }..

وقوله تعـالى: { أفكلما جـاءكم رسـول } أي من اللـه؛ { بما } أي بشرع؛ { لا تهوى أنفسكم } أي لا تريـد؛ { اسـتكبرتم } أي سـلكتم طريق الكبريـاء، والعلـوّ على ما جـاءت به الرسـل؛ { ففريقـاً } أي طائفــة؛ ونصب على أنه مفعــول مقــدم لــ{ كــذبتم }؛ { وفريقــاً تقتلون } أي وطائفة أخـرى تقتلـونهم؛ وقـدم المفعـول على عاملـه؛ لإفادة الحصر مع مراعـاة رؤوس الآي؛ والحصر هنا في أحد شـيئين لا ثالث لهما: إما التكذيب؛ وإما القتل . يعني مع التكذيب..

وهنا قال تعالى: { كذبتم } . فعل ماض؛ وقال تعالى: { تقتلون } . فعل مضارع؛ فأما كون الأول فعلاً ماضياً فالأمر فيه ظاهر؛ لأنه وقع منهم التكـذيب؛ وأما الإتيـان بفعل مضـارع بالنسـبة للقتل فهو أولاً مراعـاة لفواصل الآيـة؛ لأنه لو قـال: "فريقـاً قتلتم" لم تتناسب مع التي قبلها، والـتي بعـدها؛ ثم إن بعض العلمـاء أبـدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم قتلوا الرسول صـلى الله عليه وسـلم بالسم الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه صلى الله عليه وسلم ما زال يتأثر منه حتى إنه صلى الله عليه وسلم في مرض موته قال: "ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني"[1] ؛ قال الزهري: إن النبي صلى الله عليه وسلم مات شهيداً؛ لأن اليهود تسـببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكـون هـذا من أسـرار التعبـير بالمضـارع في القتـل؛ وإن كـان قد يَـرِدُ عليه أن التكـذيب اسـتمر حـتى زمن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم فلمـاذا لم يقـل: "فريقـاً تكـذبون

---

[2] أخرجه البخاري ص38، كتاب الصلاة، باب 68: الشعر في المسجد، حديث رقم 453؛ وأخرجه مسلم ص1114 – 1115، كتاب فضائل الصحابة، باب 34: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حديث رقم 6384 [151] 2485.

[1] أخرجه البخاري معلقاً ص322، كتاب المغازي، باب 84: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته...، حديث رقم 4428؛ وأخرجه الحاكم موصولاً 3/58، كتاب المغازي، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وأخرجه أبو داود ص1554، كتاب الديات، باب 6: فيمن سقى رجلاً سماً أو اطعمه فمات، حديث رقم 4512، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح 3/91.

وفريقاً تقتلون"؟! والجواب عن هذا أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل..
فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي صلى الله عليه وسلم مات شهيداً؛ لأن اليهود كانوا سبباً في قتله، وقد قال الله تعالى: { والله يعصمك من الناس }؟
فالجواب: المراد بقوله تعالى: { يعصمك من الناس }: حال التبليغ؛ أي بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبداً في حال تبليغه، فقتله..
قوله تعالى: { وقالوا } أي بنو إسرائيل معتذرين عن ردهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ { قلوبنا غلف } جمع أغلف؛ و"الأغلف" هو الذي عليه غلاف يمنع من وصول الحق إليه . يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة؛ ولهذا قال تعالى: { بل لعنهم الله بكفرهم }؛ و{ بل } للإضراب الإبطالي . أي أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، وبيَّن أنه تعالى: { لعنهم } . أي طردهم، وأبعدهم عن رحمته؛ { بكفرهم } أي بسبب كفرهم، حيث اختاروا الكفر على الإيمان؛ و "كُفْر" مصدر مضاف إلى فاعله؛ ولم يذكر مفعوله ليعم الكفرَ بكل ما يجب الإيمان به..
قوله تعالى: { فقليلاً ما يؤمنون } أي قليلاً إيمانهم؛ وعلى هذا تكون { ما } إما مصدرية؛ وإما زائدة لتوكيد القلة؛ وهل المراد بالقلة العدم، أو هي على ظاهرها؟ المعنى الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليه القرائن الحالية، أو اللفظية..
الفوائد:
.1 من فوائد الآيتين: إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب)
.2 ومنها: تأكيد الخبر ذي الشأن . وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: { ولقد آتينا }؛ فإنها مؤكدة بثلاث مؤكدات مع أنه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:.
أولاً: إذا خوطب به المنكِر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوباً..
ثانياً: إذا خوطب به المتردد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد استحساناً..
ثالثاً: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده . وإن خوطب به من لم ينكر، أو يتردد..
3 . ومن فوائد الآيتين: أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: { وقفينا من بعده بالرسل }؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار} (المائدة: 44)
.4 ومنها: ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: (وآتينا عيسى بن مريم البينات)
.5 ومنها: أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه..

وبهـذا نعـرف أن القـول الـراجح من أقـوال أهل العلم أن أم من ليس له أب شرعاً هي عصبته؛ فـإن عـدمت فعصـبتها . خلافـاً لمن قـال: إن أمه ليس لها تعصـيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثـال: فلو مـات من ليس له أب عن أمه، وخالـه: فلأمه الثلث والبـاقي لخاله . على قـول من يقـول: إن الأم لا تعصـيب لهـا؛ أما على القـول الـراجح: فلأمه الثلث فرضاً، والباقي تعصيباً..

.6 ومن فوائد الآيـتين: أن عيسى بن مـريم صـلى الله عليه وسـلم أعطاه الله سبحانه وتعالى آيـات كونيـة، وشـرعية؛ مثـال الشـرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخـراجهم من القبـور، وإبـراء الأكمـه، والأبـرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطـير، فينفخ فيـه، فيكون طيراً يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضاً يخـبرهم بما يـأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونيـة؛ لأن الطب في عهـده ارتقى إلى درجة عاليـة، فأتـاهم بآيـات لا يقـدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم ترقى في عهـده الكلام إلى منْزلة عالية في البلاغـة، والفصـاحة؛ فآتـاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله..

.7 ومن فوائد الآيتين: أن الله سـبحانه وتعـالى أيد عيسى بجبرائيـل؛ لقوله تعالى: { وأيدناه بروح القدس.

.8 ومنهـا: أن الملائكة من جملة تسـخيرهم للخلق أنهم يؤيـدون من أمَرَهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: "اللهم أيده بروح القدس[1]" ..

.9 ومنهـا: بيـان عتـوّ بـني إسـرائيل، وأنهم لا يريـدون الحـق؛ لقوله تعالى: (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)

.10 ومنهـا: أن بـني إسـرائيل يبـادرون بالاسـتكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: { أفكلما جاءكم }، ثم قال تعالى: { اسـتكبرتم }؛ لأن مقتضى تـرتب الجـزاء على الشـرط أن يكـون الجزاء عقيباً للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فوراً..

.11 ومنهـا: تـوبيخ ولـوم بـني إسـرائيل، وبيـان منـاهجهم بالنسـبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسـبة لمن جـاء بالشـرائع بما لا تهـوى أنفسـهم: انقسموا إلى قسمين: فريقاً يكذبون؛ وفريقاً يقتلون مع التكذيب..

.12 ومنهـا: أن من اسـتكبر عن الحق إذا كـان لا يوافق هـواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فـإذا اسـتكبر عن الحق . سـواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذا الحق، ولكنه استكبر عنه . فإنه مشابه ببني إسرائيل..

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين: قسم يقرُّ به، ويعـترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسـبيله بين، وقسم آخر يسـتكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله..

---

[1] سبق تخريجه ص282.

13. ومن فوائد الآيتين: أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه..
14. ومنها: أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب..
15.ومنها: أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف..
16. ومنها: أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نُصِحوا، ودُعوا إلى الحق قالوا: "ما هدانا الله"؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: (قلوبنا غلف)
17. ومنها: أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: { بل لعنهم الله }؛ وهذا الإضراب للإبطال . يعني ليست القلوب غَلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصل الحق؛ وهو لَعْن الله إياهم بسبب كفرهم..
18. ومنها: أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع..
19. منها: بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئاً؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها..
20. ومنها: إثبات الأسباب، وأن لها تأثيراً في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم).
21. ومنها: أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: (فقليلاً ما يؤمنون)

القرآن

)وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (البقرة:89)

)بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) (البقرة:90)

التفسير:

.{89 } قوله تعالى: { ولما جاءهم كتاب }: هو القرآن؛ ونكَّره هنا للتعظيم؛ وأكد تعظيمه بقوله تعالى:

{ من عند الله }، وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه . كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله..

قوله تعالى: { مصدق لما معهم }: له معنيان:.

الأول: أنه حكم بصـــدقها، كما قـــال في قوله تعـــالى: {آمن الرســول بما أنــزل إليه من ربه والمؤمنــون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} [البقرة: 285] ؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصـدقها، كما لو أخـبرك إنسان بخبر، فقلت: "صدقت" تكون مصدقاً له..

المعنى الثـاني: أنه جـاء مطابقـاً لما أخـبرت الكتب السـابقة . التوراة، والإنجيل؛ فعيسى بن مـريم صـلى الله عليه وسـلم (قـال: {إني رسول الله إليكم مصـدقاً لما بين يـدي من التـوراة ومبشـراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] ؛ فجاء هذا الكتاب مصدقاً لهذه البشارة..

وقوله تعـالى: { لما معهم } أي من التـوراة، والإنجيـل؛ وهـذا واضح أن التـــوراة أخـــبرت بالرســـول صـــلى الله عليه وســـلم إما باسمه، أو بوصفه الذي لا ينطبق على غيره..

قوله تعالى: { وكانوا من قبل } أي من قبل أن يجيئهم {يستفتحون } أي يستنصرون، ويقولـون سـيكون لنا الفتح، والنصر { على الـذين كفروا } أي من المشركين الذين هم الأوس، والخـزرج؛ لأنهم كـانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتـاب . كما هو معـروف؛ فكـانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنتبعه، وسننتصر عليكم؛ لكن لما جاءهم الشيء الذي يعرفونه كما يعرفـون أبنـاءهم كفـروا بـه؛ { فلعنة الله }: اللعنة: هي الطرد، والإبعاد عن رحمة الله؛ { على الكافرين } أي حاقة عليهم؛ وهو مظهر في موضع الإضـــمار؛ إذ كــــان مقتضى الســـياق: "فلما جـــاءهم ما عرفـــوا كفـــروا به فلعنة الله عليهم"؛ والإظهـار في موضع الإضـمار له فوائـد؛ منهـا: مراعـاة الفواصل كما هنـا؛ ومنها الحكم على موضع الضـمير بما يقتضـيه هـذا الوصـف؛ ومنها الإشعار بالتعليل؛ ومنها إرادة التعميم..

.{ 90 } قوله تعـالى: { بئسـما اشـتروا به أنفسـهم }: "بئس" فعل مـاضٍ لإنشـاء الـذم؛ يقابلها "نِعْم": فهي فعل مـاضٍ لإنشـاء المـدح؛ و"بئسَ"، و"نعْم" اسـمان جامـدان لا يتصـرفان . أيَ لا يتحـولان عن صيغة الماضي؛ و "ما" اسم موصـول بمعـنى الـذي . أي بئس الـذي اشـتروا به أنفسـهم؛ أو إنها نكـرة موصـوفة، والتقـدير: "بئس شـيئاً اشتروا به أنفسهم"، و{ اشتروا } فسرها أكثرهم بمعنى بـاعوا؛ وهو خلاف المشـهور؛ لأن معـنى "اشـترى الشـيء": اختـاره؛ والمختـار للشيء لا يكون بائعاً له؛ والصحيح أنها على بابها؛ ووجهه أن هـؤلاء الذين اختاروا الكفر كانوا راغبين فيه، فكانوا مشترين له..

قوله تعـــالى: { أن يكفـــروا }: { أن } هنا مصـــدرية؛ والفعل بعـدها مـؤول بمصـدر، والتقـدير: كفـرُهم؛ وهو المخصـوص بالـذم؛ وإعرابه مبتدأ مؤخر خبره الجملة قبله؛ { بما أنزل الله }: "ما" هذه اسم موصول بمعنى الذي؛ والمراد به: القرآن؛ لأنه تعـالى قـال في الأول: { ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم}؛ و{ بغياً } مفعـول لأجله عاملـه: قوله تعـالى: { يكفـروا }؛ و "البغي" فسـره كثير من العلماء بالحسد؛ والظاهر أنه أخص من الحسد؛ لأنه بمعنى العدوان؛ لأن الباغي هو العادي، كما قيل: على الباغي تدور الـدوائر؛

وقيل: البغي: مرتعُ مبتغيه وخيم؛ فالبغي ليس مجرد الحسد فقط؛ نعَم، قد يكون ناتجاً عن الحسد؛ والذين فسَّروه بالحسد فسَّروه بسببه..
قوله تعالى: { أن ينزل الله من فضله }: "الفضل" في اللغة: زيادة العطاء؛ والمراد بـ "الفضل" هنا الوحي، أو القرآن، كما قاله تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} (يونس: 58).
قوله تعالى: { على مَن يشاء من عباده }: { مَنْ } اسم موصول؛ والمراد: النبي صلى الله عليه وسلم لأن القرآن في الحقيقة نزل على النبي صلى الله عليه وسلم للناس، كما قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} [إبراهيم: 1] ؛ و{ يشاء } أي يريد بالإرادة الكونية؛ والمراد بـ{ عباده } هنا الرسل..
قوله تعالى: { فباءوا } أي رجعوا؛ { بغضب }: الباء للمصاحبة . يعني رجعوا مصطحبين لغضب من الله سبحانه وتعالى؛ ونكَّره للتعظيم؛ ولهذا قال بعض الناس: إن المراد بـ "الغضب" : غضب الله سبحانه وتعالى، وغيره . حتى المؤمنين من عباده يغضبون من فعل هؤلاء، وتصرفهم..
قوله تعالى: { على غضب } . كقوله تعالى: {ظلمات بعضها فوق بعض} [النور: 40] . يعني غضباً فوق غضب؛ فما هو الغضب الذي باءوا به؟ وما هو الغضب الذي كان قبله؟
الجواب: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالى: { فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به }؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالى: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم} [البقرة: 87] ؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضاً هناك أنواع أخرى..
قوله تعالى: { وللكافرين عذاب مهين }: هذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير . أي ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد سبق بيانها قريباً..
وقوله تعالى: { عذاب } أي عقوبة؛ و{ مهين } أي ذو إهانة، وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم . حين يقولون: { ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون } [المؤمنون: 107] . إلا قول الله عزّ وجلّ لهم: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: 108] لكفى..
الفوائد:
.1 من فوائد الآيتين: أن القرآن من عند الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (كتاب من عند الله)
.2 ومنها: أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة؛ لقوله تعالى: { كتاب من عند الله }؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسماً يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق..

3 . ومنها: التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: { مصدق لما معهم }، ولقوله تعالى: (من عند الله)
.4 ومنها: أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم سيبعث، وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى:
{ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا } يعني يستنصرون . أي يطلبون النصر؛ أو يَعِدون به؛ فقبل نزول القرآن، وقبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينْزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به..
.5ومنها: أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم..
.6 . ومنها: أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: (فلعنة الله على الكافرين)
.7 . استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزّ وجلّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم العن فلاناً، وفلاناً"[1] . لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حياً؛ وإن كان ميتاً فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"[2] ..
.8 ومن فوائد الآيتين: أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: (بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)
.9ومنها: أن من رد الحق من هذه الأمة لأن فلاناً الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود
.10 ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حق فاتْبَعْه من أيٍّ كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان، وفلان..
.11 ومنها: أن العلم من أعظم فضل الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { أن ينَزِّل الله من فضله على من يشاء }؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم، وفضل المال فانظر إلى العلماء في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قَلّ ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يُدَرِّسون الناس وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نُسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة، أو محمودة؛ فدل هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال..
.12 ومن فوائد الآيتين: إثبات مشيئة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { على من يشاء }؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء عُلِّق بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن

---
[1] أخرجه البخاري ص333، كتاب المغازي، باب 22: (ليس لك من الأمر شيء)، حديث رقم 4069.
[2] أخرجه البخاري ص109، كتاب الجنائز، باب 97: ما ينهى من سب الأموات، حديث رقم 1393.

الله كان عليماً حكيماً} [الإنسان: 30] ؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة..

13. ومن فوائد الآيــتين: أن هــذا الفضل الــذي نزله الله لا يجعل المفضَّل به رباً يُعْبد؛ بل هو من العباد . حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: (على من يشاء من عباده).

وهـذه الفائـدة لها فـروع نوضـحها، فنقـول: إن من آتـاه الله فضـلاً من العلم والنبـوة لم يخـرج به عن أن يكـون عبـداً؛ إذاً لا يرتقي إلى منْزلة الربوبية؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون رباً يملك النفع، والضرر، ويعلم الغيب..

ويتفــرع عنها أن من آتــاه الله من فضــله من العلم، وغــيره ينبغي أن يكــون أعبد لله من غــيره؛ لأن الله تعــالى أعطــاه من فضــله؛ فكــان حقه عليه أعظم من حقه على غــيره؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزّ وجلّ استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كـان النـبي صلى الله عليه وسلم يقوم في الليل حتى تتـورم قـدماه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً[3]" ..

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم، فيتعـالى في نفســه، ويتعـاظم حـتى إنه ربما لا يقبل الحـق؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة..

14. من فوائد الآيـتين: أن العقوبـات تـتراكم بحسب الـذنوب جـزاءً وفاقاً؛ لقوله تعالى: (فباءوا بغضب على غضب).

15 . ومنها: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعـالى: { عـذاب مهين } بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جـرت سنة الله سبحانه وتعـالى في خلقـه؛ قـال الله تعـالى: {فكلًّا أخـذنا بذنبه} [العنكبوت: 40] ، وقال تعالى: {جزءًا وفاقاً} (النبأ: 26).

16. ومنها: أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغــة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريباً..

17. ومنهـا: إثبـات الغضب من الله سـبحانه وتعـالى، لقوله تعـالى: { فبـــاءوا بغضب على غضب }؛ والغضب من صـــفات الله الفعلية المتعلقة بمشـيئته؛ وهكـذا كل صـفة من صـفات الله تكـون على سبب..

---

[3] أخرجه البخاري ص88، كتاب التهجد، باب 6: قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل، حديث رقم 1130؛ وأخرجه مسلم ص1169، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب 18: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم 7124 [79] 2819.

القـرآن

)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُـوا بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَـالُوا نُـؤْمِنُ بِمَا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُـرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُـوَ الْحَـقُّ مُصَـدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُـلْ فَلِمَ تَقْتُلُـونَ أَنْبِيَـاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة:91)

التفسير:

.{ 91 } قوله تعـالى: { وإذا قيل لهم } أي لليهـود؛ وأبهم القائل ليكون شاملاً لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسـول صـلى الله عليه وسلم وإما غـيره؛ { آمنـوا بما أنـزل الله } أي صـدِّقوا به مع قبولـه، والإذعــان لــه؛ لأن الإيمــان شــرعاً: التصــديق مع القبــول، والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمناً حتى يكون قابلاً مذعناً؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدقاً برسول الله صـلى الله عليه وسلم ولم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يقبل، ولم يـذعن؛ و "مـا" اسم موصول؛ المراد به: القرآن العظيم؛ و{ أنزل الله } أي من عنده..

قوله تعالى: { قالوا }: هذا جواب: { إذا }؛ { نـؤمن بما أنـزل علينا } يعنون به التوراة؛ { ويكفـرون بما وراءه} يعنـون به القـرآن؛ و "وراء" هنا بمعـنى سـوى؛ { وهو الحق }: هـذه الجملة حـال من "ما" في قوله تعـالى: { بما وراءه } يعـني أن هـذا الـذي كفـروا به هو الحق؛ وضده الباطل . وهو الضائع سـدىً الـذي لا يسـتفاد منـه؛ أما الحق فهو الثـابت المفيد النـافع؛ وهـذا الوصف بلا شك ينطبق على القــرآن؛ { مصــدقاً }: حــال أيضــاً من { هو } أي الضــمير؛ وسبق معنى كونه مصدقاً لما معهم؛ وقوله تعـالى هنـا: { لما معهم } يعني التوراة..

ثم قال تعالى مكذباً لقولهم: { نؤمن بما أنــزل علينا }: { قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين }؛ الخطاب في { قل } إما للرســول صــلى الله عليه وسـلم؛ وإما لكل من يتــأتى خطابه؛ { فلم }: اللام حرف جـر؛ و "مـا" اسم استفهام دخل عليه حرف جر، فوجب حذف ألفها للتخفيف؛ والاستفهام للإنكار، والتوبيخ؛ يعني لو كنتم صـادقين بـأنكم تؤمنـون بما أنـزل عليكم فلم تقتلـون أنبياء الله؛ لأن قتلهم لأنبياء الله مسـتلزم لكفـرهم بهم . أي بأنبيـاء الله؛ { من قبل } أي من قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: { أنبياء } فيها قراءتان: { أنبئاء } بالهمزة؛ و{ أنبيــاء } بالياء، مثل: "النبي" ، و "النـبيء" ؛ و"النـبيء" جمعه أنبئـاء؛ و"النـبي" جمعه أنبياء..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: أن القـرآن كلام اللـه؛ لقوله تعـالى: { آمنـوا بما أنزل الله }؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن . وهو كلام؛ والكلام ليس عيناً قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره، وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عزّ وجلّ..

.2 ومنها: علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القـرآن كلامـه، وهو نازل من عنده دلَّ على علوّ المتكلم به
.3 ومنها: كذب اليهـود في قـولهم: { نـؤمن بما أنـزل علينا }؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قـال تعـالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر...} [الأعراف: 157] إلخ..
.4 ومنها: عتوّ اليهود، وعنادهم؛ لأنهم يقولـون: لا نـؤمن إلا بما أنـزل علينا..
.5 ومنهـا: أن من دُعي إلى الحق من هـذه الأمـة، وقـال: "المـذهب كذا، وكذا" . يعني ولا أرجع عنه ففيه شبه من اليهود . لأن الـواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقـول: "سـمعنا وأطعنـا"؛ ولا تعارضه بـأي قول كان، أو مذهب..
.6 ومنها: وجوب قبول الحق من كل من جاء به..
.7 ومنها: إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعلـه؛ ووجه ذلك أن الله أقـام على اليهـود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قـالوا: نـؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: { نؤمن بما أنـزل علينا } ليس بحـق؛ لأنه لو كـانوا مؤمـنين حقيقة ما قتلوا الأنبيـاء؛ ولهـذا قـال تعـالى: (قل فلم تقتلـون أنبيـاء الله من قبل إن كنتم مؤمنين).

القـرآن

)وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) (البقرة:92)

التفسير:

.{ 92 } قوله تعالى: { ولقد جاءكم موسى }: الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكـدات: القسم المقـدر، واللام الموطئة للقسم . وهي للتوكيـد؛ و "قـد" وهي هنا للتحقيـق؛ لأنها دخلت على الماضـي؛ و{ جـاءكم }: الخطاب لليهـود؛ والـدليل على أنه لليهـود قوله تعـالى: { موسى }؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبـار الجنس لا باعتبـار الشـخص؛ إذ إن موسى لم يـأت هـؤلاء الـذين كـانوا في عهد الرسـول صـلى الله عليه وسلم لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم..

قوله تعالى: { بالبينـات }: البـاء للمصـاحبة، أو للتعديـة؛ يعـني: جاءكم مصحوباً بالبينات؛ أو أن البينات هي الـتي جيء بهـا، فتكـون للتعدية؛ و "البينات" صفة لموصوف محذوف؛ والتقـدير: بالآية البينـات . أي بالعلامـات الدالة على رسـالته؛ ومنهـا: اليـد، والعصـا، والحجـر، وفلق البحـــر، والجـــراد الـــذي أرسل على آل فرعـــون، والســـنون، وأشياء كثيرة، مثل القمل، والضفادع، والدم..

قوله تعـالى: { ثم }: تفيد الـترتيب بمهلة . يعـني ثم بعد أن مضى عليكم وقت أمكنكم أن تتأملوا في هذه الآيـة، وأن تعرفوهـا: الذي حصل أنكم لم ترفعوا بها رأساً: { اتخذتم العجل }: "اتخذ" من أفعـال التصـيير، كقوله تعـالى: {واتخذ الله إبـراهيم خليلًا} [النسـاء:

[125] يعني صيَّره؛ إذاً هي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ، والخبر؛ المفعول الأول: { العجل }؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً؛ وحذف للعلم به، كما قال ابن مالك في الألفية:.

وحذف ما يعلم جائز و{ العجل } هو ولد البقرة، وليس عجلاً من حيوان؛ ولكنه عجل من حلي: صنعوا من الحلي مجسماً كالعجل، وجعلوا فيه ثقباً تدخله الريح، فيكون له صوت كخوار الثور، فأغواهم السامري، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ لأن موسى كان قد ذهب منهم لميقات ربه على أنه ثلاثون يوماً، فزاد الله تعالى عشراً، فصار أربعين يوماً؛ فقال لهم السامري: إن موسى ضلّ عن إلهه؛ ولهذا تخلف، فلم يرجع؛ فهو قد ضلّ، ولم يهتد إلى إلهه؛ فهذا إلهكم، وإله موسى، فاتَّخِذوه إلهاً..

قوله تعالى: { من بعده } أي من بعد ذهاب موسى لميقات ربه؛ لأن موسى رجع إليهم، وقال للسامري عن إلهه: {لنحرقنه ثم لننسفنَّه في اليم نسفاً} [طه: 97] ؛ وجرى هذا: فحرقه موسى صلى الله عليه وسلم، ونسفه في البحر..

قوله تعالى: { وأنتم ظالمون } أي معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً} [الكهف: 33] ؛ وسمي العدوان ظلماً؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم؛ وجملة: { وأنتم ظالمون } حال في موضع النصب من فاعل { اتخذتم } أي والحال أنكم ظالمون؛ وهذا أبلغ في القبح: أن يعمل الإنسان العمل القبيح وهو يعلم أنه ظالم..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهاً..

2 . ومنها: سفاهة اليهود، وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهاً مع أنهم هم الذين صنعوه..

3. ومنها: أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدل على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: { من بعده } يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه..

4. ومنها: أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى: (وأنتم ظالمون)

القـرآن

)وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَـمِعْنَا وَعَصَـيْنَا وَأُشْـرِبُوا فِي قُلُـوبِهِمُ الْعِجْـلَ بِكُفْـرِهِمْ قُـلْ بِئْسَـمَا يَـأْمُرُكُمْ بِـهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ((البقرة:93)

التفسير:

.{ 93 } قوله تعالى: { وإذ أخذنا ميثاقكم }: { إذ } تأتي في القرآن كثيراً؛ والمعربون يعربونها بأنها مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: اذكـر؛ وإذا كان الخطاب لأكثر من واحد يقدر: اذكروا، أي اذكـروا إذ أخـذنا ميثاقكم؛ و "الميثاق" : العهد؛ وسمي العهد ميثاقاً؛ لأنه يتوثق به..

قوله تعـالى: { ورفعنا فـوقكم الطـور } وهو الجبل المعـروف؛ رفعه الله عزّ وجلّ على رؤوسهم تهديـداً لهم؛ فجعلـوا يشـاهدونه فـوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفاً من الله عـزّ وجـلّ، وجعلـوا ينظـرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهـــود أنهم يـــرون أن أفضل ســـجدة يســـجدون لله بها أن يســـجدوا وقد أداروا وجـــوههم إلى الســـماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا..

قوله تعالى: { خـذوا } فعل أمـر؛ وهو في محل نصب مقـولاً لقـول محـذوف . أي: قلنـا: خـذوا . { ما أتينـاكم } أي ما أعطينـاكم؛ والمراد به التوراة { بقوة } أي بجدٍّ، ونشاط؛ فالجد: العزيمة الثابتة؛ والنشـــاط: القـــوة في التنفيـــذ؛ { واســـمعوا } أي ســـماع قبـــول، واستجابة؛ فأمروا بأن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يسمعوا، ويستجيبوا، وينقادوا؛ وكان الجواب: { قالوا سمعنا } أي بآذاننـا؛ { وعصـينا } أي بأفعالنا؛ فما سمعوا السمع الذي طُلب منهم؛ ولكنهم استكبروا عنه؛ وظـاهر الآية الكريمة أنهم قـالوا ذلك لفظـاً: { سـمعنا وعصـينا }؛ وقال بعضهم: قالوا: { سـمعنا } بألسـنتهم، وعصـوا بأفعـالهم؛ فيكـون التعبير بالعصيان هو عبارة عن أفعالهم، وأنهم لم يقولـوا بألسـنتهم: { وعصـينا }؛ وهـذا ضـعيف؛ لأن الـواجب حمل اللفظ على ظـاهره حـــتى يقـــوم دليل صـــحيح على أنه غـــير مـــراد، ولأنه لا يمتنع أن يقولـوا: "سـمعنا وعصـينا" بألسـنتهم وهم الـذين قـالوا لموسـى: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} [البقـرة: 55] ؛ فالـذين تجـرأوا أن يقولوا: {لن نؤمن لك حـتى نـرى الله جهـرة} يتجـرءون أن يقولـوا: { سمعنا وعصينا } بألسنتهم؛ وكأن الذين قالوا: إن المراد بالمعصـية هنا فعل المعصـية؛ وليس معنـاه أنهم قـالوا بألسـنتهم: { وعصـينا } كأنهم قالوا: إنهم التزموا بهذا والجبل فوق رؤوسهم؛ ومن كان هـذه حاله لا يمكن أن يقـول: "سـمعنا، وعصـينا" والجبل فوقـه؛ ويمكن الجواب عن هذا بـأنهم قـالوا ذلك بعد أن فُـرِّج عنهم؛ و"العصـيان": هو الخروج عن الطاعة بترك المأمور، أو فعل المحظور؛ فمن تـرك الجماعة وهي واجبة عليه فهو عاصٍ؛ ومن زنى، أو سرق، أو شرب الخمر فهو أيضاً عاصٍ لله. ورسوله..

قوله تعالى: { وأُشربوا في قلوبهم العجل }: قـال بعضـهم: إنه على تقدير مضـاف؛ والتقـدير: أشـربوا في قلـوبهم حب العجـل؛ لأن العجل نفسه لا يمكن أن يشـرب في القلب؛ ومعـنى { أشـربوا }: أنه جُعل هـذا الحب كأنه مـاء سـقي به القلب؛ إذاً امـتزج بـالقلب كما يمتزج الماء بالمدر إذا أشرب إيـاه؛ والمـدر هو الطين اليـابس؛ فهـذا القلب أشـرب فيه حب العجـل، ولكن عـبر بالعجل عن حبـه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلـوبهم؛ والـذي أشـرب هـذا في قلوبهم هو الله سبحانه وتعـالى؛ ولكن من بلاغة القـرآن أن ما يكرهه الله يعـبر عنه غالبـاً بالبنـاء لما لم يسم فاعلـه؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم يقـول: "والشر ليس إليـك"[1] ، وقـال الله تعـالى عن الجن: {وأنَّا لا نـدري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشـداً} [الجن: 10]ـ ؛ ففي الشر قـالوا: {أريـد} ، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد فنسبوه إلى الله عزّ وجلّ..

قوله تعالى: { بكفرهم }: الباء هنا للسببية؛ أي بسبب كفـرهم بالله السابق على عبادة العجل؛ لأنهم قد نـووا الإثم قبل أن يقعـوا فيه؛ فصاروا كفاراً به، ثم أشربوا في قلوبهم العجل حتى صاروا لا يمكن أن يتحولوا عنه: قـال لهم هـارون صـلى الله عليه وسـلم {يا قـوم إنما فتنتم به وإن ربكم الـرحمن فـاتبعوني وأطيعـوا أمـري} [طه: 90]ـ ؛ ولكن كان جوابهم لهارون: {لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى} [طه: 91]ـ ؛ فأصـروا؛ لأنهم أشـربوا في قلـوبهم العجل بكفرهم..

قوله تعالى: { قل }: يخاطب الله سبحانه وتعالى النـبي صـلى الله عليه وسلم أو يخـاطب كل من يصح توجيه الخطـاب إليه . أي قل أيها النبي؛ أو قل أيها المخـاطب؛ { بئسـما يـأمركم به إيمـانكم }: "بئس" فعل ماض يراد به إنشـاء الـذم؛ و "مـا" نكـرة مبنية على السكون في محل نصب تمييز، يعني: بئس شيئاً يأمركم به إيمـانكم عبادةُ العجل؛ يعني: إذا كان عبـادة العجل هو مقتضى إيمـانكم فـإن إيمانكم قد أمركم بـأمر قـبيح؛ يعـني: أين إيمـانكم وأنتم قد أشـرب في قلوبكم العجل؟! وأن هذا الإيمان الذي زعمتموه هو الـذي حبب إليكم عبادة العجل، وعبدتموه..

قوله تعـالى: { إن كنتم مؤمـنين } أي صـادقين في دعـوى الإيمـان؛ و{ إن } شـرطية، والمقصـود بها التحـدي؛ يعـني: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح!!!.

الفوائد:.

.1 من فوائد الآيـة: أن الله تعـالى أخذ الميثـاق على بـني إسـرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: { وإذ أخذنا ميثاقكم... } إلخ..

.2ومنها: أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنـوا إلا حين رفع فوقهم الطور..

.3 ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ..

.4 ومنها: أن أمر الكون كله بيد الله عزّ وجلّ، وأنه سبحانه وتعـالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: { ورفعنا فوقكم الطور..

---

[1] أخرجه مسلم ص800، كتاب صلاة المسافرين، باب 26: صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودائه بالليل، حديث رقم 1812 [201] 771.

.5 ومنهــا: وجــوب تلقي شــريعة الله بــالقوة دون الكسل والفتــور، لقوله تعالى: { خذوا ما آتيناكم بقوة }..
.6 ومنها: بيان عتوّ بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: { قالوا سمعنا وعصينا }؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتوّ؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصـيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: { سمعنا وعصينا }..
.7 ومنهـا: أن السـمع نوعـان: سـمع اسـتجابة، وسـمع إدراك؛ مثـال الأول: { خذوا ما آتيناكم بقـوة واسـمعوا }؛ ومثـال الثـاني: (سـمعنا وعصينا)
.8 ومنها: أن المؤمن حقـاً لا يـأمره إيمانه بالمعاصـي؛ لقوله تعـالى: { إن كنتم مؤمنين } يعني إن كنتم مؤمـنين حقـاً ما اتخـذتم العجل إلهاً..
.9 ومنها: أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعـالى: { وأشـربوا في قلـوبهم }؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعـالى: {وأنَّا لا نـدري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشـداً} [الجن: 10] ؛ والنـبي صـلى الله عليه وسلم يقول: "والشر ليس إليك"[1] ؛ فالشر في المفعول. لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلق الله عزّ وجــلّ؛ لكن الشر بالنســبة لإيجــاد الله له هو خــير، وليس بشــر؛ لأن الله ســبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة، وغاية محمودة . وإن كان شراً . لكن الشر في المفعـــولات. أي المخلوقـــات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشر؛ أرأيت الرجل يكـوي ابنه بالنـار . والنـار مؤلمة محرقة . لكنه يريد أن يُشفى . فهـذا المفعـول الواقع من الفاعل شر مـؤلم محرق لكن غايته محمودة . وهو شفاء الولـد؛ فيكـون خـيراً باعتبـار غايته..
.10 ومن فوائد الآية: أن الله تعالى قد يبتلي العبـد، فيملأ قلبه حبـاً لما يكرهه الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى:
(وأشربوا في قلوبهم العجل).
.11 ومنها: أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة اللــه؛ لقوله تعالى: (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين).

---

[1] سبق تخريجه ص304.

القـرآن

)قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقـرة: 94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَـداً بِمَا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (البقرة:95) وَلَتَجِـدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَـوَدُّ أَحَـدُهُمْ لَـوْ يُعَمَّرُ أَلْـفَ سَـنَةٍ وَمَا هُـوَ بِمُزَحْزِحِـهِ مِنَ الْعَـذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (البقرة:96)

التفسير:

.{ 94 . 95 } قوله تعالى: { قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون النـاس }: { كـانت } هنا ناقصـة، وخبرها يجـوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: { لكم }؛ وتكون { خالصة } حـالاً من { الــدار } . يعـني: حـال كونها خالصة من دون النـاس؛ ويجوز أن يكون الخبر: { خالصة }؛ والمعنى واحد؛ والمراد بـ{ الدار الآخرة } الجنة؛ وإنما قال تعالى ذلك؛ لأنهم قالوا: "لن تمسـنا النـار إلا أيامـاً معـدودة، وبعـدها تخلفوننا أنتم في النـار؛ ونكـون نحن في الجنة" . هذا كلام اليهـود؛ والـذي يقـول هـذا الكلام يـدعي أن الـدار الآخرة خالصة . أي خاصة . له من دون الناس، وأن المستحق للنار منهم يدخلها أياماً معدودة، ثم يخرج إلى الجنة..

قوله تعالى: { فتمنوا المـوت } أي اطلبـوا حصـوله { إن كنتم صـادقين } أي في دعـواكم أن الـدار الآخـرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذٍ تكون لكم خيراً من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصـلوا إليها؛ وهذا تحدٍّ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنـا: { ولن يتمنـوه أبـداً }؛ وفي سورة الجمعة قـال تعـالى: {ولا يتمنونه أبـداً} [الجمعـة: 7] وذلك؛ لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة..

وظـاهر الآية الكريمة على ما فسـرنا أن الله تعـالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتحداهم بأنه إن كـانت الـدار الآخـرة لهم كما يزعمون فليتمنوا الموت لِيَصِـلوا إليهـا؛ وهـذا لا شك هو ظـاهر الآية الكريمـة؛ وهو الـذي رجحه ابن جريـر، وكثـير من المفسـرين؛ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى: { فتمنوا المـوت } أي فباهلونـا، وتمنـوا المـوت لمن هو كـاذب منـا؛ فتكـون هـذه مثل قوله تعـالى في سـورة آل عمــران: {فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعـالوا نـدع أبنائنا وأبنـائكم ونسـاءنا ونسـاءكم وأنفســنا وأنفســكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكــاذبين} [آل عمـران: 61] ؛ فيكـون المعـنى: تمنـوا المـوت عن طريق المباهلـة؛ ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصـول الموت لكانوا يحتجون أيضاً علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضـاً إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحـديكم إيانا بـذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضـاً تقولـون: إن الـدار الآخرة لكم، وأن اليهـود بعد بعثة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم

في النار؛ فتمنوا المـوت أنتم أيضـاً، والجـواب عن ذلك أنا لم نـدع أن الـدار الآخـرة خالصة لنا من دون النـاس؛ بل نـؤمن بـأن الـدار الآخـرة لكل من آمن وعمل صـالحاً سـواء كـان من هـذه الأمة أم من غيرهـا؛ وهـذا المعـنى الـذي نحا إليه ابن كثـير . رحمه الله . مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه..

.{ 96 } قوله تعالى: { ولتجدنهم أحرص الناس على حياة }؛ اللام في { لتجدنهم } موطئة للقسم؛ والنون للتوكيد؛ وعليه تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسـم، واللام، والنـون؛ والضـمير الهـاء يعـود على اليهـود؛ و{ أحـرص } اسم تفضـيل؛ و "الحـرص": هو أن يكـون الإنسان طامعاً في الشيء مشفقاً من فواته؛ والحرص يستلزم بذل المجهود؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "احرص على ما ينفعـك، واسـتعن باللـه، ولا تعجـز"[1] ؛ ونكر { حيـاة } ليفيد أنهم حريصـون على أيّ حيـاة كـانت . وإن قلّت؛ حـتى لو لم يـأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها..

قوله تعـالى: { ومن الـذين أشـركوا } أي الشـرك الأكـبر؛ واختلف المفسـرون فيهـا؛ فمنهم من قـال: هو مسـتأنف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومن الـذين أشـركوا من يـود أحـدهم لو يعمر...؛ وهذا وإن كـان محتملاً لفظـاً، لكنه في المعـنى بعيد جـداً؛ ومنهم من قـال: إنه معطـوف على قوله تعـالى: { النـاس } يعـني: ولتجدنهم أحرص الناس، وأحـرص من الـذين أشـركوا؛ يعـني: اليهـود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنـون بـالبعث، وبالجنـة، وبالنـار؛ والمشـركون لا يؤمنـون بـذلك، والـذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مـات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله؛ وهذا القول هو الصواب..

قوله تعالى: { يود أحدهم لو يعمر ألف سنة }؛ "الود" خـالص المحبة؛ والضمير في { أحدهم } يعود على المشركين لا غير . على القول الأول: أي أن قوله تعـالى: { ومن الـذين أشـركوا } مسـتأنف؛ وعلى القـول الثـاني: يحتمل أن يكـون الضـمير عائـداً على اليهـود؛ ويصـير انقطع الكلام عند قوله تعـالى: { أشـركوا }؛ ويحتمل أن يكون عائداً إلى المشركين؛ ويرجحه أمران:.

أحـدهما: أن الضـمير في الأصل يعـود إلى أقـرب مـذكور؛ والمشركون هنا أقرب..

والثاني: أنه إذا كان المشـرك يـود أن يعمر ألف سـنة، وكـان اليهودي أحرص منه على الحياة، فيلزم أن يكون اليهودي يتمـنى أن يعمر أكثر من ألف سنة..

وقوله تعالى: { لو يعمر } أي لو يزاد في عمره؛ و"العمر" هو الحياة؛ و{ لو } هنا مصـدرية؛ وكلما جـاءت بعد "ود" فهي مصـدرية، كما في قوله تعـالى: {ودوا لو تـدهن فيـدهنون} [الأحـزاب: 20] ، وقوله تعالى:

---

[1] سبق تخريجه ص163.

{ يـودوا لو أنهم بـادون في الأعـراب } [يـونس: 87]ـ ؛ ومعـنى "مصدرية" أنها بمعنى "أنْ" تؤول، وما بعدها بمصدر، فيقال في الآية . { يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة }: يود أحدهم تعميره ألف سـنة؛ و "السنة" هي العام؛ والمراد بها هنا السنة الهلالية . لا الشمسـية . لأن الكلمـات إذا أطلقت تحمل على الاصطلاح الشـرعي؛ وقد قـال الله تعالى: {إن عـدة الشـهور عند الله اثنا عشر شـهراً في كتـاب الله يـوم خلق السـموات والأرض منها أربعة حـرم} [التوبـة: 36]ـ ؛ فالميقات الذي وضع الله للعباد إنما هو بالأشـهر الهلاليـة، كما قـال تعالى: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج} [البقرة: 189]ـ ، وكما قال تعالى في القمـر: {وقـدره منـازل لتعلمـوا عـدد السنين والحساب} [يونس: 5] ..

قوله تعـالى: { وما هو بمزحزحه من العـذاب } أي بدافعـه، ومانعـه؛ { أن يعمر }: { أن }، والفعل بعـدها فاعل "زحـزح"؛ والتقدير: وما هو بمزحزحه تعميره؛ لأن "مزحـزحـ" اسم فاعل يعمل عمل فعله؛ والمعنى أنه لو عُمِّر ألف سنة، أو أكثر وهو مقيم على معصـية الله تعـالى فـإن ذلك لن يزحزحه من العـذاب؛ بل إن الإنسـان إذا ازداد عمـره وهو في معصـية الله ازداد عذابـه؛ ولهـذا جاء في الحديث: "شرُّكم من طال عمره، وساء عمله"[1].

قوله تعالى: { والله بصير بما يعملون }: { بصير } هنا بمعـنى عليم؛ أي أنه جَـلَّ وعلا عليم بكل ما يعملونه في السـر، والعلانية من عمل صالح، وعمل سيء..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـات: تكـذيب اليهـود الـذين قـالوا: "لنا الآخـرة، ولكم الـدنيا، لن تمسـنا النـار إلا أيامـاً معـدودة"؛ ووجهـه: أن الله تعـالى قـال لهم: { فتمنـوا المـوت }، وقد قـال تعـالى: { ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم

2 . ومنها: أنَّ الكافر يكره الموت لما يعلم من سـوء العاقبـة؛ لقوله تعالى: (بما قدمت أيديهم).

.3 ومنهـا: إثبـات السـببية . تؤخذ من البـاء في قوله تعـالى: (بما قدمت أيديهم).

.4 منها: إثبات علم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى: { ولن يتمنوه أبداً }؛ فوقع الأمر كما أخبر به..

.5 ومنها: جواز تخصـيص العمـوم لغـرض؛ لقوله تعـالى: { والله عليم بالظالمين } فخص علمه بالظالمين تهديداً لهم..

.6 ومنها: أن اليهود أحرص الناس على حياة..

.7 ومنهـا: إبطـال قـولهم: "لن تمسـنا النـار إلا أيامـاً معـدودة"، ثم يخرجـون منهـا، ويكونـون في الجنـة؛ لأن من كـان كـذلك لا يكـره الموت..

.8 ومنها: أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعـالى: { أحرص }؛ و{ أحرص } اسم تفضيل

---

[1] أخرجه أحمد 5/40، حديث رقم 20686؛ وأخرجه الترمذي ص1886، كتاب الزهد، باب 22: أي الناس خير وأيهم شر، حديث رقم 2330؛ مدار الحديث على عليّ بن زيد، قال الحافظ في التقريب: ضعيف، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح بما قبله 2/271، حديث رقم 1899.

.9 ومنهـا: أن المشـركين من أحـرص النـاس على الحيـاة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: { ومن الذين أشركوا } مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود..
10 . ومنها: أن طول العمر لا يفيد المرء شيئاً إذا كـان في معصـية الله؛ لقوله تعالى: (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر).
.11 ومنها: غَوْرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُـدْعَى للإنسـان بالبقـاء؛ فإن الإمام أحمد كـره أن يقـول للإنسـان: "أطـال الله بقـاءك"؛ لأن طـول البقـاء قد ينفـع، وقد يضـر؛ إذاً الطريق السـليم أن تقـول: "أطال الله بقاءك على طاعة الله"، أو نحو ذلك..
.12 ومنهـا: أن الله سـبحانه وتعـالى محيط بأعمـال هـؤلاء كغيـرهم؛ لقوله تعالى: { والله بصير بما يعملون }؛ والبصر هنا بمعـنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤيـة؛ قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم "لو كشـفه لأحـرقت سـبحات وجهه ما انتهى إليه بصـره من خلقه"[1] ؛ فأثبت لله بصراً؛ لكن تفسيره بالعلم أعم..

القـرآن

)قُـلْ مَنْ كَـانَ عَـدُوّاً لِجِبْرِيـلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَـهُ عَلَى قَلْبِـكَ بِـإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ وَهُـدىً وَبُشْـرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ) (البقـرة:97)(مَنْ كَـانَ عَـدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَـالَ فَـإِنَّ اللَّهَ عَـدُوٌّ لِلْكَـافِرِينَ) (البقرة:98)

التفسير:

.{ 97 } قوله تعالى: { قل } أي يا محمد؛ ويجوز أن يكون المراد: كل من يتوجه إليه الخطاب؛ { من كان عـدواً لجبريل } أي معاديـاً لـه؛ "وجبريـل" هو الملَك الموكل بـالوحي؛ وكـان اليهـود يعادونـه، ويقولـون: "إنه ينْـزل بالعـذاب"؛ { فإنه نزله على قلبك }: فيه إعرابـان: الأول: أن الجملة جـواب الشـرط؛ ووجه ارتباطه بفعل الشرط من الناحية المعنوية تأكيد ذم هؤلاء اليهود المعادين لجبريل، كأنه لم يكن فيه ما يـوجب العـداوة إلا أنه نزله على قلبـك؛ وهـذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقول القائل:.
ولا عيب فيهم غـير أن سـيوفهم بهن فلـول من قـراع الكتـائب
فالمعنى: من كان عدواً لجبريل فلا موجب لعداوته إلا أنه نزله . أي القرآن . على قلبك؛ وهذا الوصف يقتضي ولايته . لا عداوته؛ وقيـل: إن جواب الشرط محذوف؛ والتقدير: من كـان عـدواً لجبريل فليمت غيظاً؛ لكن الإعراب الأول أصح، وأبلغ..
وقوله تعالى: { على قلبك } أي قلب النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا كقوله تعالى: {نـزل به الـروح الأمين * على قلبـك} [الشـعراء: 193، 194] ؛ وإنما كان نزوله على قلبه؛ لأن القلب محل العقل، والفهم، كما قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها} [الحج: 46] ..

---

[1] أخرجه مسلم ص709، كتاب الإيمان، باب 79: في قوله عليه السلام: "إن الله لا ينام"...، حديث رقم 442 [293] 179.

قوله تعالى: { بإذن الله } أي بإذنه الكوني القدري؛ { مصدقا لما بين يديه }: حال من الضمير . الهاء. في قوله تعالى { نزله }؛ يعني نزله حال كونه مصدقاً لما بين يديه . أي لما سبقه من الكتب، كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب التي أخبرت عن نزول القرآن؛ وسبق بيان معنى تصديق القرآن لما بين يديه.

قوله تعالى: { وهدًى } أي دلالة؛ { وبشرى } أي بشارة؛ و"البشارة" الإخبار بما يسر؛ وقد تأتي في الإخبار بما يضر، مثل قوله تعالى: { فبشره بعذاب أليم } [لقمان: 7] ؛ و{ للمؤمنين } متعلق بـ{ بشرى }؛ وإنما كان بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم الذين قبلوه، وانتفعوا به؛ "المؤمنون" أي الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ لأن الإيمان يدل على أمن، واستقرار؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يكون في الأمور الغيبية دون الأمور المحسوسة..

.{ 98 } قوله تعالى: { من كان عدواً لله } أي معادياً له مستكبراً عن عبادته..

قوله تعالى: { وملائكته } يعني وعدواً لملائكته؛ و "الملائكة" جمع ملَك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عزّ وجلّ من نور، وسخرهم لعبادته يسبحون الليل، والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل[1] ..

قوله تعالى: { ورسله } جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد . صلى الله عليهم وسلم أجمعين..

قوله تعالى: { وجبريل وميكال }: معطوف على قوله تعالى: { وملائكته } من باب عطف الخاص على العام؛ وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل؛ و{ ميكال } هو ميكائيل الموكل بالقطر، والنبات؛ وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل..

قوله تعالى: { فإن الله عدو للكافرين }: هذا جواب الشرط: من كان عدواً لله فالله عدو له؛ ومن كان عدواً للملائكة فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لرسله فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لجبريل فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لميكائيل فإن الله عدو له؛ وهنا أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما: لفظية؛ والثانية: معنوية؛ أما الفائدة اللفظية: فمناسبة رؤوس الآي؛ وأما الفائدة المعنوية فهي تتضمن ثلاثة أمور: الأول: الحكم على أن من كان عدواً لله ومن ذُكر، بأنه يكون كافراً؛ يعني: الحكم على هؤلاء بالكفر؛ الثاني: أن كل كافر سواء كان سبب كفره معاداة الله، أو لا، فالله عدو له، ثالث: بيان العلة . وهي في هذه الآية: الكفر..

الفوائد:

---

[1] راجع صحيح مسلم ص800، كتاب صلاة المسافرين، باب: 26: صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه، حديث رقم 1811 [200] 770.

.1 من فوائد الآيتين: أن من الناس من يكون عدواً لملائكة الله عـزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: { قل من كـان عـدواً لجبريل }: ووجه ذلـك: أن مثل هذا لكلام لو لم يكن له أصل لكان لغواً من القـول؛ والقـرآن منزه عن هذا اللغو..
.2 ومنها: فضيلة جبريل . عليه الصلاة والسلام . لأن الله تعـالى دافع عنه..
.3 ومنها: ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به ولياً لجبريل؛ لقوله تعالى: { فإنه نزله على قلبك } يعـني: ومن كـان هـذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون ولياً..
.4 . ومنها: إثبـات علـوّ الله عـزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { فإنه نزله }؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنّزول لا يكون إلا من أعلى..
.5 ومنهـا: أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قد وعى القـرآن وعيـاً كاملاً لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعـالى: { نزله على قلبك }؛ لأن ما نفذ إلى القلب حـــلّ في القلب؛ وإذا حـــلّ في القلب فهو في حرز مكين..
.6 ومنها: أن هذا القـرآن إنما نـزل بـإذن اللـه؛ لقوله تعـالى: { نزله على قلبك بإذن الله }؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلمـاء أن إذن الله تعالى نوعان:.
كـوني: وهو المتعلق بـالخلق، والتكـوين، ولا بد من وقـوع ما أذِن الله تعالى فيه بهـذا المعـنى؛ مثاله قوله تعـالى: {من ذا الـذي يشـفع عنـده إلا بإذنـه} [البقـرة: 255]ـ ، وقوله تعـالى: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن اللـه} [البقـرة: 102] وقوله تعـالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} [التغابن: 11] ..
والثـاني شـرعي: وهو ما يتعلق بالشـرع، والعبـادة؛ مثاله قوله تعـالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفـترون} [يـونس: 59]ـ ؛ وقوله تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: 21] ؛ والفرق بينهما أن المأذون به شرعاً قد يقع، وقد لا يقـع؛ وأما المـأذون به قـدراً فواقع لا محالـة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعاً محبـوب إلى الله عـزّ وجـلّ؛ والمـأذون به قدراً قد يكون محبوباً، وقد يكون غير محبوب..
7 . ومن فوائد الآيتين: أن القرآن بشرى للمؤمـنين؛ وعلامة ذلك أنك تنتفع به؛ فـإذا وجـدت نفسك منتفعـاً به حريصـاً عليه تاليـاً له حق تلاوته فهـذا دليل على الإيمـان، فتناله البشـرى؛ وكلما رأى الإنسـان من نفسه كراهة القـــرآن، أو كراهة العمل بـــه، أو التثاقل في تطبيقه فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص..
.8 . ومنهـا: أن من عـادى الله فهو كـافر؛ لقوله تعـالى: { من كـان عدواً لله }، ثم قال تعالى: (فإن الله عدوّ للكافرين).
.9 ومنها: أن من كان عدواً للملائكة، أو للرسل فإنه عـدو للـه؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعـالى: {جاعل الملائكة رسـلاً} [فـاطر: 1] ؛ والرسل البشريون أيضاً رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غـيره، أو عـادى الرسل من محمد أو غـيره فقد عـادى الله عزّ وجلّ..

فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معادياً لله ؟
فـالجواب: هـذا محل توقف في دلالة الآية عليـه؛ اللهم إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكـون عـدواً لهم، لأن من عـاداهم إنما فعل ذلك بسـبب أنهم تمسـكوا بما جـاءت به الرسـل؛ فكـان حقيقة معـاداتهم أنهم عـادوا رسل اللـه، كما قـال أهل العلم في قوله تعـالى: {إن شـانئك هو الأبـتر} [الكـوثر: 3] أي مبغضـك، ومبغض ما جئت به من السـنة هو الأبـتر؛ وفي الحـديث الصـحيح أن الله تعـالى في الحـديث القدسي قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"[1] ..
10 . ومن فوائد الآيـتين: أن كل كـافر فاللّه عـدوّ لـه؛ لقوله تعـالى: (فإن الله عدوّ للكافرين)
11 . ومنها: إثبات صـفة العـداوة من الله . أي أن الله يعـادي؛ وهي صـفة فعلية كالرضـا، والغضـب، والسـخط، والكراهـة؛ و "المعـاداة" ضـدها المــوالاة الثابتة للمؤمــنين، كما قـال الله تعـالى: (الله وليّ الذين آمنوا) (البقرة: 257)

القـرآن

)وَلَقَــدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْــكَ آيَــاتٍ بَيِّنَــاتٍ وَمَا يَكْفُــرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) (البقرة:99)

التفسير:

.{ 99 } قوله تعالى: { ولقد }: سبق الكلام عليها؛ { أنزلنا إليك }: الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ وذلـك؛ لأن القـرآن كلام الله؛ والله تعالى فوق عباده..
قوله تعالى: { آيات } جمع آية؛ والآية في اللغة: العلامـة، لكنها في الحقيقة أدق من مجرد العلامة؛ لأنها تتضـمن العلامـة، والـدليل؛ فكل آية علامة . ولا عكس؛ لكن العلمـــــــــاء . رحمهم الله . قد يفسـرون الشــيء بما يقاربـه، أو يلازمه . وإن كـان بينهما فــرق، كتفسيرهم "الريب" بالشك في قوله تعالى: {لا ريب فيه} [البقـرة:] مع أن "الــريب" أخص من مطلق الشــك؛ لأنه شك مع قلــق؛ وقد أشــار إلى ذلك شــيخ الإســلام ابن تيمية في رســالة "أصــول التفسير"..
قوله تعالى: { بينـات } جمع بينـة؛ وهن الواضـحات في ذاتهـا، ودلالتها..
وقوله تعـالى: { وما يكفر بها } أي بهـذه الآية البينـات؛ { إلا الفاسقون } أي الخارجون عن شريعة الله؛ فالمراد بـ "الفسـق" هنا الفسق الأكبر، كقوله تعالى في سورة السجدة: {وأما الذين فسـقوا فمأواهم النار} [السجدة: 20]

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن القرآن وحي من الله عزّ وجلّ..
.2 ومنها: عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية..

---

[1] أخرجه البخاري ص545، كتاب الرقاق، باب 38: التواضع، حديث رقم 6502.

3 . ومنها: ثبوت علوّ الله عزّ وجـلّ؛ لقوله تعـالى: { ولقد أنزلنا إليك آيات بينـات }؛ والنّـزول لا يكـون إلا من أعلى؛ وعلـوّ الله سـبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل، ولا يزال متصـفاً بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته..
.4 ومنها: وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: {منه آيات محكمـات هن أم الكتـاب وأخر متشـابهات} [آل عمـران: 7] ؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهاً على بعض النـاس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكـون الجميع محكمـاً، كما قـال تعـالى: {فأما الـذين في قلـوبهم زيغ فيتبعـون ما تشـابه منه ابتغـاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسـخون في العلم...} [آل عمران: 7] الآية..
فالحاصل: أن القرآن . ولله الحمد . آيـات بينـات؛ ولكنه يحتـاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكـره القـرآن، ثم يأتي بما يُشتَبه فيه ليضـرب القـرآن بعضه ببعض فهـذا لا يتـبين له أبـداً؛ إنما يتـبين الهـدى من القـرآن لمن أراد الهـدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: { وما يكفر بها إلا الفاسقون }..
.5 ومن فوائد الآية: أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق..
.6 ومنها: أن من كفر به فهو فاسق..
.7 ومنها: إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين:.
فسق أكبر مخرج عن الملة، كما في قوله تعالى: {فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كـانوا يعملـون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار} [السـجدة: 19، 20] الآيـة؛ ووجه الدلالة أنه تعالى جعل الفسق هنا مقابلاً للإيمان..
والثاني: فسق أصغر لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي العدالة، كقوله تعـــالى: {ولكن الله حبب إليكم الإيمـــان وزينه في قلـــوبكم وكـــره إليكم الكفر والفســـوق والعصـــيان} [الحجـــرات: 7] : فعطف {الفسوق} على {الكفر} ؛ والعطف يقتضي المغايرة..
مسألة :-
تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر} [فصلت: 37] ، وقال تعالى: {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} [الروم: 22] ؛ وأما الشرعية فهي ما أنزله الله تعالى على رسله من الشرائع، كقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته} [الجمعة: 2] ، وقوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم..} [سبأ: 43] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها..
القـرآن

)أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة:100)
)وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (البقرة:101)

التفسير:.

.{ 100 } قوله تعالى: { أوَ كلما }: الهمزة هنا للاستفهام؛ والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيراً؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما { كلما } فإنها أداة شرط تفيد التكرار . أي كثرة وقوع شرطها، وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: "كلما جاء زيد فأكرمه" اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه قلّ، أو كثر..

قوله تعالى: { عاهدوا عهداً }؛ "العهد" : الميثاق الذي يكون بين الطوائف سواء كان ذلك بين أمة مسلمة وأمة كافرة؛ أو بين أمتين مسلمتين؛ أو بين أمتين كافرتين؛ والضمير في { عاهدوا } يعود على اليهود؛ { نبذه فريق منهم }: "النبذ" : الطرح، والترك . أي ترك هذا العهد جماعة منهم . أي من اليهود . فطرحوه، ولم يفوا به؛ وهذا هو حال بني إسرائيل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ فالله تعالى أخذ عليهم العهد، والميثاق؛ ومع ذلك نبذوا العهد، والميثاق؛ والنبي صلى الله عليه وسلم عاهدهم، ونبذوا عهده..

قوله تعالى: { بل أكثرهم لا يؤمنون }: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتاً لما قبله، وزيادة وصف . وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم؛ لأن المؤمن حقيقة لا بد أن يفي بالعهد، كما قال الله تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً} [الإسراء: 34] ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن آية المنافق ثلاث: "إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر..."[1] ؛ ولو أنهم آمنوا ما نقضوا العهد الذي بينهم وبين الله، أو الذي بينهم وبين عباد الله..

.{101 } قوله تعالى: { ولما جاءهم رسول من عند الله }؛ { لما } هنا شرطية؛ وهي على أربعة أنحاء في اللغة العربية: شرطية؛ ونافية جازمة؛ وبمعنى "إلا"؛ وبمعنى "حين"؛ و{ من عند الله } صفة لـ{ رسول } أي رسول مرسل من عند الله . وهو محمد صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى: { مصدق لما معهم } أي للذي معهم من التوراة إن كانوا من اليهود، ومن الإنجيل إن كانوا من النصارى؛ والحديث في هذه الآية كلها عن اليهود؛ وتقدم معنى { مصدق لما معهم }؛ فكان على اليهود، والنصارى أن يفرحوا بهذا القرآن؛ لأنه مؤيد لما معهم؛ ولكن الأمر كان بالعكس!!!.

---

[1] سبق تخريجه ص45.

قوله تعالى: { نبذ } أي طرح بشدة { فريق } أي جماعة { من الذين أوتوا } أي أعطوا؛ و{ الكتاب }: مفعول ثان لـ{ أوتوا }؛ ومفعولها الأول: الواو، وهي نائب الفاعل؛ و "أل" هنا للعهد الذهني؛ وهو بالنسبة لليهود التوراة؛ وبالنسبة للنصارى الإنجيل؛ و{ كتاب الله } أي القرآن؛ وهو مفعول { نبذ }؛ وأضيف إلى الله لأنه المتكلم به؛ فالقرآن الذي نقرؤه الآن هو كلام ربنا . تبارك وتعالى . تكلم به حقيقة بلفظه، ومعناه، وسمعه منه جبريل، ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزل به على قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى وعاه، وأداه إلى الصحابة؛ والصحابة أدوه إلى التابعين، وهكذا حتى بقي إلى يومنا هذا . ولله الحمد؛ وسمي القرآن كتاباً، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ وفي الصحف التي بأيدي البشر..

قوله تعالى: { وراء ظهورهم } أي رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولي، والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خُلِّف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه..

قوله تعالى: { كأنهم لا يعلمون }: "كأن" لها معنى، ولها عمل؛ عملها: عمل "إنّ" . تنصب الاسم، وترفع الخبر؛ وأما معناها: فهو هنا التشبيه . يعني كأنهم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيتين: أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم..

.2 ومنها: أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذاً من الأمة كلها. ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك أن الله وبخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه..

.3 ومنها: أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود..

.4 ومنها: أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:. أحدهما: النفاق؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؛ وإذا اؤتمن خان"[1] ، وفي الحديث الآخر: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها..."[2] ، وذكر منها: "إذا عاهد غدر" ..

والمحظور الثاني: مشابهة اليهود..

---

[1] سبق تخريجه ص45.

[2] أخرجه البخاري ص193، كتاب المظالم، باب 17: إذا خاصم فجر، حديث رقم 2459؛ وأخرجه مسلم ص690، كتاب الإيمان، باب 25: خصال المنافق، حديث رقم 210 [106] 58.

.5 ومنها: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حق؛ لقوله تعالى: (من عند الله).
.6 ومنها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى: (مصدق لما معهم).
.7 ومنها: أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تقرر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: (مصدق لما معهم).
.8 ومنها: أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقاً من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم..
.9 . ومنها: أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: { فريق من الذين أوتوا الكتاب }؛ لإظهار شدة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل..
.10 ومنها: أن القرآن كلام الله، لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى: (كتاب الله).
.11 ومنها: توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: { كأنهم لا يعلمون }؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشد من كفر من لم يعلم..
.12 ومنها: أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: { وراء ظهورهم }؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين، والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه استبعاد القبول منهم..
13 . ومنها: شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به، حيث نبذوه وراء ظهورهم..

القرآن

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:102)

التفسير:

.{ 102 } قوله تعالى: { واتبعوا } أي اليهود؛ و{ تتلو } هنا ليست بمعنى "تقرأ"؛ لكنه من: تلاه يتلوه . بمعنى: "تبعه" .؛ أي ما تَتْبعه الشياطين، وتأخذ به؛ { على ملك سليمان } أي في ملكه؛ أي في

عهده؛ وإنما قـال تعـالى: { على ملك سـليمان }؛ لأن الله جمع له بين النبوة، والملك، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعـده: فسـخر له الرياح، والجن، والشياطين؛ فإن سليمان عليه السلام كان ملكاً نبيـاً رسـولاً؛ وكل من ذكر في القـرآن من الأنبياء فهم أنبيـاء رسـل؛ لقوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك} [غـافر: 78] ؛ وعند اليهـود . قـاتلهم الله . أن سـليمان ملك فقـط؛ وهو لا ريب ملك، ونـبي، ورسـول؛ وسـليمان كـان بعد موسى عليه السلام؛ لقوله تعـالى: {ألم تر إلى الملأ من بـني إسـرائيل من بعد موسـى...} [البقـرة: 246] إلى قوله تعـالى: {وقتل داود جـالوت} [البقرة: 251] ؛ وسليمان هو ابن داود . عليهما السلام ...

قوله تعالى: { وما كفر سليمان } أي بتعلم السحر؛ أو تعليمِه..

قوله تعالى: { ولكنَّ الشياطينَ كفروا } بتشديد نون { لكنَّ }، ونصب { الشـياطينَ }؛ وفي قـراءة سـبعية بتخفيف نـون { لكن } وإسكانها ثم كسـرها تخلصاً من التقـاء السـاكنين؛ و{ الشـياطينُ } برفع النون؛ فعلى القراءة الأولى تكون الواو حرف عطـف، و{ لكنّ } حـرف اسـتدراك يعمل عمل "إنّ" ينصب الاسـم، ويرفع الخـبر، و{ الشـياطينَ } اسـمها، وجملـة: { كفـروا } خبرهـا؛ وعلى قـراءة التخفيف تكون الواو للعطف، و{ لكن } حرف اسـتدراك مبـني على السـكون حُـرِّك بالكسر لالتقـاء السـاكنين، و{ الشـياطين } مبتـدأ، وجملة: { كفروا } خبر المبتدأ..

وقوله تعـالى: { ولكن الشـياطين } جمع شـيطان؛ وجـاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم بعضاً؛ و{ كفـروا }: فسَّـر هـذا بقوله تعـالى: {يعلمـون النـاس السـحر} ؛ و"السحر" في اللغة هو كل شـيء خفيَ سـببه، ولطـف؛ ومنه قـول الرسول صلى الله عليه وسـلم: "إن من البيـان لسـحراً"[1] ؛ لأن البيان . وهو الفصاحة . يجذب النفوس، والأسـماع حـتى إن الإنسـان يجد من نفسه ما يشده إلى سماع هذا البيان، والتـأثر بـه، فيسـحر الناس؛ لكن ليس هو السحر الـذي ورد ذمـه؛ وإنما المـراد بالسـحر المذموم: عُقَد، ورُقى ينفث فيها الساحر، فيؤثر في بـدن المسـحور، وعقلـه؛ وهو أنـواع: منه ما يقتـل؛ ومنه ما يمـرض؛ ومنه ما يزيل العقل، ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسـمع ما لم يكن، أو يشـاهد السـاكن متحركـاً، أو المتحـرك سـاكناً؛ ومنه ما يجلب المـودة؛ ومنه ما يـوجب البغضـاء؛ المهم أن السـحر أنـواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع..

قوله تعالى: {يعلمـون النـاس السـحر} جملة حالية من الفاعل في { كفروا } يعني حال كونهم يعلمون النـاس السـحر؛ ويجـوز أن تكون استئنافية لبيان نوع كفرهم..

قوله تعالى: { وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت } يعـني واتبعـوا أيضـاً ما أنـزل على الملكين؛ والجملة معطوفة على قولـه: { واتبعـوا ما تتلو }؛ و{ الملَكين } بفتح اللام تثنية ملَـك؛ والفـرق بين "ملَـك" و"ملِـك" أن "الملَـك" بفتح اللام واحد الملائكـة؛

---

[1] أخرجه البخاري ص445، كتاب النكاح، باب 48: الخطبة، حديث رقم 5146؛ وأخرجه مسلم ص813، كتاب الجمعة، باب 13: تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم 2009 [47] 869.

و"الملِـك" بكسر اللام: الحـاكم الـذي له سـلطة؛ و "بابـل" اسم لبلد في العـراق؛ و{ هـاروت ومـاروت } عطف بيـان على { الملكين } لبيـان اسـمهما؛ وهما اسـمان أعجميـان؛ والمـنزَّل عليهما شـيء من أنواع السحر..

قوله تعـالى: { وما يعلِّمـان } أي الملكـان هـاروت، ومـاروت { من أحد } أي أحداً؛ وزيدت { مِن } للتوكيد..

قوله تعالى: { حتى يقولا إنما نحن فتنة } أي اختبار للنـاس؛ ليتـبين من يريد السحر ممن لا يريده..

قوله تعالى: { فلا تكفر } أي بتعلم السـحر { فيتعلمـون } أي الناس { ما يفرقون به } أي سحراً يفرقون به { بين المرء وزوجه }؛ ويسـمى هـذا النـوع من السـحر "الصـرف"؛ ويقابله سـحر "العطـف"؛ وهو من أشد أنـواع السـحر؛ لأنه يصل بصـاحبه إلى الهيمان، والخبل..

قوله تعـالى: { وما هم بضـارين به من أحد } أي ما هـؤلاء المتعلمـون للسـحر بضـارين به أحـداً { إلا بـإذن الله } أي إلا بإذنه القـدري . وهو بمعـنى المشـيئة .؛ و{ مِن } في قوله تعـالى: { من أحد } زائدة للتوكيد.

قوله تعالى: { ويتعلمـون } أي النـاس من الملكين { ما يضـرهم ولا ينفعهم } أي ما مضرته محضة لا نفع فيها..

قوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشـتراه ما له في الآخـرة من خلاق }: الجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام الواقعة في جوابه، و "قـد" ؛ و{ لمن اشـتراه }: اللام لام الابتـداء؛ وهي معلِّقة للفعل { علمـوا } عن العمل؛ و "مَن" مبتدأ؛ وخـبره جملـة: { ما له في الآخـرة من خلاق } أي نصيب؛ والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولَي { علمـوا } أي علم هـؤلاء المتعلمـون للسـحر أن من ابتغـاه بتعلمه ليس له نصـيب في الآخـرة؛ وعلمـوا ذلك من قـول الملكين: (إنما نحن فتنة فلا تكفر)

قوله تعـالى: { ولـبئس ما شـروا به أنفسـهم }: اللام موطئة للقسم؛ والتقـدير: والله لـبئس ما شـروا به أنفسـهم؛ و "بئس"ـ فعل ماض لإنشاء الذم . وهو جامد .؛ ومثلـه: "نعم"، و"عسـى"، و"ليس"؛ ويسـمونها الأفعـال الجامـدة؛ لأنها لا تتغـير عن صـيغتها: فلا تكـون مضـارعاً، ولا أمـراً؛ و{ ما } اسم موصـول؛ وهي فاعل "بئس"؛ والمخصـوص بالـذم محـذوف؛ و{ شـروا } بمعـنى بـاعوا في اللغة العربيـة؛ لأن الشـراء بيـع؛ و"الاشـتراء" هو أخذ السـلعة؛ فالمشـتري طالب؛ والشاري جالب، قال الله سبحانه وتعـالى: {ومن النـاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله} [البقرة: 207] يعـني يبيعهـا؛ فقوله تعالى: { لبئس ما شـروا به أنفسـهم } أي بـاعوا به أنفسـهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السـحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقـاً؛ والآخـرة ليس لهم فيها ربح أيضـاً؛ فخسـروا الدنيا، والآخرة..

قوله تعــالى: { لو كــانوا يعلمــون }: جملة شــرطية؛ وجوابها محذوف تقـديره: ما تعلّمـوا السـحر؛ يعـني: لو كـانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلمـوا السـحر؛ وهنا ينبغي للقـارئ أن يبتـدئ بــ{ لو }، وأن يقف على { ما شــروا به أنفســهم }؛ لأن الوصل يـوهم أن محل الـذم في حـال علمهم؛ أما في حـال عـدم علمهم فليس مــذموماً! وهــذا خلاف المعــنى المــراد؛ إذ المعــنى المــراد: توبيخهم، حيث عملوا عمل الجاهل؛ فقوله تعالى: { لو كانوا يعلمـون } نداء عليهم بالجهل..

الفوائد:

.1 من فوائد الآيـة: أن اليهـود أخـذوا السـحر عن الشـياطين؛ لقوله تعالى: { واتبعوا ما تتلو الشياطين }؛ ويـدل على هـذا أن أحـدهم . وهو لبيد بن الأعصم . سحر النبي صلى الله عليه وسلم.[1]

2 . ومنها: أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعـالى: { ما تتلو الشياطين]..

.3 ومنها: أن الشـياطين كـانوا يـأتون السـحر على عهد سـليمان مع قـوة سـلطانه عليهم؛ لقوله تعـالى: { ما تتلو الشـياطين على ملك سليمان }..

.4 ومنها: أن سليمان لا يقر ذلـك؛ لقوله تعـالى: { وما كفر سـليمان }؛ إذ لو أقـــرهم على ذلك . وحاشـــاه . لكـــان مُقـــراً لهم على كفرهم..

.5 ومنها: أن تعلم السحر، وتعليمه كفـر؛ وظـاهر الآية أنه كفر أكـبر مخـرج عن الملـة؛ لقوله تعـالى: { ولكن الشـياطين كفـروا يعلمـون الناس السـحر }، وقوله تعـالى: { وما يعلمـان من أحد حـتى يقـولا إنما نحن فتنة فلا تكفر }؛ وهـذا فيما إذا كـان السـحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدويـة، والأعشـاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء..

واختلف العلماء . رحمهم الله . هل تقبل توبتـه، أو لا؟ والـراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجـــــل؛ أما قتله فـــــيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم..

.6 ومن فوائد الآيـة: أن الله تعـالى قد ييسر أسـباب المعصـية فتنـةً للناس . أي ابتلاءً .، وامتحاناً؛ لقوله تعالى: { وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة }؛ فإياك إيـاك إذا تيسـرت لك أسـباب المعصـية أن تفعلهـا؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت . أعني صـيد البحر .؛ فلم يصبروا حـتى تحيلـوا على صـيدها يـوم السـبت؛ فقـال لهم الله تعالى: {كونوا قـردة خاسـئين} [البقـرة: 65] ؛ واذكر قصة أصــحاب محمد صــلى الله عليه وســلم حين ابتلاهم الله عز وجل وهم محرِمون بالصـيد تناله أيـديهم، ورمـاحهم؛ فلم يُقـدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله . تبارك وتعالى . في تيسـير أسـباب المعصية؛ ليبلوَ الصابر من غيره..

.7 ومن فوائد الآيـة: أنه يجب على الإنسـان أن ينصح للنـاس . وإن أوجب ذلك إعراضــهم عنه .؛ لقوله تعــالى: { وما يعلمــان من أحد حـتى يقـولا إنما فتنة فلا تكفر }؛ فـإذا كـانت عنـدك سـلعة رديئـة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره..

.8 ومنهـا: أنّ من عِظم السـحر أن يكـون أثـره التفريق بين المـرء، وزوجـه؛ لقوله تعـالى: { فيتعلمـون منهما ما يفرقـون به بين المـرء وزوجه }؛ لأنه من أعظم الأمـور المحبوبة إلى الشـياطين، كما ثبت في الحــديث الصــحيح أن إبليس يضع عرشه على المــاء ثم يبعث سـراياه فأدنـاهم منه منزلة أعظمهم فتنــة، يجيء أحــدهم فيقــول

[1] راجع البخاري ص492، كتاب الطب، باب 50: السحر، حديث رقم 5766؛ وصحيح مسلم ص1066 – 1067، كتاب السلام، باب 17: السحر، حديث رقم 5703 [43] 2189.

فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: "نِعْم أنت"[2] ؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء، وزوجه؛ حتى إنه . والعياذ بالله . يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش . ولا لحظة . إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر . نسأل الله العافية ...

.9 ومن فوائد الآية: أن الأسباب . وإن عظمت . لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: (وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله)

.10 ومنها: أن قدرة الله عز وجل فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب . والله لم يأذن . فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله..

.11 ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائماً؛ لقوله تعالى: { إلا بإذن الله }؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذاً تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار..

12 . ومنها: أنّ تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: { ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم }؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه..

.13 ومنها: أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق } يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيباً من الآخرة..

.14ومنها: أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق }..

.15 ومنها: إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيباً في دنياه لم يجعل الله له نصيباً من الآخرة..

.16 ومنها: ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: (ولبئس ما شروا به أنفسهم)

.17ومنها: أن صاحب العلم الذي يَنتفِع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: { لو كانوا يعلمون } يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أنّ من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق..

القرآن

)وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:103)

التفسير:

.{ 103 } قوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا } أي بقلوبهم { واتقوا } أي بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛ والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛

---

[2] أخرجه مسلم ص1168، كتاب صفات المنافقين، باب 16: تحريش الشيطان...، حديث رقم 7106 [67] 2813.

وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملاً للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم "التقوى هاهنا"[(1)] وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: "التصديق مع القبول، والإذعان"؛ وإلا فليس بإيمان؛ و "التقوى" أصلها: وَقْـوَى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: "التقوى" أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف "التقوى" .

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى واعمل كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى وقوله تعالى: { ولو أنهم }: "أن" هنا مفتوحة الهمزة؛ و"أن" من الحروف المصدرية التي تؤول، وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف؛ والتقدير: لو ثبت أنهم آمنوا . أي إيمانهم ..

قوله تعالى: { لمثوبة }؛ "المثوبة" ، و "الثواب" بمعنى الجزاء؛ وسمي بذلك؛ لأنه من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عمَلُ الإنسان رجع إليه، وعاد إليه منفعته، وثمرته..

قوله تعالى: { من عند الله } أضافها الله إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:.

الأول: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة..

الثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد..

قوله تعالى: { خير }: الأَولى أن نقول: هي خيرية مطلقة . خير من كل شيء .؛ واللام في قوله: {لمثوبة } واقعة في جواب { لو }؛ ويوقف عند قوله: { لمثوبة من عند الله خير }؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنى، حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلى هذا فجواب { لو كانوا يعلمون } محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان، والتقوى؛ لقوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا واتقوا } يعني فيما مضى، وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق} البروج: 10] : يُحَرِّقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: {ثم لم يتوبوا ..

.2 ومنها: أن الإيمان يُنال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير..

[(1)] أخرجه مسلم ص1127، كتاب البر والصلة، باب 10: تحريم ظلم المسلم وخذله...، حديث رقم 6541 [32] 2564.

3. ومنهـا: أن ثـواب الله خـير لمن آمن واتقى من الـدنيا؛ لقوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا واتقـوا لمثوبة من عند الله خـير } أي خـير من كل شـيء؛ قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها[1]" ..

4. ويؤخذ منها: ومن قوله تعالى عن الناصحين لمن تمنـوا أن يكـون لهم مثل ما لقـارون: {ويلكم ثـواب الله خـير لمن آمن وعمل صالحاً} [القصص: 80] ، أنّ التقوى هي العمل الصالح..

5. ومنها: أن فعل هـؤلاء اليهـود، واختيـارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعلُ الجاهل؛ لقوله تعالى: (لو كانوا يعلمون).

القـرآن

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقُولُـوا رَاعِنَا وَقُولُـوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة:104)

التفسير:

.{ 104 } قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا }: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النـداء يـوجب انتبـاه المنـادَى؛ ثم النـداء بوصف الإيمـان دليل على أن تنفيذ هـذا الحكم من مقتضـيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمـان؛ قـال ابن مسـعود رضي الله عنـه: "إذا سـمعت الله يقـول: { يا أيها الـذين آمنـوا } فأرعها سـمعك . يعـني اسـتمع لها .؛ فإنه خـير يـأمر بـه، أو شر ينهى عنه"[2]. وهذه الآية من النهي: { لا تقولوا راعنا} يعني لا تقولـوا عند مخاطبة النـبي صـلى الله عليه وسـلم راعنـا؛ و{ راعنا } من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء، والمحافظة عليه؛ وكـان الصـحابة إذا أرادوا أن يتكلمـوا مع الرسـول صـلى الله عليه وسـلم قـالوا: "يا رسول الله، راعنا" ؛ وكـان اليهـود يقولـون: "يا محمـد، راعنـا"؛ لكن اليهـود يريـدون بها معـنى سـيئاً؛ يريـدون "راعنـا" اسم فاعل من الرعونة؛ يعـني أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم راعن؛ ومعـنى "الرعونة" الحمـق، والهـوج؛ لكن لما كـان اللفظ واحـداً وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأدبـاً، وابتعـاداً عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان . مثل المنـافقين . فربما يقـول: "راعنـا" وهو يريد ما أرادت اليهـود؛ فلهـذا نُهي المسلمون عن ذلك..

قوله تعالى: { وقولوا انظرنا } يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: { راعنا }؛ ولكن قولـوا: { انظرنا }: فعل طلب؛

---

[1] سبق تخريجه ص258.

[2] أخرجه ابن أبي حاتم في كتاب التفسير 1/196، تحقيق أسعد أحمد الطيب، وسنده: قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي نعيم بن حماد ثنا عبد الله بن المبارك ثنا مسعر ثنا معن وأبو عون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود...، ونعيم بن حماد قال الحافظ فيه: صدوق يخطئ كثيراً، وقد تتبع ابن عدي ما أخطأه فيه وقال: أرجو أن يكون باقي حديثه مستقيماً، الكامل لابن عدي 8/251 – 256، ولم يذكر ابن عدي هذا الأثر ومعن هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ت. التهذيب، وأبو عون، كما في التهذيب هو أبو عون الثقفي محمد بن عبيد الله الأعور؛ وكلاهما ثقة، لكن معن بن عبد الرحمن لم يدرك عبد اله بن مسعود، لأن الحافظ عده من الطبقة السابعة، وأما أبو عون فإنه مات سنة 110 هجرياً، وعبد الله بن مسعود مات سنة 33هـ، ت. التهذيب [9/285، 6/25]، فيبعد أن يكون قد أدرك ابن مسعود، فيكون حديث معن وأبي عون عن ابن مسعود مرسلاً.

و"النظر" هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعـالى: {هل ينظـرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [البقرة: 210]، أي ما ينتظر هؤلاء..

قوله تعالى: { واسمعوا } فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي اسمعوا سماع استجابة، وقبول، كما قال تعالى: {ولا تكونـوا كالـذين قـالوا سـمعنا وهم لا يسـمعون} [الأنفـال: 21] يعـني اسـمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه..

قوله تعالى: { وللكافرين عذاب أليم }؛ المـراد بــ "الكـافرين" هنا اليهود؛ و{ عذاب } بمعنى عقوبة؛ و{ أليم } بمعنى مؤلم..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني أن يُتجنب الألفاظ التي توهم سبًّا، وشتماً؛ لقوله تعالى: { لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا..

.2 ومنها: أن الإيمان مقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة..

.3 ومنها: أن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان..

.4 ومنها: أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة..

.5 ومنها: وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: (واسمعوا)

.6 ومنها: التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛ لقوله تعالى: (وللكافرين عذاب أليم)

القرآن

)مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (البقرة: (105

التفسير:

.{ 105 } قوله تعالى: { ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين }؛ { ما } نافية؛ و{ يود } بمعنى يحب؛ و "الود" خالص المحبة؛ و{ من } هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ وعليه يصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار؛ { ولا المشركين } معطوفة على قوله تعالى: { من أهل الكتاب } يعني: ما يود الذين كفروا من هؤلاء، ولا هؤلاء؛ ولهذا قال تعالى: { ولا المشركين }؛ لأنها لو كانت معطوفة على { الذين كفروا } لكانت بالرفع؛ فعلى هذا تكون { من } لبيان الجنس؛ أي الذين كفروا من هذا الصنف . الذين هم أهل الكتاب؛ وكذلك من المشركين..

قوله تعالى: { أن ينزل عليكم من خير من ربكم }: { أن ينزل } مفعول { يود } يعني: ما يودون تنزيل خير؛ وقوله تعالى: { من خير }: { مِن } زائدة إعراباً؛ و "الخير" هنا يشمل خير الدنيا، والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيّ خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصاً بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم؛ بل هو عام؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: { ما يود }؛ وهو دال على الاستمرار..

وقوله تعالى: { ينزِّل } بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن "التنزيل" : هو إنزاله شيئاً فشيئاً؛ وأما "الإنزال" : فهو إنزاله جملة واحدة؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون

هـذا، ولا هـذا: لا أن يـنزل علينا الخـير جملة واحـدة؛ ولا أن يـنزل شيئاً فشيئاً..
قوله تعـــالى: { والله يختص برحمته من يشـــاء }؛ "يختص" تســتعمل لازمــة، ومتعديــة؛ فــإن كــانت لازمة فــإن { مَن } فاعل { يختص }؛ والمعنى على هذا: ينفرد برحمته من يشـاء؛ كما تقـول: اختصصت بهــذا الشــيء: أي انفــردت بــه؛ وإن كــانت متعدية فهي بمعنى: يخص برحمته من يشاء؛ وعلى هـذا فتكـون { مَن } مفعـولاً به لــ{ يختص }؛ وعلى كلا الـوجهين المعـنى واحـد: أي أن الله عز وجل يخص برحمته من يشاء؛ فيختص بها..
وقوله تعـالى: { برحمته } يشــمل رحمة الــدين، والــدنيا؛ ومن ذلك رحمة الله بــإنزال هــذا الــوحي على محمد صــلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا الـوحي الـذي نـزل على الرسـول صـلى الله عليه وســلم هو من رحمة الله عليــه، وعلينــا، كما قــال تعــالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: 107).
وقوله تعـالى: { من يشـاء } هـذا مقـرون بالحكمـة؛ يعـني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعــالى؛ فمن اقتضت حكمته ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه..
قوله تعالى: { والله ذو الفضل } أي ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و{ العظيم } أي الواسع الكثير الكبـير؛ فـالعِظم هنا يعـود إلى الكمية، وإلى الكيفية..

الفوائد:

1. من فوائد الآية: بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان جميع الأصناف: أهل الكتاب . وهم اليهود، والنصارى .؛ والمشركين . وهم كل أصحاب الأوثان .؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودون الخير للمسلمين..

2. ومنها: أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداءً، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين..

3. ومنها: أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم..

4. ومنها: أنه يحرم على المسلمين أن يُوَلّوا هؤلاء الكفار أيّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائماً على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: { ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم }؛ وهي شاملة لخير الدنيا، والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، ونزل عليهم هذا الكتاب..

5. ومن فوائد الآية: أن خير الله لا يجلبه ودّ وادّ، ولا يرده كراهة كاره؛ لقوله تعالى: { والله يختص برحمته من يشاء }؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود، والنصارى، والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك[1]" ..

6. . ومنها: أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شبه باليهود، والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم..

7. ومنها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: { من يشاء }؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله ما فعلوه} [الأنعام: 137] ، وقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} [التكوير: 29] ؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} [السجدة: 13] ، وقوله تعالى: {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد} [فاطر: 16] ، وقوله تعالى: { والله يفعل ما يشاء }، وغير ذلك من الآية..

---

[1] أخرجه أحمد 1/293، حديث رقم 2669؛ وأخرجه الترمذي ص1904 – 1905، كتاب صفة القيامة، باب 59: حديث حنظلة، حديث رقم 2516، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح 2/308 – 309، حديث رقم 2043.

.8 ومن فوائد الآية: إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: (برحمته)
.9 ومنها: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: { يختص }؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة..
.10 ومنها: إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: (ذو الفضل)
.11 ومنها: إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ؛ وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"[1] ..

تنبيه:.

لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون} [المائدة: 82] ؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون، والرهبان الذين من صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم، حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة..

القرآن

)مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:106)

التفسير:

.{ 106 } قوله تعالى: { ما ننسخ من آية أو ننسها } فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: بفتح النون الأولى في { نَنسخ }؛ وضمها في { نُنسها } بدون همز؛ والثانية: بفتح النون الأولى في { نَنسخ }؛ وفتحها في { نَنسأها } مع الهمز؛ والثالثة بضم النون الأولى في { نُنسخ }؛ وضمها في { نُنسها } بدون همز..

قوله تعالى: { ما ننسخ من آية... }؛ { ما }: شرطية؛ وهي اسم شرط جازم يجزم فعلين؛ الأول: فعل الشرط: { ننسخ }؛ والثاني: جوابه: { نأت }؛ وأما قوله تعالى: { أو ننسها } فهي معطوفة على (ننسخ)

[1] أخرجه البخاري ص29، كتاب التيمم، باب 1، حديث رقم 335، وأخرجه مسلم ص759، كتاب المساجد مواضع الصلاة، باب 1: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم 1162 [2] 520.

وقوله تعـــالى: { ننسخ من آية أو ننســـها } بضـــمير الجمع للتعظيم؛ وليس للتعدد؛ لأن الله واحـد؛ و"النسـخ" معنـاه في اللغـة: الإزالة؛ أو ما يشبه النقل؛ فالأول كقولهم: "نسخت الشـمس الظـل" يعني أزالته؛ والثاني كقولهم: "نسـخت الكتـاب"؛ إذ ناسخ الكتـاب لم يزلـه، ولم ينقلـه؛ وإنما نقش حروفـه، وكلماتـه؛ لأنه لو كـان "نسخ الكتاب" يعني نقله كـان إذا نسخته انمحت حروفه من الأول؛ وليس الأمر كذلك؛ أما في الشرع: فإنه رفع حكم دليل شرعي، أو لفظـه، بـــدليل شـــرعي؛ و{ مِن } لبيـــان الجنس؛ لأن { ما } اسم شـــرط جازم مبهم؛ والمراد بـ "الآية" الآية الشرعية؛ لأنها محل النسخ الذي به الأمر والنهي دون الآية الكونية..

وقوله: { ننسها } من النسيان؛ وهو ذهـول القلب عن معلـوم؛ وأما { ننسأها } فهو من "النسأ"؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تـأخير الإنـزال؛ أي أن الله يـؤخر إنزالهـا، فتكـون الآية لم تـنزل بعـد؛ ولكن الله سـبحانه وتعـالى أبـدلها بغيرهـا؛ وأما على قـراءة { ننسها } فهو من النسيان؛ بمعنى نجعل الرسول صلى الله عليه وسـلم ينسـاها، كما في قوله تعـالى: {سـنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله} [الأعلى: 6 ـ 7] ؛ والمراد به هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجـرد النسـيان لا يقتضي النسـخ؛ فـالنبي صـلى الله عليه وسلم قد ينسى بعض الآيـة؛ وهي باقية كما في الحـديث: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة فترك شيئاً لم يقــرأه فقال له رجل: تركت آية كذا وكـذا، فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: هلَّا أذكرتنيها"[1] ..

قوله تعالى: { نـأت بخـير منها } هو جـواب الشـرط؛ والخيرية هنا بالنسبة للمكلف؛ ووجه الخيرية . كما يقـول العلمـاء . أن النسخ إن كـــان إلى أشد فالخيرية بكـــثرة الثـــواب؛ وإن كـــان إلى أخف فالخيرية بالتسـهيل على العبـاد مع تمـام الأجـر؛ وإن كـان بالمماثل فالخيرية باستسلام العبد لأحكام الله عز وجـل، وتمـام انقيـاده لهـا، كما قـــال تعـــالى: {وما جعلنا القبلة الـــتي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} [البقرة: 143] ..

قوله تعالى: { أو مثلها } أي نأتي بمثلها..

قوله تعـالى: { ألم تعلم } الهمـزة هنا للاسـتفهام؛ والمـراد به التقريـر؛ وكلما جـاءت على هـذه الصـيغة فالاسـتفهام فيها للتقريـر، مثل: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: 1] ؛ فقوله تعالى: { ألم تعلم } يقـرر الله المخـاطَب . سـواء قلنـا: إنه الرسـول صـلى الله عليه وســلم؛ أو كل من يتــأتى خطابه . بالاســتفهام بأنه يعلم { أن الله على كل شـيء قـدير }؛ يعـني أنك قد علمت قـدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ..

وقوله تعـــالى: { قـــدير }: لما أريد بها الوصف جـــاءت على صيغة "فعيل"؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصـيغة "الفاعـل"، كما في قوله تعـالى: {قل هو القـــادر على أن يبعث عليكم عـــذاباً من فوقكم} [الأنعام: 65] ؛ و "القدرة" صـفة تقـوم بالقـادر بحيث يفعل

[1] أخرجه أبو داود ص1290، كتاب الصلاة، باب 158: الفتح على الإمام في الصلاة، حديث رقم 907، أ، قال الألباني في صحيح أبي داود، حسن، 1/254.

الفعل بلا عجزٍ؛ و"القوة" صفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذاً المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً} [فاطر: 44] ؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة} [الروم: 54]ـ ؛ والفرق الثاني بينهما: أن "القوة" يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأما "القدرة" فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر..

تـنـبـيـه.:

من هذا الموضع من السورة إلى ذكر تحويل القبلة في أول الجزء الثاني تجد أن كل الآية توطئة لنسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ ولهذا تجد الآية بعدها كلها في التحدث مع أهل الكتاب الذين أنكروا غاية الإنكار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلاً، وواقع شرعاً؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدها إلى يوم القيامة؛ فإذا نُسِخت فمعناه أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ . أي أخرجناه من الحكم .؛ فمثلاً: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجباً إلى يوم القيامة شاملاً لجميع الأزمان؛ فلما نُسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصاً؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافاً لفظياً؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا أنه يسميه تخصيصاً؛ وغيره يسمونه نسخاً؛ والصواب تسميته نسخاً؛ لأنه صريح القرآن: { ما ننسخ من آية أو ننسها }؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف..

.2 ومن فوائد الآية: أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: { نأت بخير منها }؛ أو مماثل له عملاً . وإن كان خيراً منه مآلاً .؛ لقوله تعالى: (أو مثلها)

.3 ومنها: أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى أنه قد يكون الحكم خيراً للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيراً لهم في وقت آخر..

.4 ومنها: عظمة الله عز وجل لقوله تعالى: { ما ننسخ }: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة..

.5 . ومنها: إثبات تمام قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير }؛ ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء..

.6 ومنها: أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: (أن الله على كل شيء قدير).

.7 ومنها: أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادراً عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذا هو الحكمة في قوله تعالى: { ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير } بعد ذكر النسخ..
.8 ومنها: أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فإن الله لا يبدل حكماً بحكم إلا لمصلحة..
قد يقول قائل: ما الفائدة إذاً من النسخ إذا كانت مثلها والله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة؟
فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولاً وآخراً، دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يميناً، أو شمالاً؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجَه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضل من ضل، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله} [البقرة: 143] ؛ فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمناً عابداً لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقاً، ومن ليس بعابد..
.9 ومن فوائد الآية: أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئاً إلا أبدله بخير منه، أو مثله؛ ووعده صدق..
.10 ومنها: ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها)

القرآن

)أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة:107)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة:107)

التفسير:

.{ 107 } قوله تعالى: { ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض } أي أن الله وحده الذي له ملك السموات، والأرض: ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات، والأرض، وأوصافها ملك لله؛ و"التدبير" يعني أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع؛ و{ السموات } جمع سماء؛ ويُطلق على العلو، وعلى السقف المحفوظ . وهو المراد هنا .؛ وهي سبع سموات كما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ و{ الأرض } أي جنس الأرضين، فيشمل السبع كلها..

قوله تعـالى: { وما لكم من دون الله } أي من سـواه؛ { من ولي }: فعيل بمعنى مفعـل؛ أي ما من أحد يتـولاكم فيجلب لكم الخـير؛ { ولا نصيرٍ } أي ولا ناصر يـدفع عنكم الشـر؛ و{ مِن }: حـرف جر زائد إعراباً؛ ولكنه أصلي المعنى؛ إذ إن الغـرض منه التنصـيص على العموم؛ يعني ما لكم أيّ ولي..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: تقرير عمـوم ملك اللـه؛ لقوله تعـالى: { ألم تعلم أن الله له ملك السـموات والأرض }؛ ولا يـرد على هـذا إضـافة الملك للإنسـان، كما في قوله تعـالى: {أو ما ملكت أيمـانكم} [النساء: 3] ؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسـان للأشـياء ملك محـدود، ونـاقص، وقاصـر؛ محـدود من حين اسـتيلائه عليه إلى أن يخـرج عن ملكه بـبيع، أو هبـة، أو مـوت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شـرعاً؛ ولهـذا لو أراد أن يحـرق ملكه لم يملك ذلـك؛ كـذلك أيضـاً ملك الإنسـان قاصـر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين..

.2 ومن فوائد الآيـة: اختصـاص ملك السـموات، والأرض باللـه؛ وهـذا مأخوذ من تقديم الخـبر، حيث إن تقـديم الخـبر يـدل على الحصـر؛ لقوله تعالى: { له ملك السموات والأرض }..

.3 ومنهـا: أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشـاء، ويثبت؛ فكـأن قوله تعالى: { ألم تعلم أن الله له ملك السـموات والأرض } تعليل لقوله تعـالى: { ما ننسخ من آية }؛ فالمالك للسـموات والأرض يتصـرف فيهما كما شاء..

.4 ومنها: أنه لا أحد يدفع عن أحد أراد الله به سوءاً؛ لقوله تعـالى: { وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

.5 ومنهـا: أنه يجب على المـرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولايـة، والنصر..

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين} [الأنفال: 62] ، ويقول تعـالى: {إلا تنصـروه فقد نصـره الله} [التوبة: 40] ؛ فأثبت نصراً لغير الله..

فـالجواب: أن إثبـات النصر لغـير الله إثبـات للسـبب فقـط؛ وليس نصـراً مسـتقلاً؛ والنصر المسـتقل من عند اللـه؛ أما انتصـار بعضـنا ببعض فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال..

.6 ومن فوائد الآية: أن ما يريده الإنسان فهو إما جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه..

القـرآن

)أَمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تَسْـأَلوا رَسُـولَكُمْ كَمَا سُـئِلَ مُوسَـى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـوَاءَ السَّبِيلِ) (البقرة:108)

التفسير:

.{ 108 } قوله تعـالى: { أم تريـدون أن تسـألوا }؛ { أم } هنا منقطعة بمعنى "بل" وهمزة الاسـتفهام؛ أي: بل أتريـدون؛ والإضـراب هنا ليس للإبطـال؛ لأن الأول ليس بباطـل؛ بل هو بـاق؛ فالإضـراب هنا إضراب انتقال؛ و "الإرادة" هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقـل: بمعـنى المحبـة؛ والخطـاب هنا قيـل: إنه لليهـود حينما سـألوا النـبي صلى الله عليه وسلم آيات يـأتي بهـا؛ وقيـل: إنه للمشـركين؛ لقوله تعـالى: {وقـالوا لن نـؤمن لك حـتى تفجر لنا من الأرض ينبوعـاً} [الإسراء: 90] ؛ وقيل: إنه للمسلمين؛ والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمـداً صـلى الله عليه وسـلم رسـول للجميـع؛ لكن تخصيصـها باليهود يبعـده قوله تعـالى: { كما سـئل موسى من قبل }؛ فمعـنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كان بنو إسرائيل تـورد الأسـئلة على رسـولها؛ ولا شك أن الاسـتفهام هنا يـراد به الإنكـار على من يكـثرون السـؤال على النـبي صـلى الله عليه وسلم..

قوله تعالى: { رسولكم }: أضافه سبحانه وتعالى إليهم، مع أنه في آيات كثيرة أضـافه الله إلى نفسـه: {يا أهل الكتـاب قد جـاءكم رسولنا يبين لكم} [المائدة: 15] ؛ والجمع بين ذلـك: أن كل واحـدة من الإضافتين تنزل على حـال: فهو رسـول الله باعتبـار أنه أرسـله؛ ورسولنا باعتبار أنه أرسل إلينا؛ والمـراد به محمد صـلى الله عليه وسلم بالإجماع..

قوله تعالى: { كما سـئل موسى من قبل } أي كما سـأل بنو إسرائيل موسى من قبـل، كقـولهم: {لن نـؤمن لكِ حـتى نـرى الله جهـرة} [البقـرة: 55] ، وقـولهم: {اجعل لنا إلهـاً كما لهم آلهـة} [الأعراف: 138] ، وغير ذلك؛ فبنو إسرائيل هم المشهورون بالأسئلة، والتعنت، والإعجـــاز؛ أما هـــذه الأمة فإنها قد أدَّبها الله عز وجل فأحسن تأديبها: لا يسألون إلا عن أمر لهم فيه حاجة..

قوله تعالى: { ومن يتبدل الكفر بالإيمان } أي يأخذ الكفر بديلاً عن الإيمان؛ { فقد ضل } أي تاه { سواء السبيل } أي وسط الطريـق؛ يعني يخـرج عن وسط الطريق إلى حافـات الطريـق، وإلى شـعبها؛ وطريق الله واحـــد؛ وعليك أن تمشي في ســـواء الصـــراط . أي وسطه . حتى لا تعرض نفسك للضلال..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم؛ لأن الاسـتفهام: { أم تريـدون } يقصد به الإنكـار؛ وقد قـال النبي صلى الله عليه وسـلم محـذراً من ذلـك: "ذروني ما تـركتكم

فإنما هلك الـــذين من قبلكم بكــــثرة مســــائلهم واختلافهم على أنبيـائهم"[1] ؛ وصح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم: "أن أعظم المسـلمين جرمـاً من سـأل عن شـيء لم يحـرَّم فحُـرِّم من أجل مسـألته"[2] ؛ فهـذا نهي، وإنكـار على الـذين يسـألون رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مسـائل؛ والمطلـوب من المسـلم في زمن الـوحي أن يسـكت حـتى يـنزل ما أراد الله عز وجل من أمر أو نهي..

.2 ومن فوائد الآية: تأكيد ذم هـذا النـوع من الأسـئلة؛ لقوله تعـالى: { رسولكم }؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسـولكم، فالـذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة..

.3 ومنهـا: أن إرسـال محمد صـلى الله عليه وسـلم من مصـالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى: (رسولكم)..

.4 ومنهـا: أن كـثرة الأسـئلة للنـبي صـلى الله عليه وسـلم فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى: (كما سئل موسى من قبل).

.5 ومنها: أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصـلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقـط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسـان ليضـرب آراء العلمـاء بعضـها ببعض، وما أشـبه ذلـك؛ أو لأجل إعنـات المسـؤول، وإحراجـه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي..

.6 ومن فوائد الآيــة: ذم بــني إســرائيل الــذين أرسل إليهم موسى صـلى الله عليه وسـلم، حيث إن الله سـبحانه وتعـالى ذكـرهم في هذه الآية على سبيل الذم..

.7 ومنهـا: أن اليهـود كـانوا سـألوا موسى عن أشـياء فكـانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشـياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملـوا بهـا؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة..

.8 ومنها: إثبات رسالة موسى صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعـالى: { كما سئل موسى من قبل } يعني: وهو رسول..

.9 ومنها: ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعـالى: { ومن يتبـدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ؛ وهذا يشـمل من بقي على كفــره بعد عــرض الإيمــان عليــه، ومن ارتد بعد إيمانــه؛ فإنه في الحقيقة تبـديل؛ لأن كل مولـود يولد على الفطـرة؛ فـإذا كفر فقد تبدل الكفر بالإيمان..

.10 ومنها: أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال..

.11ومنهـا: عكس هـذه المسـألة: أن من يتبـدل الإيمـان بـالكفر فقد هُدي إلى سواء السبيل..

---

[1] أخرجه مسلم ص901، كتاب الحج، باب 73: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم 3257 [412] 1337.

[2] أخرجه البخاري ص607، كتاب الاعتصام، باب 3: ما يكره من كثرة السؤال، حديث رقم 7289، وأخرجه مسلم ص1092 – 1093، كتاب الفضائلن باب 37: توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله...، حديث رقم 6116 [132] 2358.

.12 ومنهـا: الـرد على الجبرية الـذين يقولـون: إن الإنسـان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر عليه؛ لقوله تعـالى: { ومن يتبـدل الكفر بالإيمان }..

.13 ومنهـا: أنه يجب على السـائل أن يعمل بما أجيب بـه؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تـبين له أنكـر؛ فـالواجب على المـرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقولـه؛ ولهـذا قال العلمـاء: ومن سأل مفتيـاً ملتزمـاً بقوله حـرم عليه أن يسـأل غيره؛ لأنه حين سـأله كـان يعتقد أن الـذي يقوله هو الشـرع؛ فـإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غـيره؛ نعم، إذا سأل إنسـاناً يثق به بنـاءً على أن فتـواه هو الشرع، وأفتـاه، ولكنه سـمع في مجلس عـالم آخر حكماً نقيض الذي أفتي به مدعَّماً بالأدلة، فحينئذ له أن ينتقل؛ بل يجب عليـه؛ أو سأل عالمـاً مقتنعـاً بقوله للضـرورة . لأنه ليس عنــده في البلد أعلم منه . على نية أنه إذا وجد أعلم منه ســأله؛ فهذا أيضاً يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه..

القـرآن

)وَدَّ كَثِـيرٌ مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ لَـوْ يَـرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْـدِ إِيمَـانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَـقُّ فَـاعْفُوا وَاصْـفَحُوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ((البقرة:109)

التفسير:

.{ 109 } قوله تعالى: { ود كثير من أهل الكتاب لو يـردونكم من بعد إيمـانكم كفـاراً }؛ { ود } بمعـنى أحب؛ بل إن "الـود" خـالص المحبة؛ والمعنى: أن كثيراً من أهل الكتـاب يـودون بكل قلـوبهم أن يردوكم كفاراً؛ أي يرجعوكم كفاراً؛ وعلى هذا فـ{ يـردونكم } تنصب مفعـولين؛ الأول: الكـاف في { يـردونكم }؛ والثـاني: { كفـاراً }؛ و{ أهل الكتـاب } هم اليهـود، والنصـارى؛ والمـراد بـ{ الكتـاب } التوراة، والإنجيل؛ و{ لو } هنا مصـدرية؛ وضـابطها أن تقع بعد "ود" ونحوهـا؛ و{ من بعد إيمـانكم } أي من بعد أن ثبت الإيمـان في قلوبكم..

قوله تعالى: { حسداً } مفعول لأجله عاملـه: { ود }؛ أي ودوا من أجل الحسد؛ يعـني هـذا الـود لا لشـيء سـوى الحسـد؛ لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفـار أعـداء؛ والعـدو يحسد عـدوه على ما حصل له من نعمة الله؛ و "الحسـد" تمـني زوال نعمة الله على الغير سـواء تمـنى أن تكـون لـه، أو لغـيره، أو لا لأحـد؛ فمن تمنى ذلك فهو الحاسد؛ وقيل: "الحسد" كراهة نعمة الله على الغير..

قوله تعـالى: { من عند أنفسـهم } أي هـذه المـودة الـتي يودونها ليست لله، ولا من الله؛ ولكن من عند أنفسهم..

قوله تعـالى: { من بعد ما تـبين } أي من بعد ما ظهر { لهم } أي لهـؤلاء الكثـيرين؛ { الحق } أي ما أنتم عليه من الحــق؛ و "الحق" هو الشيء الثابت؛ فإن وصف به الحكم فـالمراد به العـدل؛ وإن وصف به الخـبر فـالمراد به الصـدق؛ فـ{ الحق } الصـدق في

الأخبار، والعدل في الأحكام؛ ودين الإسلام على هذا؛ وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا؛ فإن أخباره صدق، وأحكامه عدل..

قوله تعالى: { فاعفوا واصفحوا }: الخطاب للمؤمنين عامة؛ ويدخل فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ و "العفو" بمعنى ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من عفا الأثر: إذا زال لتقادمه؛ و{ اصفحوا }: قيل: إنه من باب عطف المترادفين، كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً وميناً و"الكذب" و"المين" معناهما واحد؛ ولكن الصواب أن بين "العفو" ، و "الصفح" فرقاً؛ فـ "العفو" ترك المؤاخذة على الذنب؛ و "الصفح" الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئاً صار . يوليه صفحة عنقه .؛ فـ "الصفح" معناه الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فـ "الصفح" أكمل إذا اقترن بـ "العفْو" ..

قوله تعالى: { حتى يأتي الله بأمره } أي بأمر سوى ذلك؛ وهو الأمر بالقتال..

قوله تعالى: { إن الله على كل شيء قدير } أي لا يعتريه عجز في كل شيء فعله..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى للأمة الإسلامية؛ وجه ذلك أن كثيراً منهم يودون أن يردوا المسلمين كفاراً حسداً من عند أنفسهم..

.2 ومنها: أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: { لو يردونكم }؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية، أو النصرانية لم يعط حكم اليهود، والنصارى..

.3 ومنها: أن الحسد من صفات اليهود، والنصارى..

.4 ومنها: تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من تشبه بقوم فهو منهم"[1] ؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنى زواله؛ لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله} [النساء: 32] ؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا ناراً تتلظى في جوفه؛ وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهاً لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد أو الحسود . مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلاً

---

[1] أخرجه أحمد 2/50، حديث رقم 5114، وأخرجه أبو داود ص1518، كتاب اللباس، باب 4: في لبس الشهرة، حديث رقم 4031، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفن كتاب السير، باب 79: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم 33006، قال الحافظ في الفتح 10/271: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح 2/504، وقال في الإرواء: صحيح 5/109، حديث رقم 1269.

فيها؛ لأنه لابد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر، وكسب مكسباً كبيراً في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب بينما عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضاً بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده . وإن كان أعلم منه . يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خُلُق الحسد إلا أنه من صفات اليهود لكان كافياً في النفور منه..

.5 ومن فوائد الآية: علم اليهود، والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: { حسداً }؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيراً، ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} [البقرة: 105] ..

.6 ومنها: وجوب الحذر من اليهود، والنصارى؛ ما دام كثير منهم يودون لنا هذا فإنه يجب علينا أن نحذر منهم..

.7 ومنها: بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: { من عند أنفسهم }؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسداً..

.8 ومنها: أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: "لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه" لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئاً سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفاراً..

.9 ومن فوائد الآية: مراعاة الأحوال، وتطور الشريعة، حيث قال تعالى: { فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره }..

.10 ومنها: أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم..

11 . ومنها: جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة..

.12 ومنها: إثبات الحكمة لله عز وجل، حيث أمر بالعفو، والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه، وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية، ينافي الحكمة..

.13 ومنها: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد فعلاً يليق بجلاله وعظمته، وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: { حتى يأتي الله بأمره }..

14. ومنهـا: ثبـوت القـدرة لله عز وجـل، وأنها شـاملة لكل شـيء؛ لقوله تعالى: (إن الله على كل شيء قدير)
15. ومنهـا: الـرد على المعتزلة القدريـة؛ لأنهم يقولـون: إن الإنسـان مسـتقل بعملـه؛ وإذا كـان مسـتقلاً بعمله لـزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل..
16. ومنها: بشارة المؤمنين بـأن الله سـبحانه وتعـالى سـيغير حـالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو..
17. ومنهـا: اتبـاع الحكمة في الـدعوة إلى الله بالصـبر، والمصـابرة حتى يتحقق النصر، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها..

القـرآن

)وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ وَمَا تُقَـدِّمُوا لِأَنْفُسِـكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ) (البقرة:110)

التفسير:

.{ 110 } قوله تعالى: { وأقيموا الصـلاة } يعـني أدوا الصـلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قيماً معتدلاً مستقيماً؛ فمعـنى { أقيموا الصلاة } أي ائتوا بها كاملة بشروطها، وواجباتهـا، وأركانهـا، ومكملاتها.

قوله تعـالى: {وآتـوا الزكـاة} أي أعطوهـا؛ وهنا حـذف المفعـول الثـاني؛ والتقــدير: وآتــوا الزكــاة مســتحقيها؛ و{ الزكــاة } المفعــول الأول؛ ومسـتحقوها قد بينهم الله في سـورة بـراءة في قوله تعـالى: {إنما الصدقات للفقراء...} إلخ [التوبة: 60] ..

و"الزكاة" في اللغة النماء، والزيادة؛ ومنه قـولهم: "زكا الـزرع" إذا نمــا، وزاد؛ وفي الشـــرع هي دفع مـــال مخصـــوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله عز وجل؛ وسـميت زكـاة؛ لأنها تـزكي الإنسـان، كما قال الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا} [التوبة: 103] ؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقـه، وعقيدتـه، وتطهـره من الرذائـل؛ لأنها تخرجه من حظـيرة البخلاء إلى حظـيرة الأجـواد، والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته..

قوله تعالى: { وما تقدموا لأنفسكم }؛ { ما } شرطية؛ لأنها جـزمت فعل الشرط، وجوابه..

قوله تعـالى: { من خـير } يشـمل ما يقدمه من المـال، والأعمـال؛ وهو بيان للمبهم في اسم الشرط..

ضـعف إلى أضـعاف كثـيرة، كما قـال تعـالى: {مثل الـذين ينفقـون أمـوالهم في سـبيل الله كمثل حبة أنبتت سـبع سـنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء} [البقرة: 261].

قوله تعــالى: { إن الله بما تعملــون بصــير }؛ هــذه الجملة مؤكــدة بــ{ إن } مع أن الخطــاب ابتــدائي؛ إذ إنه لم يوجه إلى مـتردد، ولا منكـر؛ والخطـاب إذا لم يوجه لمنكـر، ولا مـتردد فإنه يسـمى ابتـدائياً؛ والابتـدائي لا يـؤكـد؛ لأنه لا حاجة لـذلك؛ ولكنه قد يؤكد لا باعتبار حال المخاطب؛ لكن باعتبـار أهمية مدلولـه؛ فهنا له

أهمية عظيمـــة: أن الله ســبحانه وتعــالى يخبرنا أنه بكل ما نعمل بصــير؛ و{ ما } اسم موصــول يفيد العمــوم؛ أي بما نعمل قلبيــاً، وبـدنياً؛ قوليـاً، وفعلياً؛ لأن القلـوب لها أعمـال كالمحبـة، والخـوف، والرجاء، والرغبة، وما أشبه ذلك؛ و{ بما تعملون } متعلقة بـ{ بصير }؛ وقدمت عليها لغرضين؛ الأول: مراعـاة الفواصـل؛ لأن الـتي قبلها فاصـلة بـالراء: { قــدير }، وبعــدها: { بصــير }؛ والثــاني: من أجل الحصر؛ والحصر هنا وإن كـان يقلل من العمـوم لكنه يفيد الـترهيب والــترغيب؛ لأنه إذا قيــل: أيهما أعظم في التهديد أو الــترغيب، أن نقـول: إن الله بصـير بكل شـيء مما نعمـل، ومما لا نعمـل؛ أو أنه بصير بما نعمل فقط؟

فالجواب: أن الأول أعم؛ والثاني أبلغ في التهديد، أو الـترغيب؛ وهو المناسب هنا؛ كأنه يقـول: لو لم يكن الله بصـيراً إلا بأعمـالكم فإنه كاف في ردعكم، وامتثالكم؛ و{ بصـير } ليس من البصر الـذي هو الرؤية؛ لكن من البصر الـذي بمعـنى العلم؛ لأنه أشـمل حيث يعم العمل القلبي، والبدني؛ والعمل القلبي لا يدرك بالرؤية.

الفوائد:

1. من فوائد الآيــة: وجــوب إقامة الصـلاة؛ والصـلاة تشـمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحــديث[1] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامـة؛ ما من إنسـان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها، وترقعها..

2. ومنها: وجوب إيتاء الزكاة . يعني لمستحقيها ...

3. ومنها: أن الصـلاة أوكد من الزكـاة؛ ولهـذا يقـدمها الله عليها في الذكر..

4. ومنها: أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من أسباب النصـر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: {فاعفوا واصفحوا حـتى يـأتي الله بـأمره} [البقـرة: 109] ؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: {ولينصــرن الله من ينصــره إن الله لقــوي عزيز * الـذين إن مكنّاهم في الأرض أقـاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمـروا بـالمعروف ونهـوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} [الحج: 40، 41] ..

5. ومنها: أنه ينبغي للإنسـان أن يتشـاغل بـالأهم فـالأهم مع الـدعوة إلى الله عز وجل..

6. ومنهـا: أن كل خـير يقدمه العبد لربه عز وجل فإنه سـيجد ثوابه عنده..

7. ومنهـا: أن الثـواب عـام لجميع الأعمـال صـغيرها، وكبيرهـا؛ لقوله تعالى: { من خير }؛ فإنها نكرة في سـياق الشـرط؛ فتفيد العمـوم؛ فـأيّ خـير قدمته قليلاً كـان، أو كثـيراً سـتجد ثوابـه؛ قـال الرسـول صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[2] ..

---

[1] كما في سنن أبي داود في الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه"، من حديث أنس بن حكيم حديث رقم (864). والترمذي باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة حديث رقم (413)، والنسائي في الصلاة. باب المحاسبة على الصلاة.

[2] اخرجه البخاري، 111، كتاب الزكاة، باب 10: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"، حديث رقم 1417، وأخرجه مسلم ص838، كتاب الزكاة، باب 20: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم 2348 [67] 1016.

8. ومنها: الترغيب في فعل الخـير، حيث إن الإنســان يجد ثوابه عند ربه مدخراً له . وهو أحوج ما يكون إليه ...

9. ومنهــا: أن الإنســان إذا قــدم خــيراً فإنما يقدمه لنفســه؛ لقوله تعالى: { وما تقدموا لأنفسـكم من خـير }؛ ولهـذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه..

10. ومنها: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل..

11. ومنها: التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: (إن الله بما تعملــون بصير)

القـرآن

)وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:111)

التفسير:

.{ 111 } قوله تعالى: { وقالوا } أي اليهود، والنصارى؛ { لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً }: هذا قول اليهود؛ { أو نصارى }: هذا قول النصارى..

قوله تعالى: { تلك أمانيهم } أي تلك المقالة؛ و{ أمانيهم } جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه..

قوله تعالى: { قل } أي يا محمد؛ { هاتوا }: فعل أمر؛ لأن ما دل على الطلب، ولحقته العلامة فهو فعل أمر؛ يقال: "هاتي" للمرأة؛ "هاتيا" للاثنين؛ والأمر هنا للتحدي، والتعجيز؛ { برهانكم } أي دليلكم؛ مِن "برهن على الشيء": إذا بينه؛ أو من "بَرَه الشيء": إذا وضح بالعلامة؛ فعلى الأول تكون النون أصلية؛ وعلى الثاني تكون النون زائدة؛ وعلى القولين جميعاً فـ "البرهان" هو الذي يتبين به حجة الخصم؛ يعني ما نقبل كلامكم إلا إذا أقمتم عليه الدليل؛ فإذا أقمتم عليه الدليل فهو على العين، والرأس..

قوله تعالى: { إن كنتم صادقين } يعني أن هذا أمر لا يمكن وقوعه؛ فهو تحدٍّ، كقوله تعالى: {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم} [البقرة: 94، 95] ؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذاً يكونون كاذبين.

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: بيان ما كان عليه اليهود، والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين..

.2 ومنها: تعصب اليهود، والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله..

.3 ومنها: أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: { تلك أمانيهم }؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى، والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود، ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أهل النار؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[1] ؛ فالحاصل أن هذا القول . وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . كذب من الطرفين؛ ولهذا قال

[1] أخرجه مسلم ص753، كتاب الإيمان، باب 70: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس...، حديث رقم 386 [240] 153.

تعالى: { تلك أمانيهم }؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني"[2] ..

.4 ومن فوائد الآية: أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها ففيه شَبه من اليهود، والنصارى..

.5 ومنها: عدل الله عز وجل في مخاطبة عباده، حيث قال تعالى: { قل هاتوا برهانكم }؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير..

.6 ومنها: أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعَوه بدليل أنهم لم يأتوا به..

.7 ومنها: أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: { إن كنتم صادقين }؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بما يبرر قولهم، ويصدِّقه لأتوا بها..

القرآن

)بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: 112)

التفسير:

.{ 112 } قوله تعالى: { بلى }: هذا إبطال للنفي في قولهم: { لن يدخل... } إلخ؛ وإن كان بعض المفسرين يقول: إن { بلى } هنا بمعنى "بل"؛ ولكن نقول: { بلى } هنا حرف جواب تفيد إبطال النفي؛ يعني لما قالوا: { لن يدخل الجنة... } إلخ قال الله تعالى: { بلى } أي يدخل الجنة من ليس هوداً، أو نصارى؛ وبينه بقوله تعالى: { من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره }؛ { من } شرطية؛ وهي مبتدأ؛ وجواب الشرط قوله تعالى: { فله أجره }؛ والمراد بـ "الوجه" القصد، والنية، والإرادة؛ "أسلمه لله" أي جعل اتجاهه، وقصده، وإرادته خالصاً لله عز وجل؛ وعبر بـ "الوجه" لأنه الذي يدل على قصد الإنسان؛ ولهذا يقال: أين كان وجه فلان؟ يعني: أين كان قصده، واتجاهه..

وقوله تعالى: { وهو محسن }: الجملة في محل نصب على الحال من فاعل { أسلم }؛ يعني: أسلم والحال أنه محسن . أي متبع لشريعة الله ظاهراً، وباطناً ...

---

[2] أخرجه أحمد 4/124، حديث رقم 17253، وأخرجه الترمذي ص1899، كتاب صفة القيامة، باب 25: حديث الكيس من دان نفسه...، حديث رقم 2459؛ وأخرجه ابن ماجة ص2735، كتاب الزهد، باب 31: ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم 4260، وأخرجه الحاكم في مستدركه 1/57 4/251؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ وقال الذهبي في ذيل المستدرك (1/57): أبو بكر واه، وقال في ذيل المستدرك 4/251: "صحيح" هـ؛ وقال الألباني: "ضعيف" (ضعيف ابن ماجة ص349، حديث رقم 930)، فمدار الحديث على أبي بكر بن أبي مريم، قال الحافظ في التقريب: "ضعيف" تحرير التقريب 4/158.

قوله تعالى: { فله أجره } أي ثوابه؛ وشبَّهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل..
قوله تعالى: { عند ربه }: أضاف العندية إليه لفائدتين:.
الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم إياه أنه قال: "فاغفر لي مغفرة من عندك[1]" ..
والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحداً أحفظ من الله؛ إذاً فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان..
وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا من الربوبية الخاصة
قوله تعالى: { ولا خوف عليهم } أي فيما يستقبل من أمرهم { ولا هم يحزنون } أي فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين؛ الأول: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: { من أسلم وجهه لله }؛ والثاني: اتباع شرعه؛ لقوله تعالى: { وهو محسن }..
.2 ومنها: أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: { وهو محسن }؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان..
ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم . ولو مع حسن النية .؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان..
.3 ومن فوائد الآية: الدلالة على الشرطين الأساسيين في العبادة؛ وهما الإخلاص؛ والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم..
.4 ومنها: ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: (فله أجره عند ربه)
.5 ومنها: أن الجزاء من جنس العمل..
.6 ومنها: عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى: (عند ربه)
.7 ومنها: انتفاء الخوف، والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} (الأنعام: 82)
.8 . ومنها: حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف، والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تُملأ قلوبهم رعباً، وحزناً؛ قال تعالى: {وتقطعت بهم الأسباب} [البقرة: 166] ، وقال تعالى: {كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار} [البقرة: 167] ، وقال تعالى: {وأنذرهم يوم الحسرة} [مريم: 39] إلى غير ذلك من الآية الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد..

---
[1] أخرجه البخاري ص66، كتاب الأذان، باب 149: الدعاء قبل السلام، حديث رقم 834، وأخرجه مسلم ص1148، كتاب الذكر والدعوات، باب 14: الدعوات والتعوذ، حديث رقم 6869 [48] 2705.

.9 ومن فوائد الآيـة: الحث على الإخلاص لله سـبحانه وتعـالى في العبادة، واتبـاع الشـرع فيهـا؛ لأن الله إنما أخبرنا بهـذا الثـواب لمن أخلص، واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد الخبر؛ وهكـذا يقـال في كل ما أخـبر الله به من ثـواب على طاعـة، أو عقاب على معصـية؛ فإنه إنما يـراد به الحث على الطاعـة، والزجر عن المعصية..

القـرآن

)وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْـلَ قَـوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُـونَ) (البقـرة: 113)

التفسير:

.{ 113 } قوله تعالى: { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء } يعني على شيء من الدين..

قوله تعالى: { وقالت النصارى ليست اليهود على شيء } يعني على شيء من الدين..

وإنما قالت اليهود ذلـك؛ لأنهم يكفـرون بعيسـى، ولا يـرون شـريعته ديناً؛ وقالت النصارى: { ليست اليهود على شيء }؛ لأنهم يـرون أن الدين الحق ما كـانوا عليـه، واليهـود قد كفـروا بـه؛ أما عن دعـوى اليهود فإنها باطلة على كل تقـدير؛ لأن النصـارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي صـلى الله عليه وسـلم؛ وأما دعـوى النصـارى في اليهـود فحـق؛ لأن دينهم نسخ بما جـاء به عيسـى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنـوا بعيسـى؛ فـإذا كـذبوه لم يكونـوا على شـيء من الدين؛ بل هم كفار..

قوله تعـالى: { وهم يتلـون الكتـاب }: الجملة هـذه حاليـة؛ والضـمير { هم } يعـود على اليهـود، والنصـارى؛ يعـني: والحـال أن هـؤلاء المـدعين كلهم { يتلـون الكتـاب } يعـني يقرؤونـه؛ والمـراد بــ{ الكتـاب } الجنس، فيشـمل التـوراة، والإنجيـل؛ و "كتـاب" فعـال بمعـنى مفعـول؛ لأن الكتب المنزلة من السـماء تكتب وتُقـرأ؛ ولا سيما أن التوراة كتبها الله بيده سبحانه وتعالى..

قوله تعالى: { كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم }؛ قال المعربون: إن الكاف في مثل هذا التعبير اسم بمعـنى "مثـل"، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة؛ وأن "ذلك" اسم إشارة يشـير إلى المصـدر؛ أي مثـلَ ذلكِ القـول قـال: { الـذين لا يعلمـون }؛ يعـني: الذين لم يقـرؤوا كتابـاً؛ وكلمة { مثل قـولهم } تأكيد لــ{ كـذلك }؛ قالوا: لأن العامل الواحد لا ينصب معمولين بمعنى واحد..

وقوله تعـالى: { الـذين لا يعلمـون }؛ قـال بعض المفسـرين: المراد بهم كفـار قـريش . أهل الجاهلية .؛ فـإنهم قـالوا: إن محمـداً صـلى الله عليه وسـلم ليس على دين، وليس على شـيء؛ وقـال

بعض المفسـرين: إنهم أمم سـابقة؛ وقـال بعض المفسـرين: إنهم طوائف من اليهـود، والنصـارى؛ يعـني أن الـذين يتلـون الكتـاب من اليهود، والنصارى قالوا مثل قـول الـذين لا يعلمـون منهم؛ فاسـتوى قول عالمهم، وجـاهلهم؛ والأحسن أن يقـال: إن الآية عامة . مثل ما اختاره ابن جرير، وغيره .؛ والقاعدة أن النص من الكتـاب، والسـنة إذا كـان يحتمل معنـيين لا منافـاة بينهمـا، ولا يـترجح أحـدهما على الآخر فإنه يحمل على المعنيين جميعـاً؛ لأنه أعم في المعـنى؛ وهـذا من سعة كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وشمول معناهما؛ وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان..

قوله تعـالى: { فالله يحكم بينهم يـوم القيامـة}؛ الفـاء حـرف عطـف؛ ولفظ الجلالة مبتـدأ؛ وجملـة: { يحكم } في محل رفع خـبر المبتـدأ؛ و{ يحكم } للمسـتقبل؛ و "الحكم" معنـاه القضـاء، والفصل بين الشيئين؛ والله . تبارك وتعـالى . يـوم القيامة يقضي بين النـاس فيما كـانوا فيه يختلفـون؛ فيـبين لصـاحب الحق حقـه، ويجزيه بـه؛ و{ يـوم القيامة } هو اليـوم الـذي يبعث فيه النـاس؛ وسـمي بـذلك لأمور ثلاثة سبق ذكرها[1] ..

قوله تعــالى: { فيما كــانوا فيه يختلفــون } أي في الخلاف الواقع بينهم؛ ومعلـوم أن هنـاك خلافـاً بين اليهـود، والنصـارى؛ بل النصارى الآن مختلفون في مللهم بعضهم مع بعض اختلافاً جوهريـاً في الأصول؛ واليهود كذلك على خلاف؛ وكذلك المسـلمون عامة مع الكفار؛ والذي يحكم بينهم هو الله عز وجل يوم القيامة..

الفوائد:

.1 من فوائد الآية: أن الأمم الكافرة يكفِّر بعضـها بعضـاً؛ فهم أعـداء بعضــهم لبعض من جهــة؛ وأوليــاء بعضــهم لبعض من جهة أخــرى: بالنسـبة لنا هم بعضــهم لبعض وليّ؛ وبالنســبة لما بينهم بعضــهم لبعض عـدو؛ فالإسـلام عـدو مشـترك لليهوديـة، والنصـرانية، وسـائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضاً..

.2 ومنها: شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمـه؛ لقوله تعـالى: { وهم يتلون الكتاب }؛ فهذه الجملة تفيد زيـادة القبح فيما قـالوه، حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحـق؛ فالنصـارى تتلو التوراة، وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة . وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى .؛ واليهـود أيضـاً يتلـون الإنجيـل، ويعرفـون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكباراً؛ ولا ريب أن الـذي ينكر الحق مع العلم به أعظم قبحاً من الـذي ينكر الحق مع الجهل بـه؛ لأن هـذا معاند مكـابر بخلاف الجاهـل، فالجاهل ينكر الحق للجهل بـه؛ ثم إذا تـبين له الحق اتبعه إذا كان المـانع له من اتباعه الجهـل؛ لكن العـالم لا عذر له..

.3 ومن فوائد الآية: إثبـات يـوم القيامـة؛ لقوله تعـالى: { فالله يحكم بينهم يــوم القيامة }؛ والإيمــان بيــوم القيامة أحد أركــان الإيمــان

---

[1] انظر: ص276.

الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيراً بالإيمان به عز وجل..

.4 ومنها: إثبات الحكم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: { فالله يحكم بينهم }؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي؛ فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم} [الممتحنة: 10] ؛ والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين} [يوسف: 80] ؛ والجزائي: مثل هذه الآية: {فالله يحكم بينهم يوم القيامة }؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر؛ هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: 46] ، وقوله تعالى: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: 49] ، وقوله تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً"[2] ؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضى بينهم بالعدل..

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط} [يونس: 4] ؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير..

.5 ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق، والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: { فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون }، وقوله تعالى: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً} [النساء: 141] ؛ ولهذا لا يوجد حكم يبين للخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلاً لا يقول لأحد الخصمين: "لن يكون لخصمك سبيل عليك" حتى يتبين، ويأتي كلٌّ بحجته؛ لكن هنا بيّن الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع..

* * *

انتهى المجلد الأول من التفسير ويليه المجلد الثاني بإذن الله وبدايته تفسير الآية 114 من سورة البقرة

[2] أخرجه مسلم ص1129، كتاب البر والصلة، باب 15: تحريم الظلم، حديث رقم 6572 [55] 2577.